مريمَ ابنةَ عِمران

"ولم أكُ بغيًّا"

رواية

منال سالم



كانت تخوض إحدى أهم معاركها المصيرية في زمنٍ لم تتخذ فيه الإنجازات العلمية والتكنولوجية موقعها في قمة الهرم المعرفي عند بعض الطبقات الاجتماعية؛ حيثُ عمّت البساطة والتلقائية حياة الأكثرية منهم ممن يكدون ويكافحون لأجل توفير حياة أفضل لصغارهم، بالإضافة إلى كونهم يتوارثون ما خلّفه الأجداد والأباء من معتقداتٍ وموروثاتٍ دون زيادةٍ أو نقصان.

وبعينين اعتادتا التطلع إلى ذلك المكان الذي نشأت وترعرت فيه منذ نعومة أظافرها تأملت الحقول التي تفاوتت في درجة اخضرار محاصيلها، اتخذت حرصها الشديد وهي تخطو على إحدى القنوات اليدوية التي شقها أحد الفلاحين ليدفع مياه التُرعة دفعًا إلى أرضه البعيدة فتسقي الزرع وتروي الأرض لتنضج بعدها بأطيب الثمار. هبّت نسمةٌ منعشةٌ معبأة برائحة الخضرة الندية فأنعشت ذاكرتها بذكريات الطفولة البريئة، حيثُ لا هموم، لا مسئولية، ولا أحزان تفطر القلوب، وبأنّةٍ موجوعةٍ كتمتها قدر استطاعتها عبرت الأرض الطينية بخطواتٍ متأنيةٍ ومتهاودةٍ وهي تتأبط ذراع أختها الصغرى، عاونتها الأخيرة على السير فيه إلى أن وصلتا إلى الطريق الرملي غير المُعبّد، تلطخت أحذيتهما ببقايا الطين المبتل، وكذلك أطراف عباءتهما، أمسكت بها جيدًا حتى لا تتعثر في خطواتها وتتعرض للأذى، خاصةً أنها بلغت الأشهر الأخيرة من حملها. عشرات الأحداث انطلقت دفعةً واحدةً لتغزو رأسها وتزيد من الصّخب الدائر بداخلها، شردت "نوال" -ذات الأربعين عامًا- تتذكر التهديدات المستمرة على لسان زوجها بالزواج من أخرى إن لم تأتِ له بالذَكر المنشود، وكأنها وحدها المسئولة عن تحديد النوع وليس لشخصه الرجولي أدنى مسئولية، تحملت المشاق والصعاب لتحافظ على استقرار أسرتها، فهي امرأة كغيرها من مئات النساء تربت على المعتقد السائد "ظل رجل ولا ظل حائط"، تتحمل ما لا يُطاق ليبقى عِماد البيت قائمًا، قام والدها الراحل بتزويجها من قريب العائلة فور أن استدار جسدها ونضج بأنوثتها لتصبح منوطة برعاية عائلة بأكملها، أنهكها الحمل والإجهاض المتكرر فقضيا على ريعان شبابها وباتت شبه أنثى تقاتل للصمود في معترك الحياة، كرّست كامل وقتها لرعاية بناتها الأربع: "هناء"، "هند"، "علياء" و"خديجة"، ثم إسعاد زوجها "منصور" ونَيل رضائه حينما يكون متواجدًا بالمنزل، وهذا فور عودته من العراق فقط لأيام معدودة قبل أن يتركها ويرحل سعيًا وراء لقمة العيش.

نغصة مباغتة أشد قوة آلمتها بقسوةٍ فانتشلتها من شرودها لتضع تلقائيًا يدها على بطنها المنتفخ على أشده، زاد إحساسها بالألم وخرجت آهاتها من جوفها تشكو تعبها الشديد، شدّت "فايزة" من أزرها قائلةً لها وهي تُحكم قبضتها على ذراعها حتى لا تفلتها:

- معلش استحملي ياختي، قربنا نوصل.

كزت "نوال" على أسنانها للحظة قبل أن تُطبق على شفتيها بقوةٍ لتكتم صرخة موجوعة تقاتل للخروج من جوفها، نظرت لها بعينين متعبتين وهي ترد عليها:

- معتش قادرة، حاسة إني باموت!

ردت عليها شقيقتها بابتسامةٍ متفائلة:

- استبشري خير يا "نوال"، ده إنتي مستنياه أديلك زمن!

حدّقت فيها بحزنٍ عكَس معاناة عاشتها لسنوات مصحوبة بكلمات مسمومة كدّرتها ليل نهار، مالت عليها "فايزة" لتقترب من أذنها، ثم همست متسائلة بوجهٍ جاد التعبيرات:

- مش إنتي عملتي السونار البلدي؟

تعقدت ملامحها وانزوى ما بين حاجبيها بقلقٍ؛ وقد تذكرت نصيحة إحدى قريباتها باللجوء لِما يعرف بالسونار البلدي -والذي تنوعت أساليبه- لمعرفة نوع الجنين بطرق تقليدية شائعة؛ حيث تقوم المرأة الحامل بتناول قدرًا من لبن امرأة قد ولدت ذكرًا مؤخرًا بعد هرسه بالبطيخ، فإن تقيأت ذلك المخلوط أنجبت ذكرًا، وإن لم يحدث فهذه إشارة عن كونها ستلد أنثى، توترت ملامح "نوال" بدرجة ملحوظة، توجست "فايزة" خِيفةً من نظراتها التائهة نحوها؛ لذا سألتها بترددٍ خائف:

- لأحسن يكون الـ آآ..... ؟

قاطعتها على الفور وقد أدركت سبب خوفها:

- لالالا، كانت البشارة ولد!

تنفست بارتياحٍ قبل أن تعلق عليها:

- ربنا يطعمك بيه وتصدق الرؤية.

لاحت ابتسامةٌ باهتةٌ على وجهها الذابل، كاد قلبها أن ينخلع من مكانه رهبةً من مجرد التفكير في حملها بأنثى، كارثة حتمية ستحل على رأسها وستدمر عائلتها، فتلك هي فرصتها الأخيرة لإنجاب ذلك الوريث الذي يُعد طوق النجاة بالنسبة لها لكونه امتدادًا لنسل زوجها واسم عائلته، تردد في عقلها صدى صوت تهديده المفزع بالزواج بأخرى لتحقق حُلمه الكبير، اغرورقت عيناها بالعبرات وانحبست فيهما، كما ارتجفت شفتاها بقوةٍ. توقفت "فايزة" عن السير لتطالعها باهتمامٍ قلق، كانت تشعر بما يختلجها من خوفٍ مبررٍ، فالمجتمع هنا يمنح

الزوجة التي تلد ذكرًا كافة الامتيازات على عكس تلك التي حظت بالإناث، وزوجها من النوعية المتشددة في تلك المسألة، لن يقبل بغير وريث من صُلبه يحمل لقبه ولقب عائلته، ومع هذا حاولت طمأنتها بصوتٍ بدا إلى حدٍ ما مهزوزًا رغم ابتسامتها الزائفة:

- بالله أنا حاسة إن ربنا هيكرمك وبُكره تقولي "فايزة" قالتلي.

- يا رب.

قالتها بإعياءٍ ظاهرعلى حركة جسدها الثقيل في خُطاه، رفعت بصرها للأعلى لتنظر إلى لافتة الوحدة الصحية التي قصدتها منذ البداية؛ بناء وحيد قائم بذاته مكون من طابق أرضي على أطراف المركز، طلاؤه باهت يبعث على النفس الكآبة بما يناقض الغرض المُقام لأجله، أما نوافذه فهي مُحاطة بقبضانٍ معدنيةٍ سميكةٍ وكأنَّ مَن يعمل بالداخل يُعد سجينًا وليس أحد أطراف المنظومة الطبية، ويحاوطه مِن كافة الجوانب الحقول الزراعية ليبدو المشهد مرعبًا مع قلة الإضاءة ليلًا.

لم يكن أمامها بديلٌ سوى الذهاب إلى هناك بالرغم من محدودية الإمكانيات؛ وذلك لأن ابن خالتها تم توظيفه للعمل بتلك الوحدة كطبيبٍ للنساء وإن قَلَّ عدد المترددات عليه، توقفت عن المشي لتلتقط أنفاسها اللاهثة وشردت من جديد تاركة لشريط ذكرياتها العبث بخلدها.

*****

الفصل الأول

استقبلها كالعادة بحفاوةٍ كبيرةٍ وترحيبٍ عظيم بعد أن بذلت مجهودًا شاقًا في الوصول إليه سيرًا على الأقدام، ليس فقط لكونها مريضته الحريصة على صحتها وصحة جنينها الذي ينمو في أحشائها، ولكن لكونها ابنة خالته الحبيبة وأخته في الرضاعة.

نهض "عوني" من مقعده ليلتف حول مكتبه الخشبي المتآكلة إحدى أرجله قاصدًا الوقوف إلى جوارها بعد أن ولجت للداخل، تهللت أساريره لرؤية شقيقتها أيضًا. أشـار لـ"نوال" بيده لتستلقي على الفراش الطبي المغطى بالقماش الجلدي الداكن، عاونتها "فايزة" في التمدد عليه ثم سحبت الغطاء على جسدها المُسجى وتنحت جانبًا ليشرع ابن خالتها بمساعدة الممرضة المتواجدة معه في كشفه الروتيني عليها، بالطبع لم يكن الأمر مستحبًا عند أغلبية النساء في ذلك المكان بالمتابعة مع طبيب متخصص، فالغالبية العظمى منهن تستدعي القابِلة للقيام بمهمته الخطيرة، حملقت "نوال" في السقف المتصدع طلائه وقد انتابها توترٌ كبيرٌ، مجرد التفكير في حملها بأنثى جعل أطرافها تترتجف، انتهى "عوني" من فحصه لها نازعًا القفاز الطبي عن كفيه وهو يقول لها:

- على الأسبوع الجاي هنحدد ميعاد الولادة إن شاءالله.

ردت عليه "نوال" بأنفاسٍ شبه لاهثة قبل أن تنزل ساقيها عن الفراش:

- مابقتش قادرة يا "عوني".

ابتسم لها قائلًا بهدوءٍ لطيف:

- كل يوم بيفضل فيه الجنين في بطنك أفضل ليه، مش إنتي عاوزاه يتولد بصحة كويسة ولا لأ؟

علّقت دون تفكير:

- طبعًا.

تأكدت "فايزة" من هندمة ثياب أختها، واستدارت برأسها نحوه لتتدخل في الحوار متسائلة:

- تفتكر هايطلع ولد؟

صمت للحظاتٍ يفكر مليًا فيما سيجيبها به، خاصةً وأنه يعلم طبيعة ظروفها الحرجة، حافظ على ارتخاء تعابيره حتى لا تشعر بالتخبط المزعوج الذي انتابه من سؤالها، زفر بعمقٍ

ثم قال بحيادية:

- ربنا عليه جبر الخواطر، وبعدين كله خير، ده العيال رزق، والمهم إنه يطلع بصحة كويسة.

امتعض وجهها وهي تُعقّب عليه:

- كل ده حلو، بس مافيش حاجة مضمونة!

انقبض قلب "نوال" خوفًا من إنجابها لأنثى، فحياتها على المحك، تحسست بطنها بيدٍ مرتعشة وقد بدت زائغة النظرات، ثم رفعت رأسها نحو ابن خالتها لتقول له بهلعٍ مضاعف:

- "منصور" هيطلقني لو جبتله بنت تاني، ده إن مكانش..

تعذر عليها إكمال جملتها في البداية، ثم استجمعت جأشها لتتابع بصوتٍ مختنقٍ على آخره:

- هيتجوز عليا اللي تجيبله الواد!

كان متفهمًا لأقصى الحدود لطبيعة خوفها، حاول تهدئتها قائلًا:

- سيبيها على الله، دي حاجة في علم الغيب!

زمّت "فايزة" شفتيها قبل أن تضيف بسَخَطٍ:

- يا ريته كان زيك يا "عوني" كده راضي باللي يجيبه ربنا، لكن نعمل فيه إيه؟ مخه مقفل، ودماغه مربوطة على الواد، حاطط كل أمله على المرادي.

سألها مستفهمًا بفضول:

- وهو هيرجع إمتى من العراق؟

أجابته "نوال" بعد زفير بطيء ومزعوج:

- كان بعت تلغراف من أسبوع بيقول جاي فيه على آخر الشهر.

هز رأسه في تفهمٍ وهو يعلق عليها:

- ربنا يحلها من عنده، المهم عاوزك تاخدي بالك من صحتك الأيام الجاية، بلاش مجهود زيادة، ماشي؟

ألقت "نوال" بطرف الحجاب المتدلي على جانب كتفها، ودعته قائلةً بابتسامةٍ مبتورةٍ وقد ارتفع الكدر في عينيها:

- إن شاءالله، أشوفك على خير يا ابن خالتي.

تأمل وجهها الحزين بنظراتٍ آسفةٍ، ثم رد عليها:

- مع السلامة!

تأبطت من جديد في ذراع أختها وسارت الهوينا نحو باب الغرفة، في حين راقبهما "عوني" بنظراته المهتمة وهو بالكاد لا يحتمل تصرفات زوجها المبالغ فيها وغير المقبولة على الإطلاق.

*****

صرخة توالت وراء أخرى نتيجة الآلام العنيفة التي ضربت أسفل ظهرها لتعلن بوضوحٍ عن حدوث الولادة، كانت قد أعدت حقيبتها مسبقًا بكافة ما ستحتاج إليه من مستلزمات، وحينما أتت اللحظة المنشودة استعانت بأختها لتذهب بها إلى الوحدة الصحية.

تولت "فايزة" إبلاغ عائلة زوج شقيقتها بولادتها، بالطبع انزعج الجميع في البداية من ذهاب "نوال" إلى الطبيب بدلًا من اللجوء إلى القابلة لتتابع معها وتستقبل المولود في نهاية المطاف، بدا الأمر بِدعة مستحدثة وغير مستساغة في مجتمعهم شديد التحفظ، وكان زوجها على رأس المعترضين، لكن لخطورة حالتها الصحية ولرغبته الشديدة في الحصول على المولود الذكر تخلى عن عناده الرافض وتركها تتابع حملها مع ابن خالتها لتكون فرصتها الأخيرة قبل تقرير مصير حياته معها، وبذل "عوني" قصارى جهده لرعايتها والحفاظ على حياتها من أي مخاطر محتملة قد تهددها أو تؤذي جنينها.

لم تأبه "نوال" لردود الفعل الساخطة لقيامها بما هو مخالف للمعتاد، فالمهم عندها سلامتها ونجاتها من آلام الحمل المهلكة لكون تلك المرة حاسمة بالنسبة لها، فجسدها لم يعد يحتمل المزيد من أعراض الحمل وآلام الولادة. بدا الأمر وكأنها قد حازت على فرصة ذهبية أخيرة لاستغلالها ومنحها إما الخلاص والفوز بكل شيء، أو النهاية وخراب البيت. صدح صوت صراخها المتألم ليوتر الواقفين بالخارج، ذرع "منصور" الرواق جيئة وذهابًا وهو يفرك كفيه بقلقٍ مرتعد، رفع بصره للسماء مناجيًا:

- يا رب ولد، لأجل حبيبك النبي ارزقني بيه!

وقف خلفه ابن عمه "متولي" يؤازره:

- إن شاءالله خير، اهدى إنت بس يا ابن عمي!

التفت برأسه نصف التفاتة قائلًا له:

- أنا قلبي هايقف من الخوف، تفتكر هتظبط المرادي معانا؟ ولا اتكتب عليا اتحرم من خلفة الولاد؟!

وضع قبضته على ذراعه ليسحبه منه بعيدًا عن النظرات الفضولية المتطلعة إليه، نهره عن كلامه المتجاوز الذي يستبق الأمور مرددًا بعتابٍ حذر:

- حرام عليك ما تقولش كده!

رد برأسٍ منكس في ضيق:

- ما هو من غُلبي، أديك شايف خلفتي عاملة إزاي؟

سأله بنفس العتاب اللطيف:

- مالهم بناتك؟ الكل بيشهد بتربيتك وأخلاقهم الكويسة، حد يطول يبقى عنده بنات ولاد أصول ومحترمين زيهم؟

لَوَى ثغره بتأفف لم يُخفه، ثم تنهد مضيقًا:

- عارف، بس ولا واحدة فيهم هتشيل اسمي من بعدي، وده اللي قهرني.

حاول "متولي" أن يُضفي التفاؤل على حديثه فقال:

- يا سيدي، ربك عليه جبر الخواطر، ما أنا كنت زيك كده، محروم من الخلفة وربنا أنعم عليا بـ "أنور"، ومن بعده "مصطفى".

ادعى الابتسام معقبًا عليه:

- ربنا يباركلك فيهم.

رَبَّت على ظهره بخفةٍ لعدة مرات وهو يكمل:

- ادعي إنت بس لمراتك ربنا يقومها بالسلامة، وإن شاء الله يطلعلنا حد من جوا يدينا البشارة.

هنا رفع "منصور" رأسه للسماء ليؤمّن على حديثه هاتفًا:

- يـــا رب!

*****

لطمة رقيقة تبعها بأخرى تلقاها جسد ذلك الكائن الضئيل -المغطى بالدماء والمخاض-

والذي خرج لتوه من أحشاء والدته ليصرخ بعدها معلنًا عن ميلاده في تلك الغرفة المجهزة للولادة الطبيعية، تلقته الممرضة المتواجدة بالداخل ولفته بقطعة من القماش لتتجه به إلى طاولة جانبية حتى تقوم بتنظيفه. خـارت قوى "نوال" بعد كفاحٍ عصيب استنزف طاقتها بالكامل لتمنحه الحياة خارج رحمها، استسلمت مؤقتًا للخِدر الذي غلّف عقلها تاركة مولودها بين أيـادي الغرباء علّها تستعيد طاقتها لتواجه الحقيقة الصادمة التي خافت من معرفتها بعد ولادته، فقد كان هاجسها المرعب إنجابها لأنثى. ومثلها كان "عوني" حائرًا مرتبكًا، فالمولود بعد فحصه الظاهري لجسده لم يبدُ إن كان ذكرًا أم أنثى، هناك خللٌ ما في نصفه السفلي، تشوهًا مُربكًا للأبدان ومُدعاة للتساؤل والاستفهام، وأيضًا للدراسة والاختبار، ربما كان ناتجًا عن عامل وراثي أو بفعل عامل السن. نظر إلى ابنة خالته -قليلة الحيلة- بإشفاقٍ وعطفٍ، فكلمة واحدة منه قد تحمل لها السعادة أو تُحيل حياتها إلى معاناة دائمة، أصابه التخبط والحيرة، تنشطت ذاكرته بشكواها المرتعدة ودمعاتها المقهورة الخائفة من ردة فعل زوجها المهددة على الدوام؛ لذا حسم أمره بفعل ما يلزم من أجلها، مرر أنظاره على الممرضات المتواجدات معه بالداخل آمرًا:

- محدش يتنقل من هنا لحد ما أرجع تاني!

سألته إحداهن مستفهمة:

- طب وأهلها اللي واقفين برا و... ؟

قاطعها بصوتٍ صارمٍ ونظراتٍ قاسيةٍ:

- أنا هتصرف، ركزوا بس في العيل اللي في إيديكم!

انصـرف بعدها مندفعًا بخطواتٍ مهرولةٍ من الباب الرئيس للغرفة ليتجه من طرقة جانبية نحو أحدهم؛ تحديدًا صديقه وزميله الجراح "فوزي"، حيث فكّر في الاستعانة به ليعاونه في إيجاد حل لتلك المشكلة العويصة التي بات بصددها؛ فرفيقه معروف عنه بكونه طيب القلب، حسن المعشر، لا يتوانى أبدًا عن تقديم المساعدة لمن يطرق بابه طلبًا لذلك، توسم فيه خيرًا أن يلبي رجاءه ويساهم في تصحيح ذاك الخطأ الجسيم الذي ربما سيودي بمصير عائلة بأكملها للجحيم إن لم يتم معالجته.

*****

جاء وفي عينيه استجداء مفسرًا له الأمر برمته لتصبح الأمور واضحة بالكامل، فقد أراد منه أن يجري جراحة عاجلة للمولود ليحدد هويته الجسدية فيصبح ذكرًا ويخفي تلك المعالم المحيرة التي اكتشفها مع فحصه الظاهري له، لم يمنحه "فوزي" جوابًا قاطعًا، بل قال له

بدبلوماسية:

- خليني أشوف الحالة الأول!

هز "عوني" رأسه في تفهم وقد لاح على وجهه المتوتر ابتسامة باهتة، اتجه عائدًا معه إلى غرفة العمليات ليجري فحصًا دقيقًا على المولود، ساورته الشكوك؛ فأغلب الشواهد الظاهرية تؤكد ترجيحية الاحتمال الاقرب بكون المولود أنثى، امتعض وجهه موضحًا وهو ينتزع قفازه عن يده:

- ده خلل جيني، والمفروض تتعمل أشعة في مستشفى متخصص عشان تبين تكوينه الداخلي، وده صعب هنا، بس بناءً عليه هنقدر نحدد إن كان آ...

انقبض قلب "عوني" بقوة من كلماته الجادة، وأحسّ بتبدد آماله بكونه سيدعمه في تلك المسألة المصيرية التي ربما ستدمر عائلة بأكملها إن لم يتخذ موقفًا حاسمًا، قاطعه على الفور وقد بدت ملامحه قلقة للغاية ليشعره بخطورة الموقف وتأزمه:

- والغلبانة دي هتتشرد هي وبناتها بعد العمر ده كله، يرضيك إنت ده؟

نظر له "فوزي" بجمود، ثم لوّح بيده موضحًا:

- بس ضميري المهني بيحتم عليا أقول الحقيقة، ومن واقع خبرتي مع المرضى فأنا شايف .....

قاطعه واضعًا يده على كتفه:

- أنا وإنت فاهمين ده كويس، بس ليه ندخل العيلة دي في مشاكل مش هيفهموها؟

قَطَب صديقه جبينه بعدم اقتناع فتابع رجاءه:

- خلينا نشوف حل يرضي جميع الأطراف.

- بس ...

توسل إليه باستماتة:

- يا سيدي اعتبرها أختك وجت وقعت في عرضك عشان تساعدها، إنت مش عارف جوزها زيي! ده راجل معندوش قلب، مش هايفرق معاه لو طلقها ورماها في الشارع، وهي ولية مكسورة الجناح.

رد عليه بنبرته الجادة وقد تقلصت تعابيره:

- صدقني كده إحنا بنشارك في جريمة هتترتب نتائجها على الطفل اللي قدمنا!

زلة لسان تفوه بها دون قصد استغلها "عوني" فوزًا ليدفعه نحو مساعدته:

- أديك بنفسك قولت طفل، يعني مش متأكد إنه بنت؟!

صحح له "فوزي" مستخدمًا سبابته في الإشارة:

- ده تعبير مجازي، وبعدين المفروض الأب يكون عارف إنه هو المسئول عن تحديد جنس المولود، مش الأم!

هز رأسه مؤيدًا وهو يبرر إصراره:

- أنا معاك في ده، بس ناس بالعقلية القديمة اللي قصادك دي مش هتفهم كلامنا ده، هما ليهم بالظاهر وبس، باللي اتربوا عليه!

نَكَس "فوزي" رأسه في حيرة؛ فالموقف برُمَّته يحتاج لتفكير عميق، وقرار أمين لتقرير مصير مولود لم يعرف قدره بعد.

*****

- سمي بالله وخطي.

قالتها إحدى السيدات المفترشات بجسدها الممتلئ البساط المزركش بنقوشاته الجميلة داعية "نوال" بالتحرك فوق مَوْقد الفخار الذي ينبعث منه البخور لتخطو فوقه كتقليدٍ متبعٍ للاحتفال بالمولود الجديد بعد تماثله للشفاء من الجراحة الحرجة والدقيقة التي أجراها بعد ولادته بفترة وجيزة، وقتها تأجلت مظاهر الاحتفال بميلاده إلى أن تستقر حالته ويتأكد الجميع من بقائه على قيد الحياة. تعالت الزغاريد والأصوات النسائية المهللة ابتهاجًا بقدومه، ها قد عرف منزل "آل عمران" الفرحة الجلية بعد سنواتٍ عِجافٍ من الحزن والانكســار. تولت سيدة أخرى هز الرضيع الموضوع في المنخل وترديد الأغاني التراثية الشهيرة والخاصة بتلك الليلة المميزة، أدمعت عينا "نوال" تأثرًا بما تراه، لم تكن لتتصور أبدًا أن يمن الله عليها بتلك النعمة ويرزقها سعادة لطالما تمنتها بعد صبرٍ طويلٍ ويحفظ لها عائلتها من الضياع.

عــادت بذاكرتها للحظة التي أخبرها فيها "عوني" بإنجابها لمولود ذكر لكنه بحاجة للعناية لبعض الوقت نظرًا لوجود عِلّة ما به تتطلب تدخلًا جراحيًا عاجلًا، لم تفهم مقصده، وارتعدت فرائصها خوفًا من خسارتها له، لكنه طمأنها بأنه سيتلقى الرعاية الفائقة حتى يتماثل للشفاء، لم تره آنذاك، وتلهفت شوقًا للمس بشرته والشعور بأنفاسه على صدرها، مــر الوقت بطيئًا

عليها، وقلبها يلتاع أكثر وأكثر إلى أن حانت اللحظة المنتظرة، شهقت باكية من سعادتها، خفق قلبها غير مصدق أنه في أحضانها، ضمته إلى صدرها وانهالت عليه بالقبلات وسط دمعاتها الدافئة، وحينما تلقى زوجها البشارة بنجاة وليده بعد أشهر من العلاج رأت تعابير الفرحة تتفجر على وجهه، تلك التعابير التي افتقدتها لسنواتٍ طوال لتحل كبديلٍ عن علامات التجهُّم والعبوس الدائمة، عادت لمحيطها الواقعي على صوت إحدى النساء وهي تأمرها:

- شيلي الغالي يا "أم طاهر".

إنه ذلك الاسم الذي انتقاه والده له ليكون طاهرًا مطهرًا من كل عيب، امتثلت "نوال" لطلبها وضمت رضيعها بين ذراعيها بعطف أمومي كبير، هدهدته وابتسامتها المشرقة تزين وجهها المتعب، حانت منها التفاتة نحو بناتها الأربع اللاتي جلسن مع الأخريات يصفقن ويغنين في مرح، تنهيدة راضية انبعثت من صدرها تشكر الله في سرها على عطاياه، على الجانب الآخر وتحديدًا خـارج المنزل في الباحة الأمامية حيث افترشت الرمـال بالطاولات الخشبية المستديرة -ذات الأرجل القصيرة- ورص فوقها أشهى الأطعمة المطبوخة بأيادي النساء، جلس الضيوف حولها يأكلون بنهم ما تم إعداده وهم يهزون أجسادهم في تمايل متحمس مع أصوات المزامير والطبول العالية، وقف "منصور" بشموخٍ ورأسٍ مرتفع عنان السماء عند المدخل يتلقى التهنئات والمباركات على مولوده الجديد، إنه الذَّكَر الذي يمنحك الفخر والعزة في مجتمعٍ لا يعترف إلا بسلطة الرجـال، مـد يده ليصافح أحدهم بحرارة حينما بارك له:

- مبروك ما جالك يا "أبو طاهر"، يتربى في عزك إن شاءالله.

رد عليه بابتسامة عريضة أبرزت نواجذه:

- الله يبارك فيك يا أبو عمو.

رَبّت على كتفه يهنئه، وتابع حديثه غير الجدي بضحكاتٍ متفاخرة، أتى إليه "عوني" ليشاطره فرحته، فشكره "منصور" قائلًا:

- تعبناك معانا يا ضاكتور!

رد معاتبًا:

- هو أنا غريب؟ ده إحنا عيلة واحدة!

ابتسم قائلًا:

- عقبال ما نقفلك نهار فرحتنا بيك.

تفرس تعابير وجهه يراقبه في قلقٍ خفيف، خشي أن يلاحظ تلك المعالجة الجراحية التي قام بها زميله الجراح المحترف بمساعدة طبية مهارة ليعدل من هويته الجسدية، خاصة أنها في منطقة دقيقة للغاية تتطلب تضافر جهود المخضرمين من الجراحين لضمان نجاحها، آنذاك ادعى "عوني" وجود مشكلة ما مستخدمًا المصطلحات الطبية المعقدة في الشرح والتي تحتاج للتدخل الجراحي الفوري لعلاجها كي يقطع مجال الشك عليه، ونظرًا لكون "منصور" قليل المعرفة بتلك المسائل الطبية فلم يهتم إلا بعمل الأفضل لابنه حتى وإن كلفه كل ما يملك، تناسى مع شغفه لحمل مولوده بين ذراعيه السؤال عن تفاصيل طبيعة تلك العملية الغريبة التي استلزمت نقله لمشفى أكثر تخصصًا وكفاءة قبل أن يعود به إلى بلدته، عاد "عوني" إلى أرض الواقع راسمًا تلك الابتسامة السخيفة مجاملًا إياه:

- إن شاءالله، ومبروك مرة تانية يا أبو ...

قال له "منصور" في تفاخرٍ:

- "طاهر" اسمه "طاهر منصور عمران".

ابتسم محركًا رأسه في ودٍ:

- ربنا يفرحك بيه.

- تسلم ياخويا!

تنهد "منصور" بعدها بعمقٍ شاعرًا بالانتشاء وبراحة نفسية كبيرة، سرح للحظات مستعيدًا تلك اللحظات المريرة البائسة التي فَقدَ فيها الأمل ويئس من إنجاب مولود ذكر يكون امتدادًا لاسمه ونسله مع تقدم زوجته في العمر. بات على يقينٍ كبيرٍ بأن فرصه معها باتت محدودة، حتى أنه فكر بالزواج من أخرى وفاتحها في ذلك مباشرة مدعيًا أنها لم تحقق حُلمه العظيم، ورغم قساوة مطلبه عليها وجرحه لكبريائها الأنثوي إلا أنها تقبلت ذلك بقهرٍ عاجزٍ من أجل الحفاظ على عائلتها من التشتت، فرفضها لن يُجدي معه؛ لأنها من وجهة نظره الملامة الوحيدة على ما يحمله رحمها أيًا كان نوعه، مبررات واهية أقنع بها نفسه ليتخلص من تأنيب الضمير، ولكن حمدًا لله تغيرت مخططاته مع معرفته بحملها، وأصبح أمامها فرصة أخيرة لتأتي له بالولد المنشود، وها قد تحقق مبتغاه، اتسعت عيناه في غِبطة وانتفخت أوداجه تباهيًا وقد التف الرجال حوله يشاركونه خبراتهم في تربية أبنائهم الذكور علّه يستفيد بنصائحهم الثمينة.

*****

الفصل الثاني

احتاج لرعاية خاصة بعد تجاوزه لمرحلة الخطر حتى استقر وضعه الصحي وبات إلى حد ما طبيعيًا، كانت كمن أزاح ثقلًا هائلًا عن صدرها رغم ذلك القلق الذي يراودها من آنٍ لآخر، اتكأت "نوال" على حافة الفراش تطالع زوجها بتمعنٍ مُراقبة تدليله للرضيع "طاهر" والتهائه به وكأنه لم ينجب سواه متناسيًا جميع من حوله، إلتوى ثغرها بابتسامة تهكمية وهي تدير رأسها نحو الفراش الخشبي الصغير الملاصق لطرفه الذي يغفو عليه، حيث قرر فجأة أن يضعه في غرفة نومهما الضيقة ليكون بالقرب منه، وبالتالي كان عليها أن تعيد توزيع أثاث الغرفة ليستوعبه مما اضطرها للاستغناء عن دولاب صغير كان موضوعًا بالزاوية لتخلق لنفسها مساحة معقولة للتحرك، كذلك قام "منصور" بتأجيل سفره للعراق حتى إشعار آخر، وشرع في البحث عن عمل بديل في الأنحاء المجاورة ليضمن قضاء أكبر وقت مع ابنه فقط وليس مع العائلة كما يظن الأغلبية.

أخرجت "نوال" تنهيدة مهمومة من صدرها وهي تنتصب في جلستها، تمنت لو عامل بناته الأربع بتلك الطريقة الحنون لربما شكّل ذلك فارقًا معهن وأوجد الحب في قلوبهن التي تتوق شوقًا لذلك، لكنه بقى على جموده القاسي وقَلَّ اهتمامه بهن مما جعلها تتوجس خِيفة من احتمالية زرعه للكراهية والحقد في نفوسهن ضد الرضيع الذي لا حول له ولا قوة، ومع هذا لم تيأس؛ كانت تتحين الفرص المناسبة لتطلعه على أخبارهن الســارة علّها تجد ردة فعل محمودة منه نحوهن مثل تلك التي تراها إن أخبرته عن تطور ملموس في نمو "طاهر"، ورغم كل محاولاتها المستميتة لخلق جو الألفة بين أفراد عائلتها إلا أن ذلك الحاجز الوهمي في المشاعر العاطفية ظل باقيًا يفصل بين الأب وبناته، أفاقت من شرودها الحزين على صوته القائل بلهجته الآمرة:

- خلي بالك من الواد لحد ما أخلص صلاة في الجامع يا ولية!

تصنعت الابتسام وهي ترد:

- حاضر يا "أبو طاهر".

ثم نهضت من مكانها لتتجه للطرف الآخر من الفراش، أحنت جسدها نحو ابنها وحملته بين ذراعيها تهدهده في رفق حتى يغفو، رفعت رأسها لتنظر إلى زوجها وهو يراقب ما تفعله بنظراتٍ توترها وتُشعرها بأنه لا يأتمنها عليه، حافظت "نوال" على ابتسامتها اللطيفة وهو يدير ظهره ليخطو إلى خارج الغرفة متجهًا إلى الحمام الجانبي، أغمضت جفنيها للحظة مستنكرة ظنونه السيئة، زفرت ببطءٍ وهي تعاود فتحهما قبل أن تميل نحو الفراش لتضع

طفلها عليه بعد أن غفا في أحضانها، رَبَّتت عليه عدة مرات برفقٍ متمتمةً مع نفسها باستياء:

- لو أبوك بس ياخد باله من إخواتك، كانت حاجات كتير اتغيرت! بس ربنا قادر على كل شيء!

كانت متمسكة ببقايا أملها الأخير في تغيير زوجها، دقائق وكان "منصور" قد انتهى من الاغتســال، مد يده ليسحب جلبابه من المسمار المثبت خلف الباب ليرتديه، استدار نحوها يوصيها بالاهتمام بولده الغالي ريثما يعود، أكدت له دون تفكير:

- متقلقش ياخويا، ده في عينيا، إلحق إنت بس الصلاة قبل ما تفوتك.

اقترب بعدها من "طاهر" ليُقبّله من جبينه، ومسح على وجنته بحنوٍ رقيق مستمتعًا بتأويهاته الغافلة، ثم انصــرف من المنزل صافقًا الباب خلفه، لم تتحرك "نوال" من مكانها، وبقيت جالسة القرفصاء على الفراش بجوار رضيعها، للحظة غفلت عنه وشــردت تفكر في بناتها المحرومات من حنانٍ والدهن، كان الرضيع قد استيقظ لتوه من غفلة قصيرة، تقلب على جانبه وسقط عن الفراش ليصطدم رأسه بالأرضية الصلبة فانطلقت منه صرخة عنيفة رجّت أركان الغرفة، انتفضت من جلستها المسترخية والرعب يكسو ملامحها، على الفور التقطته وضمته إلى صدرها محاولة تهدئته، جزعت هلعًا من أن يكون قد أصابه مكروهٌ ما، فصريخه المفزع لم يتوقف أبدًا، تفحصته بشكلٍ متعجل فلم تجد منه أي دماءٍ نازفة، ومع هذا ظلت مرتعدة، جسدها يرتعش بقوةٍ، كانت تخشى من ردة فعل زوجها، فكرت في اللجوء لابن خالتها "عوني"، فمَن غيره سيساعدها في تلك الكارثة المرعبة؟ لم تفكر مرتين، وهرولت نحو دولاب ثيابها تسحب عباءتها لتضعها بإهمالٍ حول جسدها لتغطيه، وأمسكت بحجاب رأسها تلفه -دون التطلع إلى المرآة- حول رأسها، ركضت خارجة من الغرفة تنادي بناتها:

- أنا رايحة لخالكم "عوني" وراجعة، خدي بالك من إخواتك يا "هناء".

أومـأت ابنتها البكرية برأسها وهي ترد عليها:

- حاضر يامه، والأكل هـ....

قاطعتها بعصبيةٍ مرتعدة:

- بعدين يا بت!

هزت "هناء" كتفيها في عدم اكتراثٍ بالرغم من الفضول الذي داعب رأسها لتعرف سبب ذهاب أمها المفاجئ لزيارته، خاصةً وأن "طاهر" يبكي بلا توقفٍ، توقفت "خديجة" عن

اللعب بذمتيها لتركض خلف والدتها تناديها ببراءة:

- استنيني يامه، أنا جاية معاكي!

أبعدتها بقسوة من صدرها فتألمت الصغيرة من عنفها غير المقصود، ثم رمقتها بنظرة حادة وهي تنهرها:

- خشي يا بت جوا، ومحدش يطلع فيكم برا!

وقبل أن ترجوها "خديجة" بعينين منكسرتين لترقق قلبها فتضعف وتلين وتوافق على أخذها رفعت "نوال" من صوتها الحاد تصرخ بها:

- مافيش مرواح في حته!

ثم نادت على ابنتها الكبرى:

- يا "هناء" عينك على إخواتك، محدش فيهم يغيب عنك، خليني ألحق النصيبة اللي أنا فيها.

ضاقت نظرات "خديجة" المتذمرة وعبست تعبيراتها في رفضٍ مستنكرٍ لخشونتها الجافية معها، اندفعت إلى داخل المنزل وهي تقاوم عبراتها التي تجمعت بغزارة في مقلتيها تحثها على البكاء تأثرًا، قاومت تلك الرغبة ساحبةً أنفاسًا عميقة ومتتالية وكأنها تنين ينفث نارًا، كتفت ساعديها أمام صدرها وشفتاها مقلوبتان في عبوسٍ أكبر، ثم بكل عنف ركلت الدمي الخاصة بها وبعثرت أجزاءها في كل مكان، أتت "هند" من الخارج حاملة الدلو وخرقة قديمة تمسح بها الأرضيات المتسخة، تأملت بوجهٍ متشنجٍ الفوضى السائدة في المكان، تجمدت نظراتها على شقيقتها وصاحت توبخها:

- يعني أنا أتعب ويطلع عيني في ترويق البيت وإنتي كده تبهدليه؟!!!

نظرت لها الأخيرة بغضبٍ من طرف عينها قبل أن تلقي بجسدها على الأريكة المغطاة بملاءةٍ بيضاء قديمة وكأنها لم تفعل شيئًا لتُلام عليه، ظنت "هند" أنها حزينة لعدم اصطحاب والدتها لها، حركت رأسها للجانبين ثم أسندت الدلو على الأرضية وألقت الخرقة على طرفه ثم جلست إلى جوارها تُهون عليها الأمر قائلةً:

- معلش يا "خديجة"، المرة الجاية هتاخدك معاها.

زمت أختها شفتيها بغضب واضح وهي تستدير برأسها نحوها، حركت ثغرها لترد بشكلٍ يحمل التوعد ومثير للريبة في نفس الوقت:

- ماشي!!

تفرست "هند" بجدية في تعابير وجهها التي عكست شيئًا مريبًا وهي تسألها:

- ماشي إيه؟

رمقتها "خديجة" بنظرة غاضبة من عينيها التي ضاقت بحدة لتنهض بعدها من على الأريكة متجهةً نحو الداخل، تقوس فم "هند" للجانب في استخفاف ساخر من غضبها الطفولي، وعادت لتكمل مهمتها في ترتيب وتنظيف المنزل كما كلفتها والدتها.

*****

كانت ممتنة للغاية لمجهوده المبذول في رعاية صغيرها دون قيودٍ أو شروط، فوقتما تلجأ إليه تجده يلبي نداءها، كان أخًا حقيقيًا لها، وخالًا عطوفًا على ابنها، عـادت "نوال" برضيعها إلى المنزل بعد أن اطمأنت عليه، فقط تورم بسيط يعلو يمين جبهته نتيجة سقوطه وسيختفي مع الأيام ويمداواته بذلك العلاج الذي أعطاه لها. دثرت "طاهر" في الفراش وظلت تدندن له بأغانٍ طفولية إلى أن نام على صوتها الدافئ، كانت على وشك أن تغفل إلى جواره بعد ما مرت به اليوم من إرهاق عصبي ونفسي حينما طار النوم من جفنيها فجأة وصراخ "منصور" يصدح من الخارج، هبت فزعة من نومتها تسأله بنصف وعيٍ:

- في إيه يا "أبو طاهر"؟

هجم عليها ممسكًا إياها من ذراعها بقبضته الغليظة، دفعها بقسوةٍ خلفه ليزيحها من طريقه دون أن يعبأ بارتطامها بضلفة الدولاب التي كادت أن تنخلع من قوة الدفعة، طالعته بارتعاشٍ وقلبها يدق بعنفٍ، أحنى "منصور" جسده على صغيره ليرفعه إليه، رمقها بنظرة قاتمة متوعدة قبل أن تتحرك شفتاه لتتهمها:

- عايزة تموتيلي الواد يا ولية؟!

دافعت عن نفسها بخوفٍ ظهر في رجفة بدنها:

- أبدًا والله! هو في حد يأذي ضناه؟

أومأ بعينيه متسائلًا بقساوةٍ:

- يعني البت "خديجة" هتكدب؟

تعقدت ملامحها المذعورة وانزوى ما بين حاجبيها بقوةٍ مرددة في ذهولٍ صادمٍ:

- "خديجة"!

- ماشي!!

تفرست "هند" بجدية في تعابير وجهها التي عكست شيئًا مريبًا وهي تسألها:

- ماشي إيه؟

رمقتها "خديجة" بنظرة غاضبة من عينيها التي ضاقت بحدة لتنهض بعدها من على الأريكة متجهةً نحو الداخل، تقوس فم "هند" للجانب في استخفاف ساخر من غضبها الطفولي، وعادت لتكمل مهمتها في ترتيب وتنظيف المنزل كما كلفتها والدتها.

*****

كانت ممتنة للغاية لمجهوده المبذول في رعاية صغيرها دون قيودٍ أو شروط، فوقتما تلجأ إليه تجده يلبي نداءها، كان أخًا حقيقيًا لها، وخالًا عطوفًا على ابنها، عـادت "نوال" برضيعها إلى المنزل بعد أن اطمأنت عليه، فقط تورم بسيط يعلو يمين جبهته نتيجة سقوطه وسيختفي مع الأيام وبمداواته بذلك العلاج الذي أعطاه لها. دثرت "طاهر" في الفراش وظلت تدندن له بأغانٍ طفولية إلى أن نام على صوتها الدافئ، كانت على وشك أن تغفل إلى جواره بعد ما مرت به اليوم من إرهاق عصبي ونفسي حينما طار النوم من جفنيها فجأة وصراخ "منصور" يصدح من الخارج، هبت فزعة من نومتها تسأله بنصف وعيٍ:

- في إيه يا "أبو طاهر"؟

هجم عليها ممسكًا إياها من ذراعها بقبضته الغليظة، دفعها بقسوةٍ خلفه ليزيحها من طريقه دون أن يعبأ بارتطامها بضلفة الدولاب التي كادت أن تنخلع من قوة الدفعة، طالعته بارتعابٍ وقلبها يدق بعنفٍ، أحنى "منصور" جسده على صغيره ليرفعه إليه، رمقها بنظرة قاتمة متوعدة قبل أن تتحرك شفتاه لتتهمها:

- عايزة تموتيلي الواد يا ولية؟!

دافعت عن نفسها بخوفٍ ظهر في رجفة بدنها:

- أبدًا والله! هو في حد يأذي ضناه؟

أومأ بعينيه متسائلًا بقساوةٍ:

- يعني البت "خديجة" هتكدب؟

تعقدت ملامحها المذعورة وانزوى ما بين حاجبيها بقوةٍ مرددة في ذهولٍ صادمٍ:

- "خديجة"!

حلّت الصدمة عليها فأصابت تفكيرها لحظيًا بشللٍ مؤقت؛ لذا لم تستوعب مقصده في البداية، لكنها تفقهت إليه بعد بُرهةٍ مُدركةً أن ابنتها أخبرته ببراءة عمّا حدث، عادت "نوال" لتنظر إليه وهو يندفع نحوها ليلكزها بكوعه في كتفها ليزيحها من طريقه وهو يعنفها بغلظةٍ:

- قسمًا برب العزة ولو الواد جراله حاجة ماهيطلع عليكي نهار إلا وإنتي مطلقة!

تدلى فكها السفلي في عدم تصديقٍ من تهديده المخيف وكأنها ليست بأمه التي أرضعته من صدرها ومنحتها حبها وحنانها، سألته وهي بالكاد تصدق ما تسمعه آذانها:

- إنت خايف عليا من ابني؟ ده أنا أمه؟!!!

نظر لها شزرًا قبل أن يرد:

- أمه اللي هتموته!

ثم تركها في مكانها مصدومة وانسحب من الغرفة ومعه رضيعها، تسمّرت قدماها وعجزت عن التنفس بشكلٍ منتظم، أحست بالاختناق، بالوهن، بالقهر، والانكسار، استندت "نوال" بيدها على الدولاب لتحافظ على اتزانها، هزت رأسها في استنكارٍ رافضٍ، وسريعًا بدأت دمعاتها المقهورة تتجمع في مقلتيها تأثرًا، رفعت عينيها لتنظر إلى الباب حيث وقفت "خديجة" عند أعتابه، تحركت الأخيرة في اتجاهها تتفحص وجهها الباكي في عدم فهمٍ، رأتها وهي تكفكف دمعاتها محاولة إخفاءها عنها حتى لا تشعر بما يخْتلِج صدرها من أحزانٍ مستمرة، لكنها أحست بغصة موجعة تعصف بوجدانها، فقد كانت المتسببة في تعنيفها بإخبار والدها عن تعرض "طاهر" للسقوط كنوعٍ من الانتقام الساذج لرفضها اصطحابها معها، نكّست رأسها في خزيٍ، وعفويًا احتضنت والدتها من خصرها معتذرة لها:

- حقك عليا يامه، مكانش قصدي!

ربّتت "نوال" برفقٍ على كتفها الهزيل مُعقبةً عليها بصوتها المنتحب:

- وإنتي ذنبك إيه؟

ثم رسمت ابتسامةً مصطنعةً على مُحياها قبل أن تكمل بمرارة:

- ربنا يهدي أبوكي!

رفعت "خديجة" عينيها نحوها لتسألها بنظراتٍ تحمل اللوم والحيرة:

- هو ليه أبونا مابيحبناش؟ هو إحنا زعلناه في حاجة؟

تفاجأت "نوال" من أسئلتها المباشرة وبدت تعبيراتها مدهوشة من صراحتها غير المتوقعة، حاولت اختلاق الأعذار له فادعت كذبًا علّها تقتنع:

- ما تقوليش كده، إنتو غاليين عليه زي "طاهر" و...

قاطعتها "خديجة" بوجهٍ عابس وصوت متذمر:

- لأ يامه، إحنا مش زيه!

نظرت لها والدتها في توترٍ خائف، كانت تخشى من تغلغل ذلك الإحساس بالجفاء والتفرقة في المعاملة في نفوس بناتها، انسلّت "خديجة" من أحضانها وتركتها لتخرج من الغرفة وهي تغمغم بكلماتٍ متنمرة، وقع قلبها في قدميها فما يحدث الآن يؤكد لها هواجسها، خافت "نوال" من تبدل مشاعر الحب للكره والبغض، لهذا وقع على عاتقها عبئًا جديدًا؛ ألا وهو خلق جو من الود والألفة بين الرضيع وإخوته.

*****

ظل مُحدّقًا بنظرة متأملة في نقطة ما بالفراغ الشاسع أمامه لبعض الوقت تجوب عيناه تلقائيًا على عيدان الذرة الناضجة، كان يُعيد ما جرى من أحداثٍ في رأسه ليتأكد من كونه قد نفذ المطلوب وصارت الأمور على أكمل وجه وطويت الصفحة الأخيرة في أزمة الطفل "طاهر" للأبد، "خنوثة" إنه ذلك المصطلح الشائك الذي يحمل الكثير في طياته، فعلميًا - وببساطة شديدة- هو يعني أن يحمل جسد الإنسان العضوين الأنثوي والذكري معًا، أما على صعيد الوضع الاجتماعي وطبقًا لما هو معروف فإنها كارثة بكافة المقاييس، مُصيبة لن يتقبلها أرباب العقول المغلقة ولن تستوعبها العقليات المتحجرة، أوجد "عوني" لنفسه المبررات والأعذار اللازمة لإقناع نفسه بأنه فعل الصواب ليتخذ القرار بالنيابة عن رب الأسرة "منصور عمران" ومحددًا لهويته الذكورية وطامسًا أي معالم أخرى قد تريك أصحاب البصيرة إرضاءً لأطماع أبٍ لا يرى سوى الذكورة رمزًا للقوة والوجود، ومع هذا ظل شيئًا عالقًا في صدره يؤنبه، وجاهد لإخماد ذلك الصوت الذي يزعجه من آنٍ لآخر مُوهمًا نفسه أنه أسكته، زفيرٌ بطيءٌ أخرجه من صدره دون أن تبتعد نظراته عن حقول الذرة، حان الوقت للمُضي قدمًا في حياته.

استدار "عوني" عائدًا إلى مكتبه الخشبي القديم، تلّمس سطحه الخشن وزجاجه الملتصق منتصفه بالورق اللاصق براحة يده، تحركت أصابعه ببطءٍ على النقوش التي حفرها مَن جلس عليه قبله، تنفس بعمقٍ محررًا زفيره من صدره دفعةً واحدةً قبل أن يلقي بثقل جسده على المقعد المتآكل جلده الأسود، سحبه للأمام ليقترب أكثر من أدراج مكتبه الثلاثة، انخفضت

نظراته نحو الدرج الأخير؛ مد يده ليفتحه فأصدر صريرًا دل على مدى قِدمه، ثم أخرج ما تبقى من متعلقاته الشخصية ووضعها بعناية وحرص في الصندوق الخشبي المتواجد على ميمنته، استراح أكثر في جلسته مشبكًا ساعديه خلف رأسه ودار بنظراته في الغرفة ليستمتع لآخر مرة باستعادة ذكرياته فيه بعد أن صدر القرار بنقله للعمل في مركز المدينة، قَبِل "عوني" التكليف بصدرٍ رحب واستعد للرحيل، استقام في جلسته حينما ولجت الممرضة "إبتسام" إلى داخل الغرفة تسأله في حزنٍ ظهر في نبرتها وارتسم على تعابير وجهها:

- خلاص يا ضاكتور قررت تسيبنا وتمشي؟

قال وابتسامة لَبِقة بين شفتيه:

- هنعمل إيه بس يا "إبتسام"؟ ده تكليف ولازم يتنفذ.

هزت رأسها في أسفٍ وهي ترد:

- ربنا يقويك يا ضاكتور ويكتبلك الخير في كل مكان.

علّق مبتسمًا:

- اللهم أمين.

سألته باهتمامٍ صادقٍ:

- تحب أعملك حاجة تشربها يا ضاكتور؟

رفع يده ليرد بحرجٍ:

- يا ريت فنجان قهوة مظبوطة من إيديكي ده لو مش هاعطلك.

هتفت على الفور:

- عطَلة إيه بس؟ ده المستوصف فاضي والرِجل خفت عليه، ثواني وهاتكون القهوة عندك.

- تسلمي يا "إبتسام".

قالها "عوني" وهو ينقر بأصابعه على سطح مكتبه متابعًا إياها بنظراته العادية وهي تنصرف من الغرفة، ألقى بعينيه نظرة غير مهتمة على محتويات باقي الأدراج فلمح ملف حالة "نوال"، التقطه بيده وفتحه ليقرأ ما فيه قراءة عابرة، لاح على ثغره ابتسامة زهوٍ مُذكرًا نفسه أنه نجح فيما عجز عنه مَن هم مثله أو في كفاءته، ردد لنفسه بتباهٍ وعنجهية:

- والله خسارتي في البلد دي، أنا عايز اللي يقدرني!

- العربية جت يا ضاكتور.

قالها أحدهم بصوتٍ مرتفعٍ من الخارج لينبهه لوصول السيارة التي ستقله لمركز المدينة، أغلق "عوني" الملف وألقاه في سلة القُمامة الموضوعة على يســاره قائلًا له:

- ماشي، أنا جاي!

ثم استند بكفيه على مسندي مقعده لينهض من جلسته، وبكل همةٍ وحماس حمل صندوق متعلقاته واتجه إلى الخارج متناسيًا القهوة التي طلب تحضيرها، عادت "إبتسام" إلى الغرفة وفي يديها صينية موضوع بها فنجان القهوة وكوبٌ زجاجيٌ مملوءًا بالمياه، تلَّفتت حولها باحثةً عنه وهي تناديه:

- يا ضاكتور "عوني"!

لاحظت اختفاء صندوق متعلقاته فخمنت ذهابه، وبتلقائية واضحة أسندت الصينية على المكتب واتجهت للنافذة لتوصدها، ثم عادت لتحملها وهمّت بالانصراف لكن استوقفها رؤيتها للملف المُلقى في سلة القُمامة، قادتها قدماها نحوها وانحنت لتلتقطه مرددةً من بين شفتيها وهي تقرأ الاسم:

- "نوال جعفر"!

داعبها فضولها للاحتفاظ بالملف فطوته على الفور ووضعته أسفل إبطها لتقرأه على مهلٍ وبتمعنٍ، لم تدرك "إبتسام" أن من بين أوراقه تقريرًا خطيرًا كتبه الجراح "فوزي" بيده ووضعه في الصفحة الأخيرة كتوثيقٍ لحالة الرضيع الفريدة.

*****

الفصل الثالث

بغريزةٍ فطريةٍ نبعت من داخله حثته على الإمساك بها وتفحصها باستمتاع طفولي يناسب سنواته الخمسة زحف "طاهر" على ركبتيه ليصل إلى تلك الدُمية التي استثارت فضوله ولمحها مُلاقاة أسفل فراش أبويه، استمر في زحفه المتحمس إلى أن وصل لنقطة عجز عن التقدم بعدها بسبب ضيق الفراغ الفاصل بين الأرض وحافة الفراش، مـدّ ذراعه نحوها قدر استطاعته حتى أمسك بها من قدمها ليسحبها إليه راسمًا على وجهه البريء ابتسامة انتصارٍ وتفاخرٍ بما حققه من إنجازٍ كبير، عـاد من حيث أتى وجلس القُرفصـاء على السجادة التي تقع على مقربة من الدولاب، نظر لها مطولًا وبعينين تشعان سعادة خفية، كانت الدُمية مصنوعة من البلاستيك، ذات عينين زرقاوين يتحرك جفناها إن هززتها، أثارت فضوله وبدأ باللعب بها ومداعبتها بلهوٍ مرح، كذلك كان شعرها الأشقر مُشعّثًا بشكلٍ فوضوي فشرع في ترتيبه بيده وكأنه يمشطه مُحاكيًا والدته التي تفعل ذلك مع إخوته، لم يدرك "طاهر" أن أمه كانت تراقب تصرفاته العفوية -والتي كانت مشابهة لها بدرجة محببة إلى نفسها وقلبها ينبض بالسعادة- من فُرجة الباب الموارب، استندت "نوال" بيدها على المقبض ممتعة عينيها بأفعاله اللطيفة، أثّر في نفسها حمله للدُمية وغناؤه لها بكلماتٍ بالكاد يتذكرها لأغنية اعتادت أن تلقيها على مسامعه، وضعت يدها على صدرها تتحسس قلبها النابض وهي لا تصدق أنه ورث أهم خصالها؛ الحنو والعطف؛ جزعت في هلعٍ حينما شعرت بقبضةٍ مؤلمةٍ تعتصر ذراعها يصحبها صراخٌ مخيفٌ من زوجها "منصور" الذي أفسد سعادتها ليوبخها بإهانةٍ:

- أما إنتي ولية ناقصة معندكيش ذرة مفهومية، عايزة تفسدي الواد اللي حيلتي بغباءك!

تأوهت متألمةً من قسوته ومع هذا تحملت الوجع لتسأله:

- هو أنا عملت إيه بس؟ ما تفهمني يا "أبو طاهر"!

دفعها للداخل كالبهيمة لينتفض الصغير فزعًا؛ لرؤية والده الغاضب يعامل والدته -مهيضة الجناح- هكذا بخشونةٍ وعنف، أشـــار "منصور" بيده نحو "طاهر" مفسرًا مقصده الغامض:

- ده تسميه إيه؟

استغرقها الأمر عدة لحظات لتفهم ما الذي يرمي إليه، حيث سمحت للصغير باللهو بألعاب الفتيات رغم تحذيراته المتكررة استجابةً لرغباته الطفولية البسيطة، جحظت عيناها في خوفٍ مستنكرٍ وقد رأته مقبلًا على ابنهما ليمسك به من تلابيبه وكأنه أجرم في شيء خطير، انتزع من يده الدُمية ليلقيها أسفل قدمه ثم بكل غلٍ دعسها ليحطمها إلى أجزاء، تحولت نظرات "منصور" النارية نحو ابنه، ضاقت نظراته بشكلٍ قاسٍ ومخيف، فقد منحه عشرات

الفرص ليكف عن لهوه الفارغ، وَجّهه باللين أولًا ليتوقف عن أسلوبه الخجل الذي يعكس حياءً مُنفرًا في التعامل مع الأقرباء قبل الغرباء، وبالحدة والقسوة ثانيًا علّه يرتعد، ما زاد الطين بِلّة عشقه المزعج للعب بالدُمي ليستفزه أكثر ويُثير حَنَقه، هو أراده صلبًا، جافًا، خشنًا، وقاسيًا مثله، يتمتع بالصفات الذكورية المُثلى من وجهة نظره، أن يكون نسخةً مصغرةً منه، لكنه لم يجد فيه مبتغاه، وكأن الصغير يتحداه ويُعاند تطلعاته وأحلامه التي رسمها له منذ عشرات السنين وقبل أن يبصر النور.

سئِم "منصور" من حالة الخذلان والضعف التي يراها في ابنه؛ لذا قرر أن يغير من أسلوبه المتراخي المدلل في التعامل معه ليتحول للشدة والقسوة علّه يحقق ما يصبو إليه معه، ورغم ذلك كانت النتائج تأتي بالعكس والصغير يتجاهله ليستشيط غضبًا ويشتعل حَنقًا من تصرفاته، رفعه "منصور" من ياقة جلبابه الرمادي ليصبح في مواجهة وجهه الملتهب بحمرته المحتقنة دون أن يعي الطفل أي خطأ قد ارتكب، ارتجفت جميع أطراف "طاهر" هلعًا من ملامح والده المرعبة، أحس بألمٍ عنيف يصيب جانب وجهه الأيسر فأجبر عبراته على التجمع سريعًا، وحثّ فمه على الصراخ باكيًا علّ والدته تهب لنجدته، أحست "نوال" بالخطر المحدق بصغيرها فاستجمعت شجاعتها وتدخلت على الفور لإنقاذ ابنها من غضبته العمياء المندلعة لأتفه الأسباب. حالت بجسدها المتعب بينها وبينه، وكافحت بكامل قواها لتخليصه من قبضته متلقية عنه الضربات المؤلمة فلا يناله أي أذى، خبأته في صدرها وتراجعت به للخلف، في حين رفع "منصور" سبابته نحوهما يهددهما:

- لآخر مرة بأحذرك، وعزة جلال الله لو اتكرر الموضوع ده تاني لهولع فيكي وفيه، أنا مش هاستنى لما يطلع ابني خِرع!

كل ذلك التوبيخ المُجحِف لطفلٍ لا يزال في طَوْر النمو جسديًا ووجدانيًا، واجتماعيًا، فقط لأنه تجرأ ولعب بدُمية شقيقته؟! حاولت "نوال" أن تضبط الأمور قبل أن تنفلت ويبطش في لحظة غضبه العمياء بالصغير فهرعت تقول:

- حقك عليا يا "أبو طاهر"، مش هيحصل تاني!

نعتها "منصور" بسُبة مُهينة جعلت بشرتها تشحب، لم تقدر على الرد وابتلعت مرارة الإهانة في جوفها مُطبقةً على شفتيها بقوةٍ في عجز وانكسار، راقبته بعينين خائفتين وهو يسير مبتعدًا عنهما، حينها فقط شددت مِن ضمها لطفلها ويداها تمسحان على ظهره لتهدئ من روعه وتمحو آثار الرهبة التي تملّكت منه، التفتت لتنظر إليه في عطفٍ وهي تطمئنه كمحاولةٍ يائسةٍ منها لرأب الصَّدْع الذي أحدثه في نفسه:

- متزعلش يا ضنايا، أبوك مايقصدش، ده بيحبك وخايف عليك.

لم تنتبه "نوال" لابنتها "خديجة" التي كانت تختلس النظرات لتمتع عينيها بذلك المشهد الشافي لغليلها، تقوست شفتاها بابتسامة انتصـار شامتة؛ فشقيقها الأصغر يستحق ذلك العقاب وأكثر من ذلك بكثير لكونه قد حرمها من محبة والدها وحنوه الأبوي واختطف كامل اهتمامه، انسحبت في هدوء حَذِر كي لا تثير الريبة، فخطتها نجحت ببساطة؛ تسللت إلى غرفة والديها في غفلة من أمها، ثم ألقت الدُّمية أسفل الفراش في زاوية بعينها تُمكن شقيقها من رؤيتها وحثّه على الحصول عليها، ووقع "طاهر" في الفخ ببرائته لينال جزاءه القاسي لمخالفته لتعليمات أبيه الصارمة، لم تشعر "خديجة" بالشفقة أو تأنيب الضمير، بل غمرها إحساسٌ متعاظمٌ بالانتشاء والراحة، عادت لتفترش الأرضية في غرفة البنات ونظراتها الفرحة تتراقص في لؤمٍ بحدقتيها.

*****

ظلت تلك الندوب محل حيرتها وانزعاجها، فكلما قامت بتحميم جسده وتنظيفه توقفت عيناها عند آثارها الباقية، وعلى الرغم من تأكيدات "عوني" على كون ذلك الأمر طبيعيًا إلا أنه حزَّ في نفسها رؤيته مشوهًا، كذلك بقيت هواجسها بشأن ضمور نمو تلك المنطقة محلًا للقلق والخوف، لم تكن لتعرف نتائجه إلا حينما يصل "طاهر" لمرحلة البلوغ، قامت "نوال" بتجفيف جسد الصغير ولفته بالمنشفة ثم حملته بين ذراعيها لتعود به إلى غرفة النوم، رفعته على الفراش وأزاحت المنشفة عنه لتبدأ بعدها في إلباسه ثيابه الداخلية النظيفة ثم منامته، مشطت خصلاته المبتلة بيديها وأنامته في سريره بعد أن طبعت قبلة أمومية على صِدغه، ابتسم لها الصغير في براءةٍ تداعب القلوب، ومسدت على رأسه في عاطفة جياشة تفيض بها عليه، انخفضت نظراتها عفويًا عند تلك الدمية المخبأة أسفل الغطاء، على الفور التقطتها بيدها ووجهها يعكس خوفًا كبيرًا، حالة من الهلع انتابتها لمجرد التفكير في احتمالية رؤية "منصور" لها، هرولت خارجة من الغرفة تنادي عاليًا:

- "خديجة"، إنتي يا بت!

أتت الأخيرة ملبية نداءها الصارخ تسير بخطواتٍ بطيئةٍ ومتثاقلةٍ وهي تسألها:

- في إيه يامه؟

قبضت والدتها على ذراعها تهزها منه بعصبية مكملة صراخها الغاضب بها وقد رفعت الدُّمية نصب عينيها:

- الهبابة دي بتعمل إيه مع "طاهر"؟

هزت كتفيها نافية:

- معرفش.

هددتها "نوال" بصرامة كي تتوقف عن تصرفاتها السخيفة التي تستدرج صغيرها للوقوع في الفخ ونيل غضب والده قائلة:

- هَسوِّد عيشتك لو طلعتي بتضحكي عليا! سامعة؟

جذبت ذراعها من بين أصابعها لترد بوجهٍ ممتعض ونظراتٍ متنمرة:

- ماشي، بس مش أنا اللي إديتهاله!

قطبت جبينها متسائلة في غضب:

- أومال هايكون مين غيرك؟ حركاتك دي بقت مكشوفة خلاص، ولو ماتعدلتيش أنا هرنك علقة ترقدك شهر في السرير!

في تلك الأثناء، كان "طاهر" قد نهض عن فراشه ليختبئ خلف الباب الموارب متابعًا مشاداتهما بتوترٍ مرتعب، ارتجفت أطرافه وارتعشت فرائصه، ودعم ذلك الإحساس كثيرًا استحمامه قبل قليل بالمياه التي أنعشت خلايا جسده، بدأت أسنانه في الاصطكاك بقوة، خشى من اكتشاف أمره وإدراك أنه مَن تسلل إلى غرفة إخوته البنات ليسرق دُمية "خديجة" ويلعب بها سرًا لبعض الوقت.

كانت الأصوات الخارجية قد انخفضت إلى حد ما، فأسرع عائدًا إلى الفراش ليتمدد عليه مدعيًا إغماضه لجفنيه، شعر "طاهر" بالضيق الممزوج بالخوف، وتعمق ذلك الشعور في كيانه، فماذا يفعل إن كان شغفه للعب بالدُمي قويًا؟ هو لا يفقه سبب حبه الغريب لهم، لكنه وجد في ذلك سرورًا يؤثر عليه بشكلٍ كبير ويتعاظم كلما مرت عليه الأيام، أحس بشيء ينبع من داخله بأنه ليس كبقية الصبية يحب اللهو بالكرة والعصا، بل إنه يتمزق حينما يجد أحدهم يحطمها أو يمزع شعرها إغاظة للفتيات، تسللت دمعة دافئة على وجنته الباردة شقت طريقها على وجهه إلى أن استقرت في النهاية على وسادته وانضمت إلى سابقاتها ليستسلم بعدها لتأثير النوم الذي سيطر عليه.

*****

انتهت من تنظيف منزلها الذي كان يعجّ بالفوضى خلال يوم عطلتها من الوحدة الصحية، تبقى لها فقط طي الثياب النظيفة ووضعها في أماكنها بالدولاب، جلست "إبتسام" على

طرف الفراش وبيدها كوْمة من الثياب المغسولة مؤخرًا، أسندتها إلى جوارها، وبدأت في طيها وترتيبها بشكلٍ منظمٍ، نهضت بعدها لتفتح ضلفة الدولاب لتضع أول مجموعة في الرف الأعلى، أعادت تنظيم الثياب المتكورة على بعضها البعض في الرف الثاني، وهناك وقعت عيناها على ذلك الملف الذي انتشلته من سلة القُمامة، أمسكته بيدها ثم قالت لنفسها:

- يـاه! ده أنا نسيتك خالص!

فتحته مُلقيةً نظرة متأنية على ما كُتِب فيه من معلوماتٍ وملحوظاتٍ طبية تخص "نوال" زوجة "منصور عمران"، بدا كل شيء طبيعيًا إلى أن قرأت الورقة الأخيرة التي جعلت حواسها تنتفض وخلايا عقلها تتقد، تدلى فكها للأسفل لصدمتها مما عرفته، تراخى ذراعاها وهي تقول في ذهولٍ:

- يا نصيبتي! إيه الكلام ده؟!!

ابتلعت ريقها في حلقها الجاف ثم تابعت حديث نفسها:

- يا ترى "منصور" عارف بده ولا ...

هزت رأسها في استنكارٍ معلقةً على حديثها بجدية:

- أكيد يعرف، ماهو "طاهر" أعد مدة يتعالج، تلاقيه عشان خاطر الحكاية دي!

حملقت "إبتسام" في نقطة ما بالفراغ تُعيد ترتيب الأفكار في رأسها ليضيء عقلها بفكرةٍ خطيرةٍ، أقنعت نفسها بأن "منصور" على يقينٍ تامٍ بكل ما يخص حالة ابنه الذي كان مثارًا للشك، وأنه أخفى ذلك عن العامة وتمكن من خداعهم مدعيًا أنه كان عليلًا بمرضٍ عادي حتى انطلت الخدعة عليهم، برقت عيناها بوميضٍ لئيمٍ، لما لا تستغل الفرصة التي واتتها على طبقٍ من ذهبٍ وتحصل منه على مبلغٍ من المال يساندها في مشاق الحياة مقابل سكوتها؟ هكذا سوّلت لها نفسها وستستغل الورق الذي معها للضغط عليه، وبالطبع هو لن يقبل بالفضيحة أو تبعاتها، اتسعت ابتسامتها الماكرة وهي تتخيل الأوراق النقدية تتساقط فوق رأسها مرددةً بحماسٍ:

- شكلها هتروق وتحلو معاكي يا بت يا "إبتسام"!

*****

تأكدت من إنهاء صغيرها لطعامه قبل أن ترسله مع والده ليشهد ذلك الاحتفال المهم كنوعٍ من التمهيد العملي والتأهيل النفسي لما سيقبل عليه خلال الأعوام القادمة ليصبح مثل أقرانه، ألبسته "نوال" جلبابًا نظيفًا من اللون البني وانحنت لتطبع قُبلة صغيرة على جبينه،

عبثت بخصلات شعره القصيرة وودّعته بوجهٍ ضاحك، نظر لها "طاهر" ملء عينيه ملوحًا لها بيده الطليقة، التفت ليحَدِّق في وجه أبيه المتجهم متفرسًا تجاعيده التي تشكلت أسفل عينيه، سأله بكل براءةٍ وابتسامته الهادئة تداعب شفتيه:

- إحنا رايحين فين؟

أخفض نظراته العابسة لينظر إليه بتكشيرة جلية، كانت ابتسامته البسيطة تستفزه دومًا، تشعره بأنه ليس ولده المنشود الذي يحمل سماته، تمنى لو كان طائشًا، غاضبًا، يثور لأتفه الأسباب، لكنه كان كأمه منطويًا على نفسه، يميل للعزلة، ويتشبه بالنساء، وهذا أكثر ما يثير حنقه، عـاد "منصور" لمحيطه الواقعي ليصرخ به:

- امشي عدل ياض، وكفاية ضحك.

تلاشت ابتسامته البريئة وتوترت نظراته من وجهه المُكْفَهِر المتطلع إليه، هز رأسه إذعانًا لأمره في صمت، شدد "منصور" من قبضته الممسكة بكفه الصغير حتى كاد أن يعتصره، ولم يجرؤ الأخير على الشكوى خوفًا من ردة فعله، لم يكن الطريق مجهولًا بالنسبة لـ "طاهر"، فقد ســار لمرات عديدة عليه ليعلم أن في نهايته تقبع دار "غريب"؛ ذاك الشيخ الثري الذي يجتمع عنده أغلب رجــال البلدة إما للاحتفال بمناسبة ما، أو لتسوية النزاعات بين الخصوم، أو لعقد الاتفاقات الجدية بين الأعيان. مرر الصغير نظراته على الفتية الذين يلعبون بالكرة المصنوعة من القماش أمام باحة المنزل الرملية، اشترك هؤلاء الفتيان في ارتدائهم لجلاليب جديدة بيضاء تلطخت قليلًا بالعرق والتراب نتيجة لهوهم الحماسي، أثار الأمر فضوله؛ فالعيد لم يأتِ بعد ليتأنق الجميع، تحركت عيناه بعيدًا عنهم ليتأمل الرجال الجالسين إما على المقاعد المتجاورة أو على المصاطب الخشبية يثرثرون في جَلبة، كما رنت أصوات ضحكاتهم الخشنة في أرجاء المكان، والخدم من حولهم يقومون بواجب الضيافة على أكمل وجه، أحس "طاهر" بقبضة والده الخشنة تطوق عنقه لتجبره على السير في نفس اتجاهه كي لا يشرد عنه ملتهيًا بما يتطلع إليه، نظر له في رهبةٍ وأصغى إليه في خنوعٍ حينما أمره:

- اقعد هنا.

أومأ برأسه مستجيبًا له واتخذ مجلسه على إحدى المصاطب يراقب الفتيان بنظرات مترددة وحائرة، انتفض مذعورًا حينما سمع صرخة عالية تأتي من الداخل أعقبها ضحكات عالية من الرجال الذين يشهدون على ما يحدث مرددين في سخرية:

- علقة تفوت ولا حد يموت!

بدا الأمر غامضًا بالنسبة له، لم يستوعب عقله الصغير مقصدهم العابث، لكنه كان يتابع

بترقبٍ اصطحاب أحد الآباء لابنه ليمشي معه في اتجاه المَضيفة التي تحمل بابًا منفصلًا عن ذاك الرئيس الخاص بقاطني الدار ليختفي معه في الداخل لبضعة دقائق قبل أن تأتي صرخة باكية يصفق على إثرها الرجال ويهللون في سعادة، وزع نظراته بين وجوههم الساخرة، لم يفهم لماذا يضحكون ويلقون النكات البذئية لمجرد التسلية بتعذيب الصغار، أي متعةٍ في ذلك؟ أصابه الأمر بالغثيان والتعب، انكمش على نفسه وتمنى ألا يفعل والده معه مثل الآخرين.

على الجانب الآخر، جلس "منصور" وسط الرجال المعنيين بإبرام ذلك الاتفاق الجديد حيث كان ابن عمه "متولي" أحد أطرافه، اتكأ الشيخ "غريب" بكفيه على رأس عكازه الخشبي يصغي باهتمامٍ للعرض الذي يطرحه "فايق" لشراء قطعة أرض جديدة -ذات الموقع الفريد- وزراعتها بالثمار الموسمية، لكنه كان بحاجة لشريك جديّ يولي الأرض اهتمامه الكامل خلال فترة سفره مقابل الحصول على نصف ما تجنيه الأرض، ووقع الاختيار على "متولي" الذي رحّب في البداية بتلك الشراكة المثمرة، لكنه لاحقًا حاول المناص من سداد باقي الأقساط متعللًا بضيق ذات اليد ليثقل كاهل شريكه بكافة الأعباء المادية، استقام "فايق" واقفًا ليقول بصوته الأجش معلنًا رفضه:

- الكلام ده مايرضيش ربنا يا رجالة، أني كده بأخسر!

هبّ "متولي" ناهضًا من على مقعده ليثنيه عن رأيه وهو يجذبه من عضده ليحثه على الجلوس:

- ده الكلام أخد وعطا.

زجره الأخير بنظرة حادة معقبًا عليه:

- ده اللي عندي يا "متولي".

اكتست ملامحه بتعابير مزعوجة، وحانت منه التفاتة نحو ابن عمه يرجوه في صمتٍ أن يدعمه في موقفه، استجاب لمسعاه فأردف قائلًا:

- اقعد يا "فايق"، الكلام اللي على الواقف ده ماينفعش.

كذلك أيده الشيخ "غريب" فاستطرد هاتفًا بنبرته الخشنة:

- "منصور" بيتكلم صح، اقعد يا "فايق" واسمع لـ "متولي".

اضطر أن يجلس احترامًا لرغبات الحضور، ومع ذلك بقيت ملامحه عابسة، برر "متولي" سبب تعسره موضحًا:

- أني مافيش في إيدي سيولة تغطي القسط اللي جاي، وكل اللي أنا عاوزه منك نأجل الدفع شهرين تلاتة يكون ...

رفع "فايق" يده محتجًا:

- بلاها الشراكة دي اللي هاتجيب وجع القلب، نفضها أحسن.

رد عليه "منصور" بجدية تامة:

- يا "فايق" اديله مهلة يظبط أموره، مجاتش من شهرين تلاتة يعني، كلنا بيجي علينا وقت نقع في ضيقة، وإنت شايف الحال واقف معانا إزاي.

تقوس فمه للجانب في تهكم، استمرت محاولات الجميع في إقناعه بالتريث إلى أن لان قليلًا وعلى مضضٍ، عمِد الشيخ "غريب" لتغيير مجرى الحديث فاستدار نحو "منصور" يسأله مهتمًا:

- أومال يا "منصور" ماطهرتش الواد ابنك مع باقي العيال ليه؟ فرصة وعم "حواس" موجود.

رد متصنعًا الابتسام بعد أن تفاجأ بسؤاله المباشر:

- الجماعة حبوا نأجل الحكاية شوية يكون الواد "طاهر" كبر لأحسن هو ضعفان.

رمقه بنظرة ذات معنى قبل أن ينطق بازدراء ملحوظ:

- ومن إمتى الحريم ليهم رأي في الحاجات دي؟

تحرج من تعليقه الساخط الذي تضمن تلميحًا متواريًا عن تحكم زوجته فيما يخص شئون ولده، نكس رأسه قليلًا في خزي، بينما تجمعت دماؤه الثائرة في عروقه عندما أضاف "متولي" بسماجةٍ:

- حريم ناقصة عقل ودين، يفهموا إيه غير في الغسيل والطبيخ!

كركر الشيخ "غريب" معقبًا:

- على رأيك، حريم فاضية لا بتشيل هم ولا مسئولية.

ضحكوا في استخفافٍ ملقين بعض النكات الفظة الساخرة من النساء لتتحول كامل ثرثرتهم للعبثية واللهو الفارغ، لكز "متولي" جانب ابن عمه بكوعه يمازحه:

- بس إيه الأبهة دي كلها! شكلك ولا اللي رايح يخطب.

ادّعى الابتسام معلقًا عليه:

- أخطب، بلاش تنكيت الله يكرمك، ده عندي كوم لحم يسد عين الشمس.

أراد "متولي" أن يثير تلك الفكرة في رأسه فوسوس له بمكر:

- ماهو بناتك كبروا وشوية وهتلاقي الخطاب بيدقوا بابك، وبيني وبينك إنت محتاج عزوة، ولاد يكبروا يشيلوا شيلتك ويرعوا أرضك من بعدك، وياخدوا بالهم من إخواتهم، ولا عاوز تسلم شَقاك لأجواز البنات؟

تعقدت تعابيره وتقلص وجهه في امتعاضٍ ملموس، بينما أكمل ابن عمه بنفس الأسلوب الماكر:

- وبعدين كلنا واخدين بالنا من "طاهر"، هو مش زي بقية عيالنا.

استفزته كلماته الأخيرة الموحية بوجود خَطْبٍ ما في وحيده مما دفعه للثورة محتجًا ولكن بصوتٍ خفيض:

- قصدك إيه يا "متولي"؟ أنا ابني راجل، واللي يقول غير كده أنا أقطع لسانه!

تراجع على الفور مصححًا قبل أن تندلع غضبته:

- هو حد يقدر يتكلم، بس الواد طالع من تحت إيد الحريم، عُوده لازم ينشف، وده مش هيحصل غير لما تجيبله أخ.

ردد في اهتمامٍ دون أن تتبدل تعابيره المشدودة:

- أخ؟!

أومأ برأسه مؤكدًا في لؤمٍ خبيث:

- أيوه يا "منصور"، الولاد عِزوة بردك، وبعدين إنت لسه في عِزك، تقدر تتجوز بدل الواحدة اتنين وتلاتة وأربعة، وكله بما يرضي الله!

استثار ذلك الاقتراح نفسه الطامعة بقوة ونشط خلايا عقله برغبته الحالمة في أن يكون كامل نسله من الذكور؛ أضاف "متولي" ممهدًا له السُبل وموجدًا له الأسباب:

- وإنت لا أول ولا آخر واحد يتجوز على مراته، ما إني عملت كده قبلك وجبت "يحيى" الله يرحمه، واتجوزت بعدها الحاجة "أم أنور" وجبت منها "أنور" و"مصطفى"، وأديك شايفهم أهم رجالة تشرح القلب.

زبّت "منصور" على فخذه يمتدحهما:

- الله يباركلك فيهم.

مال عليه يهمس له وابتسامة لئيمة تتراقص على شفتيه:

- دوّر الحكاية في دماغك، وإنت مش خسران حاجة.

اكتفى ابن عمه بالإيماء برأسه كي لا يعطيه ردًا نهائيًا عن رأيه في ذلك الاقتراح المغري وتصنع انشغاله بمتابعة ما يدورمن نقاشات جانبية حول مواضيع تخص أمور الفِلَاحة.

*****

كان يكبره بما يقرب من اثني عشر عامًا، يمتاز عنه بالانطلاق والحماسة وقدرته الاجتماعية الفائقة على خلق جو من الود والألفة بين مَن يجلس معه مهما اختلف عمره، ومع ذلك عجز عن صداقته وكأن ذلك الصغير يعانده ويضع ذلك الحاجز الوهمي في العلاقة بينهما رغم صلة القرابة التي تجمعهما.

لمح "مصطفى" الصغير "طاهر" جالسًا بمفرده على المصطبة ومشبكًا لساعديه أمام صدره يهز ساقه اليسرى في الهواء بحركة ثابتة، استغرب من هدوئه الزائد عن الحد والذي لا يناسب عمره، اقترب منه ليستفهم عن سبب بقائه منفردًا وفي معزلٍ عن الآخرين، جلس إلى يمينه ثم مدّ ذراعه حوله ليحاوطه من كتفيه، التفت "طاهر" نحوه ليجده يطالعه بوجهه المبتسم قبل أن يسأله ببساطة:

- إنت مابتلعبش مع العيال ليه؟

هز كتفيه يُجيبه:

- مش عايز.

زبّت "مصطفى" على ذراعه برفقٍ يحثه على النهوض والتجاوب مع شقاوة مَن هم في سنه قائلًا له:

- لأ قوم يا "طاهر"، العيال كلها بتلعب وفرحانة، وإنت قاعد لوحدك، يالا يا حبيبي، هَيّص معاهم.

عاود هز رأسه رافضًا مما دفع "مصطفى" لإجباره على الوقوف بسحبه من رسغه وهو يلُح عليه بإصرار:

- لو هما مش عايزين يلعبوك أنا هاقولهم، تعالى معايا.

كانت مقاومته ضعيفة أمام جره له فســار معه في اتجاه الفتيان، لم يكن "طاهر" حزينًا لكونه لا يشاركهم لعبهم، ولم يمتلك من الشجاعة ما يكفي لإظهار رفضه الكلي لممارسة أي لعبة تحتوي على مظهر من مظاهر العنف والحدة، حتى وإن كان في سياق رياضي، اضطر أن يوافق خوفًا من أن يشتكي "مصطفى" عليه لأبيه فينال عقابه من ضرب موجع أو سباب مهين، وهذا ما لا يحبذه على الإطلاق. تركه "مصطفى" وسط الصِبية بعد أن تحدث معهم بودٍ وطلب منهم بلباقةٍ أن يجعلوا "طاهر" يلهو معهم، رمقه بنظرة أخيرة قبل أن يستدير عائدًا إلى مجلس الرجال ليتابع حواراتهم التي لا تنتهي.

حاول الصغير الاندماج مع الآخرين لكنه فشل، بقى متسمرًا كالصنم في مكانه لا يركل الكُرة أو حتى يزعجهم بتذمراته الطفولية، وكأنه خيال مآتة لا حياة فيه مما استفز أحدهم فقرر أن يركل الكرة عن عمدٍ فيه لتصيب بقسوة أسفل معدته. انفجر "طاهر" باكيًا من شدة الألم فقهقه الصبية على صراخه الطفولي المضحك وأشاروا له بالبَنان ساخرين منه، هرب الصغير من نظراتهم المستهزأة به وركض بعيدًا عن الباحة وعلى مقربة من الطريق الرملي الذي تسير عليه الشاحنات الضخمة المعبأة بالمحاصيل الزراعية لينأى بنفسه منهم، تنفس بعمق وكفكف دمعاته المنهمرة بظهر يده، لاحظ اتساخ جلبابه من آثار الكرة فانحنى ينفض التراب من عليه ولم ينتبه لتلك الشاحنة التي بدأت تشق طريقها عليه دون إضاءة أو صوت.

شاءت الأقدار أن يلتفت "مصطفى" ليتطلع إليه بين الصبية، توجس خِيفة حينما لم يجده يلهو معهم، نهض من مكانه ودار في الباحة يبحث عنه، وإذ فجأة اتسعت عيناه في هلعٍ وقد أبصر موضعه على الطريق الخطر؛ انتفض يعدو نحوه وهو يناديه بصوتٍ جهوري ارتد صداه في أرجاء دار "غريب":

- "طاهــر"!

هبّ "منصور" واقفًا على إثر صراخه المرعب، تحركت عيناه نحو أثر طيف "مصطفى" الذي كان أســرع في الوصول إليه، التقطه الأخير بذراعه القوي من خصره وألقى بثقل جسده على الناحية الأخرى ليتفادا كلاهما الشاحنة التي بالكاد أوشكت أن تدهسهما أسفل إطاراتها الضخمة، ضغط السائق بقوة على مكابحها ليوقفها وقلبه ينبض بعنفٍ خوفًا من احتمالية إصابة أحدهما بإصابة جسيمة، ترجّل من شاحنته وأسرع يتفقد الاثنين، تنفس الصعداء لكونهما بخير، استعاد انضباط أنفاسه اللاهثة ليقول بخشونة:

- ماينفعش اللي بيحصل ده يا جدعان، كان ممكن أفرم الواد ده تحت الكاوتش.

اعتدل "مصطفى" في رقدته ليتفقد الصغير الذي كان يبكي بهيسترية بسبب الصدمة

المهولة التي تعرض لها، حاول تهدئته قائلًا وهو يرمقه بنظرة متفحصة تجوب على أنحاء جسده:

- خلاص يا "طاهر" ماتعيطش، مافيش حاجة حصلت.

اغتاظ السائق من تجاهله له فرفع من نبرته متابعًا توبيخه:

- خدوا بالكم من عيالكم بدل ما رامينهم كده في الشارع.

استند "مصطفى" على مرفقه لينهض ثم التفت كليًا ليواجه السائق الفظ هادرًا به:

- خلاص يا عم الحاج، اركب اللوري بتاعك واطلع من هنا.

تجهمت ملامحه من أسلوبه الجاف في التعامل معه فصاح به:

- ده بدل ما تاخد الواد قلمين يعرفوه غلطه!!

لكزه "مصطفى" في جانب كتفه قاصدًا التصرف معه بخشونة وعدائية:

- لأ إنت اللي غلطان، والغلط راكبك من ساسك لراسك.

وفي أقل من لحظات تجمع حشدٌ من الرجال حول السائق يعنفونه لعدم استخدامه الإضاءة الشاحنة أو حتى البوق لتنبيه المارين بالطريق، فربما تعرض أحدهم لمثل ذلك الحادث لو لم ينتبه جيدًا. جثا "منصور" على ركبتيه أمام صغيره يتفقده، طالعه بنظرات مذعورة قلقة وهو يسأله:

- إنت كويس يا "طاهر"؟

هز رأسه بالإيجاب دون أن يملك الشجاعة لينطق، قبض والده على ذراعيه يهزه منهما بقوة وهو يأمره:

- رد ياض، إنت كويس ولا لأ؟

خرج صوته مهزوزًا مرعوبًا:

- أيوه.

جذبه "منصور" إلى صدره ليحتضنه قائلاً له:

- الحمدلله، عدت على خير.

ثم أبعده عنه لينظر له وشبح ابتسامة متباهية تلوح على ثغره:

- بس إنت جدع يا واد، مخوفتش من اللوري، عايزك كده يا "طاهر"، شجاع ومش عيل جبان.

كان "طاهر" في قمة فزعه، لم يصغ لما يقوله والده، فجُلّ ما يهمه هو ألا يتعرض للضرب المبرح على يده نتيجة تصرفه الأحمق، هدأ تدريجيًا مع التفاف الرجال حول أبيه ليطمئنوا عليه، دقائق وانفض التجمع وبدأ الرجال في الانصراف مصطحبين أبناءهم معهم ليعودوا إلى منازلهم.

*****

كعادتها التي أصبحت ماهرة فيها سـارت "خديجة" على أطراف أصابعها متجهةً إلى غرفة نوم أبويها لتنظر إلى شقيقها النائم، كانت تتطلع إليه مطولًا في صمت، تنظر له بتمعنٍ دقيقٍ وعشرات الأسئلة تدور في رأسها عن سبب تفضيل والدها له عنها وعن بقية إخوتها البنات، لم تجد الرد الشافي لنفسها الحائرة، وتضاعف إحساسها المكبوت نحوه بالكمد والحقد، حتى محبة والدتها اختطفها منها، وأصبحت تعاملها بخشونة وعنف لأجله فقط متعللة أنها تحميه بذلك من طيشها ورعونة تصرفاتها غير المسئولة. احتقنت نظراتها نحو "طاهر"، تمنت لو استطاعت أن تتخلص منه للأبد، راودتها فكرة شيطانية بسحب الوسادة ووضعها على رأسه لكتم أنفاسه وإزهاق روحه، كادت أن تفعل ذلك لولا أن سمعت الهمهمات الآتية من الخارج، ارتبكت وتركتها في مكانها لتتلفت حولها بذعرٍ باحثةً عن مكان جيد للاختفاء، تفتق ذهنها للاختباء أسفل الفراش لتتوارى عن أنظار القادم إلى الغرفة، ثوانٍ حاسمة منحتها فرصة ذهبية لتكون في مأمنٍ من بطش والدها الغاضب إن اكتشف وجودها.

اندفع ومعه موجة غضبه التي لا تنتهي إلى داخل الغرفة دافعًا الباب بذراعه لينغلق بصوتٍ مدوٍ، لكن أسرعت "نوال" بالإمساك به كي توصده بهدوءٍ فلا توقظ الطفل النائم، همست له تعاتبه في رقة:

- بالراحة يا "أبو طاهر"، أنا مصدقت إن الواد نام!

التفت نحوها موجهًا إصبع الاتهام إليها وهو يعنفها:

- إنتي اللي مضيعة الواد باللي بتعمليه فيه!

- اتسعت حدقتاها في عدم تصديق مرددة باستنكار:

- أنا؟!!

رد مؤكدًا:

- أيوه، فضلتي تدلعي فيه وتخافي عليه من الهوا الطاير لحد ما بقى كده، مش نافع في حاجة، بيخاف من خياله، ومتعلق بيكي.

كظمت غيظها في نفسه واقتربت منه لتسأله بعينين تلومانه:

- كل ده عشان قولتلك بلاش نطاهره دلوقتي؟ فيها إيه لما نستناه يكبر شوية، حتى يبقى عنده ٧ ولا ٨ سنين ويستحمل الوجع، ما هو أغلب الولاد بيعملوها في السن ده، إيه كفرت يعني؟!

تحركت عيناه نحو ابنه المستغرق في سُباته العميق، بدا متأففًا مزعوجًا على غير طبيعته، اشتد صوته ليقول معترضًا:

- أنا راجل البيت هنا، وأنا اللي أقرر أعمل إيه لابني مش إنتي!

نظرت له قائلةً في تحدٍ:

- وأنا أمه، مش مرات أبوه، يعني زيي زيك، خايفة على مصلحته.

علّق عليها بتهكمٍ وقاصدًا التلميح بما يراود عقله مؤخرًا:

- والله فكرة، أتجوز وأجيبله مرات أب، جايز تجيبله أخ عدل ينصلح حاله معاه!

صاحت لاطمة على صدرها بغضبٍ محموم:

- إنت عاوز تجوز عليا يا راجل؟

رد رافعًا كفه في الهواء موجدًا لنفسه المبررات الواهية:

- ده شرع ربنا! هتحرميه يا ولية؟ وبعدين أنا أقدر أفتح بيت واتنين وأربعة!

نظرت له في استياء وهي تعاتبه:

- بعد كل ده عايز تتجوز تاني؟ ده أنا ضحيت بعمري وشبابي وصحتي عشانك وعشان عيالك، تقوم تعمل فيا كده؟

نظر لها شزرًا دون أن يعلق ليحقر من مجهوداتها، اشتعلت حنقًا وكادت تفقد أعصابها بسبب أسلوبه المستفز، وقفت قبالته ترمقه بعينين محتدتين كالجمرات المتقدة قائلةً له بسخطٍ ساخر:

- ده بدل ما تجوز بناتك بتدور على نفسك، حتى عيبة على شيبتك!!

لم يدرِ بنفسه إلا وقد طرقعت أصابعه على وجنتها ليصفعها بقسوة وهو يهدر بها:

- اخرسي يا ولية!

انفرجت شفتاها في رفض صريح لعنفه غير المقبول وأدمعت عيناها بعبراتٍ كثيفة، لم يأبه بإهانتها وتابع قوله المفتر قاصدًا وضع الملح على الجرح النازف:

- الراجل مايعبوش إلا جيبه، وأنا الحمدلله معايا اللي يكفي عيالي وزيادة.

حاولت لملمة بقايا كبريائها الأنثوي المجروح، فردت بعزةِ نفسٍ بالرغم من نبرتها الباكية:

- عيالك؟ قصدك بناتك اللي مغرقهم بحبك؟ ياخي ده إنت بتبخل عليهم بكلمة كويسة تطيب بيها خاطرهم.

قال في برود:

- أنا حر أربي بناتي زي ما أنا عاوز، والمثل بيقول إكسر للبت ضلع يطلعلها٢٤!

صاحت به من بين أسنانها المضغوطة:

- إنت ظالم!!

صفعها مجددًا وهو يقول لها:

- إخرسي.

وضعت "نوال" يدها على خدها الملتهب ترمق زوجها بنظراتٍ مغلولةٍ، أطبقت على شفتيها كاتمةً آهاتها الموجوعة، بصق "منصور" على يمينه قبل أن يهينها مجددًا بوقاحةٍ فظةٍ:

- ولية بومة جيبالي الفقر من يوم ما عرفتك!

انسابت عبراتها المحترقة بغزارة على وجنتيها، في حين تجاهلها "منصور" وسحب جلبابه من على العليقة الخشبية ليخرج بعدها من الغرفة صافقًا الباب خلفه بعنفٍ كاد أن يوقظ على إثر صوته الصغير، انهــارت "نوال" جالسةً على الفراش ودافنةً لوجهها المحتقن بين كفيها تبكي في عجزٍ وقهر، هي التي فعلت المستحيل لتسترضيه يضحي بها هكذا ببساطة! ارتفع صوت نحيبها المكتوم ليؤلم "خديجة" التي تابعت مشاجرتهما من موقعها الخفي، لم تستطع الخروج من مخبئها لاحتضان والدتها وتهوين الأمر عليها، اكتفت فقط بتكوير قبضتيها حتى ابيضت مفاصل أصابعها كنوعٍ من التنفيس عن غضبها المحموم بداخلها، ورغم حداثة سنها الذي تجاوز الثانية عشر إلا أنها كانت قادرة على فهم ما يدور حولها بقدرات عقلية تتجاوز سنوات عمرها، لم يكن الخطأ في وجود "طاهر"، ولا في

إخوتها، أو حتى أمها المسكينة، وإنما كان مَكمن الخطأ في والدها الأناني الذي لا يعبأ إن
دعس على الآخرين ليحقق أُمنياته البائسة، هو الوحيد الذي زرع البغضاء في نفوس أفراد
عائلته، ووحده سيجني ثمار تلك الكراهية مستقبلًا.

*****

الفصل الرابع

كارثةٌ بكافة المقاييس وبكل ما تحمله الكلمة من معنى حلّت على رأس رب العائلة بعد أن هددت "إبتسام" بما ظنت أنه السر الخطير الذي أخفاه "منصور" عن الجميع، لم يأتِ ببالها مطلقًا أنها فتحت أبواب الجحيم على نفسها قبل أفراد عائلته لمجرد تفكيرها في استغلاله من خلال الأوراق التي بحوزتها، أطبق على عنقها ضاغطًا بأصابعه المتشنجة على عروقها النابضة ليقطع عنها الهواء فتزهق روحها، تدارك نفسه وزجرها صارخًا بها:

- إنتي مخك فلت منك يا ولية؟ اتخبلتي في عقلك؟

كافحت لالتقاط أنفاسها ولتخليص نفسها من قبضته المميتة، تحشرج صوتها وتقطع وهي تجيبه:

- ده.. مش كلامي.. الورق عندك .. أهوو ...

اشتعلت حدقتاه على الأخير وما ضاعف من حنقه حينما تابعت بنزقٍ:

- و.. اسأل .. الضاكتور "عوني" و.. "مراتك"!

كلمة قالتها من بين أنفاسها المختنقة كانت كفيلة بتسليط كامل بركان غضبه نحو زوجته، ارتخت أصابعه عن عنقها تدريجيًا ليشرد في صورة "نوال" التي تجسدت في مُخيلته، وبدأ شيطان رأسه في العبث والوسوسة له، استطاعت "إبتسام" أن تنجو من براثنه، وتراجعت مبتعدةً؛ لتلتقط أنفاسها وهي تسعل بقوة، احتقنت الدماء في وجه "منصور"، بدا كما لو كان قد انفصل عن واقعه المحيط ليفكر مليًا فيما جرى في السنوات المنصرمة، اعتصر عقله ليعود بذاكرته إلى لحظات حملها، أليست هي من أصرت على متابعته مع طبيبٍ متخصص ووقع الاختيار على ابن خالتها "عوني" مؤكدة على أنه الأجدر على رعايتها؟!! ربما تكون قد اتفقت معه على خداعه! تذكر أيضًا أنه لم يرَ وليده فور أن أنجبته، وظل ممنوعًا عن رؤيته إلى أن سمح له "عوني" بذلك وتحت إشراف مباشر منه ولبضع لحظات حتى لا يكتشف الأكذوبة التي كان يرتب لها وبإذعانٍ من زوجته المخادعة.

أفاق "منصور" من شروده وهو يحترق غضبًا، التفت نحو "إبتسام" يهددها:

- أحسنلك تغوري من وشي يا ولية بدل ما أتهور عليكي!

بالطبع تبخرت أحلامها في الحصول على الأموال حينما اختبرت غضبته المخيفة، لم تجرؤ على الانحناء وجمع الأوراق المبعثرة على أرضية الوحدة الصحية حيث التقت به سرًا بناءً على طلبها، كانت مخطئة في حساباتها وتقديرها للموقف برمته، هي انتقت الشخص

الخاطئ لاستغلاله، فـ "منصور" ليس ذلك النوع من الرجال الذي يرضخ بسهولة لأي تهديد ويستسلم، فلو وجهت الدفة منذ البداية نحو "نوال" لربما استفادت منها. تطلعت إليه بنظرة متعمقة، كان كمن يحترق على ألسنة النيران المستعرة، دبّ الرعب في قلبها من هيئته، خشيت "إبتسام" أن يستفيق من صدمته ويستدير نحوها، فماذا ستكون ردة فعله؟ ناهيك عن تيقنها بكونه جاهلًا بما حدث بعد أن رأت انعكاس ذلك على تعابير وجهه، حتمًا سيفتك بها؛ لذا لملمت شتات نفسها، وجرجرت أذيال خيبتها ورائها، وفرت من أمام أنظاره قبل أن ينتبه من جديد لوجودها فتطالها يداه، تجمد "منصور" في مكانه لبعض الوقت وعقله الحائر مشحون على آخره، إذًا كيف سيتأكد من أكاذيبها؟

*****

لم تعرف أي مصيبة قد حلّت فوق رأسها جرّاء تلك الأوراق التي لم تكن تعلم عنها شيئًا، اندفع كالثور الهائج يسب ويلعن ويسخط دون أن تفهم سبب هياجه وانفعاله الزائد، امتزجت أصوات صرخات بناتها مع صرخة "طاهر" فألقت "نوال" ما في يدها على الفور لتهرع من المطبخ متجهةً إليه، كان يقذف بكل ما تطاله يده كنوع من التنفيس عن انفعالاته المكتومة، نظرت له بعينين مصدومتين وهي تسأله:

- مالك يا "أبو طاهر"؟ جاي بزعابيبك علينا ليه؟ هو ....

لم يمهلها "منصور" الفرصــة لتكمل باقي تساؤلاتها حيث انقضّ عليها بشراسةٍ وأمسك بكوْمة من شعرها المعقود أسفل حجابها القصير يشدها منه بطريقة مُهينة وكأنها ارتكبت فحشًا أمام أنظار بناتها اللاتي خشين من الاقتراب أو التدخل، ثم جرجرها نحو غرفة نومهما وسط صرخاتها الموجوعة من الألم الشديد، دفعها بكل قسوة وخشونة فكادت أن تنكفئ على وجهها لولا أن حافظت على اتزانها، ثم أوصد الباب خلفهما بقوة هزت أركان الغرفة، رفعت "نوال" عينيها لتجد صغيرها متكومًا على الفراش ووجهه مدفون بين راحتيه يبكي بأنين مكتوم، انخفضت نظراتها على جسده فكادت أن تخرج مقلتاها من محجريهما وقد رأته بدون ثيابه التحتية، لم يستوعب عقلها سبب تعريته فأسرعت على الفور تدثره بالملاءة لتستره، وحينها رأت أصابع زوجها محفورة على صدغه، جزع قلبها وتلاحقت دقاته باستنكارٍ كبير، احتبست الدماء في وجهها ونظرت إليه بعينين تحملان اللوم، سألته بصوتٍ محتقن وقد تناست ما حلّ بها من غضبٍ للإساءة لصغيرها:

- عمل إيه "طاهر" عشان تبهدله كده؟

استل "منصور" حزامه من بنطاله ولفه حول كفه عدة مرات ليصبح أكثر قدرة على

التحكم به، لوح به في الهواء مهددًا وهو يصيح بها:

- أنا بتستغفليني يا ولية؟ قالولك عني كابس العِمة ومش هاعرف بالبلوى اللي عملتيها؟!

لفت "نوال" صغيرها بذراعيها لتحميه من بطشه وردت عليه مستغربة اتهاماته غير المفهومة:

- إنت بتكلم عن إيه؟!!!

كان رده عنيفًا تلك المرة حيث استخدم حزامه في ضرب جسدها فألهب جلدها وجعلها تصرخ شاهقة، أعطته ظهرها ودفنت "طاهر" في صدرها حتى لا يصل إليه، سألته بصوتٍ تحول من الحنق للاختناق:

- إحنا عملنا إيه يا "أبو طاهر"؟

صرخ بها باهتياجٍ أشد:

- ماتنطقيش بالاسم ده! مش عايز أسمعه تاني.

ذُهلت وأصيبت بالصدمة من كلماته الأخيرة غير المتوقعة، أحست بأن تفكيرها قد شُلّ جزئيًا، ارتعدت "نوال" كليًا من طريقته المخيفة، وأتبع "منصور" أمره غير قابل للنقاش بضربة أخرى آلمتها أكثر، وتحملتها عن ابنها لتحميه، بدت الأجواء غير مبشرة، تحمل مصائب تقسم الأظهر، ردت من بين بكائها وضجيج قلبها المفطور يصم أذنيها:

- حـ.. حاضر، بس فهمني الله يكرمك!

بدأ "منصور" في توضيح الأمور المبهمة بإلقاء التهم المرعبة عليها واتهامها علنًا بالتواطؤ مع ابن خالتها -وأخيها في الرضاعة- "عوني" لخداعه وإيهامه بأنها أنجبت له ذكرًا صحيحًا، وتأكيد الأخير لذلك مستخدمًا مهاراته الطبية الفذة لضمان إخفاء السر عنه، وأن زوجته تلاعبت به طوال الفترة المنصرمة لتضمن عدم زواجه من أخرى فتأتي له بالوريث المطلوب غير ذاك المشوه الذي يحمل اسمه، وما رآه بعينيه المجردتين أكد له أقاويل "إبتسام" التي فشلت في ابتزازه، ارتخت ذراعا "نوال" عن طفلها لتلطم بها على صدرها ووجهها، ثم هبت واقفة لتواجه زوجها نافية تمامًا جميع ما تفوّه به، أصابها حالة من الهيستيرية وهي تصرخ:

- كدب، محصلش، ده ابنك يا "منصور"!

ألقى بالأوراق التي جمعها في وجهها مُتابعًا اتهامه:

- والكلام اللي مكتوب هنا؟ كدب بردك؟!

ردت عليه بإصرارٍ رافضةً الإصغاء إليه أو حتى النظر في الأوراق وغير عابئةٍ بتبعات دفاعها المستميت:

- ده ابنك يا "منصور"، أقسم بالله ابنك، فوق من الأوهام دي وبص كويس، ده ابنك!

رمقها بنظرة نارية قائلًا لها من بين أسنانه المضغوطة:

- هانشوف، ده ابني ولا حاجة تانية!!!

*****

أمرها بتجهيز نفسها وبإلباس طفلهما للذهاب إلى المشفى في مركز المدينة، بالطبع لم ينسَ أخذ الأوراق التي تحمل دليل الإدانة لذلك الطبيب غير المؤتمن، كانت نظراته ممتعضة، احتقارية، كارهة للاثنين، شعرت "نوال" بأنها سهامًا مسمومة تفتك بجسدها وتنخر في عظامها المتعبة، لم تنكر أن نفس الشكوك كانت تساورها من آن لآخر بشأن طبيعة نمو جسد صغيرها، لكن لم يأتِ بمخيلتها أبدًا أن يكون الأمر هكذا؛ تلاعبًا بهويته وتغيير حقيقته، مرت الدقائق كأنها ساعات والصمت المتوعد يسود بين ثلاثتهم، حتى "طاهر" لم يجرؤ على النظر إليه، كان مختبئًا في عباءة والدته يحتمي بها، بعد نزهة وصل ثلاثتهم للمشفى، وهناك أقــام "منصور" الدنيا وأقعدها متهمًا "عوني" وزملاءه بخداعه، مما دفع مدير المشفى للقدوم إليه لإيقاف تلك الاتهامات، حاول بشكل مبسط شرح ما تشير إليه الأوراق، لكنه أبى الإصغاء، وهتف مهاجمًا بوحشية:

- إنتو ولاد ....، غفلتوني وعملتوا ده من ورايا.

رد مدير المشفى بتريثٍ وعقلانية محاولًا توضيح حقائق الأمور له:

- يا أستاذ، مافيش عملية هتحصل هنا بدون موافقة أهل المريض، وأظن توقيعك على الورق موجود.

صاح بنفس العصبية:

- إنتو عملتوا الفيلم ده كله ولبستوني عيل مش ابني!

طعنة نافذة عرفت مستقرها في صدر "نوال" وهي تستمع لإنكاره لبنوة ابنه الذي أنجبته، بالطبع سيظن الجميع أنها زوجة خائنة، خدعته بشكلٍ أو بآخر وأوهمته أن ذلك الطفل الصغير هو ابنه، أحست بالهلع، بنظرات الاتهام تحاوطها، شدت عفويًا من ضمها لـ

"طاهر" لتحميه من تلك الأعين التي تفترسه، استمر "منصور" في سبابه بأقذع الألفاظ فحذره مدير المشفى قائلًا بلهجةٍ قويةٍ:

- مايصحش الكلام ده يا أستاذ، إحنا مستشفى محترم، وسمعتنا معروفة عند كل الناس، الكلام اللي إنت بتقوله ده يسجنك!

علّق بتهكمٍ:

- ماهو باين، بأمارة ما الواد ماطلعش واد، ده أنا هاوديكم في داهية!!

قال له في بأسٍ وحزمٍ:

- مش إنت اللي هاتقول، الفحوصات والأشعة هتحدد كل حاجة.

وبعد جدال حـــاد من "منصور" مع الاستقبال هناك، تم اصطحاب "طاهر" من أجل الفحص الظاهري على يد أطباءٍ متخصصين، انتظرت "نوال" بالخارج في حالة توترٍ مرتعدٍ إلى أن شعرت بعدم قدرة قدميها على حملها، افترشت الأرضية الباردة بجسدها مما ضاعف بإحساسها بالبرودة، كانت تهز جسدها باهتزازة ثابتة ولسانها لم يتوقف عن الدعاء بالنجاة والستر، اختلست النظرات نحو زوجها الذي كان على موقد مشتعل ينتظر على أحر من الجمر ما سيقوله الأطباء، وكلما مضى الوقت كانت تزداد خوفًا مما هو قـــادم.

*****

- يا رب! نجينا يا قادر يا كريم!

تمتمت بهمس كله رجاء وعيناها لم تفارقا ذلك الباب المعدني الذي اختفى بداخله طفلها، انتفضت وأحست بصاعقة تصيب خلاياها حينما اندفع مدير المشفى ومعه أحد كبار جراحيه، اسندت "نوال" كفها على الحائط الرمادي اللون - الذي يبعث على النفس الاكتئاب- واستخدمته في دفع جسدها المتراخي للنهوض، كانت المفاجأة الصادمة والهادمة لكل الآمال حينما بدأ كلاهما في الحديث، حيث أكد الاثنان على وجود عِلة ظاهرية في جسد الطفل تعوق نموه بشكلٍ طبيعيٍ كصبي يتمتع بالصحة والعافية كمن هم في مثل سنه، ويستلزم ذلك بقاؤه في المشفى لإجراء المزيد من الفحوصـــات الدقيقة لتحديد طبيعة حالته ولبيان أسباب حدوث ذلك الخلل الكبير، نظرة دونية تحمل كافة معاني الازدراء منحها "منصور" لـ "نوال" قبل أن يقول لها:

- الواد مطلعش واد يا بنت الأبلسة!

كانت كلماته المهينة فجة للغاية أحرجتها أمام مدير المشفى الذي تدخل قائلًا:

بإيمانها، وسلّمت كامل أمرها للمولى الجبار.

انقضى آخر أيام الفحص وأصبح التقرير جاهزًا لتكون الكلمة الأخيرة للرأي الطبي الحاسم، ترقبت "نوال" بأعصابٍ متلفةٍ النتائج التي آلت إليها الفحوصات الدقيقة، جلست في الاستقبال تنتظر دورها للصعود إلى مكتب مدير المشفى حيث قرر هو تولي تلك المهمة المصيرية، حانت منها التفاتة حذرة للجانب لتتطلع إلى "منصور" الذي اتخذ من المقعد البعيد مستقرًا له، كان كالغريب عنها، وكأنها لم تكن يومًا زوجته أو تشاطره ما يزيد عن عشرين عامًا، نغزة موجعة ضربت صدرها، شردت تتأمله دون أن تعي، افتقدت حضوره رغم كل ما به من عيوب، بدا وكأن هموم الدنيا قد اجتمعت فوق رأسه وانعكست على ملامحه، حتى أمارات الغضب كانت مقروءة على تعابيره، أخرجت تنهيدة ثقيلة من جوفها، أصبح جُلّ ما يُخيفها الآن هو ردة فعله العنيفة إن لم تكن الأمور على هواه، أفاقت من حملقتها به على صوت الممرضة القائل:

- اتفضلي، الدكتور هيقابلكم في مكتبه.

استجمعت قواها المرتبكة ونهضت من جلستها لتسير بخطوات محسوبة خلفها، وبقيت نظراتها الحزينة على زوجها، تمنت في نفسها لو كان متفهمًا، يمنح صغيرها الذي لا حول له ولا قوة الفرصة ليحتويه، توقفت عن السير في مكان ما بالطابق الثالث منتظرةً السماح لها ولزوجها بالدخول لمقابلة المدير الذي فضّل الاجتماع بهما فيه، تأهبت للدخول بعد أن مرق "منصور" لغرفة المكتب، بحثت عن مقعدٍ شاغرٍ لتجلس عليه، ولسوء حظها لم يكن متوافرًا سوى المقابل لزوجها الذي كان يرمقها باحتقارٍ وتأففٍ، ازدردت ريقها وتوجهت نحوه بخُطا متعثرة، جلست في غير استرخاء منكمشة على نفسها، احتضنت كفيها وضغطت على أناملها في توترٍ، من يمعن النظر في وجهها سيجده هزيلًا، باهتًا، يشعّ هالات سوداء كدليلٍ ملموسٍ على أرقها الدائم وقلة نومها، ركزت "نوال" انتباهها على الطبيب الذي استهل حديثه بالترحيب بضيفيه ثم قال في هدوءٍ وهو يعبث بالأوراق الموضوعة أمامه:

- أنا مش عارف إن كنتوا هتفهموا الكلام اللي هاقوله ولا لأ.

رد عليه "منصور" بتلهف:

- قول يا ضاكتور، الواد عنده إيه بالظبط؟ وهو ابني ولا ...

قاطعه مدير المشفى مؤكدًا:

- اطمن هو من صلبك، مافيش شك في ده، لكن اللي عاوز أحكي فيه يخص طبيعة حالته..

ضاقت نظرات "منصور" من أسلوبه الملتوي في الالتفاف حول الإجابة، صاح متسائلًا وقد بدا غير قادرٍ على استشفاف مقصده:

- يعني هو ابني ولا لأ؟ قول يا ضاكتور، ريحني، إنت مش شايف النار اللي أنا عايش فيها!

تنحنح مدير المشفى بخفوتٍ موزعًا نظراته بين الأبوين قبل أن يعلق:

- الكلام اللي جاي ده كله بناءً على فحوصات علمية دقيقة اتعملت لأكتر من مرة.

دق قلب "نوال" بعنف، كانت إلى حد ما شبه واعية، تُجاهد لاستيعاب ما سيعلن عنه، اضطربت أنفاسها وبدأ صدرها ينهج بشكلٍ ملحوظ، في حين فقد "منصور" صبره ليصيح بعصبيةٍ مستخدمًا يده في الطرق على سطح المكتب بعنف:

- ماله الواد؟ قولنا الحقيقة.

مط مدير المشفى فمه لثوانٍ مستغلًا ذلك الوقت الحرج في ترتيب أفكاره، نظر بعينين حائرتين لتعبيرات الوجهين المتناقضين؛ فإحداهما يضج بالغضب والانفعال، والآخر بالخوف والارتعاب، كان العبء ثقيلًا على كاهليه، فمن نظرته الأولى أدرك أن الوالد لن يتفهم ما سيسمعه، ومع هذا كان حتمًا عليه أن يفي بالقسم الذي أدلى به قبل سنوات لمصارحة المريض بطبيعة حالته، زفر قائلًا بتريثٍ وبلغةٍ مبسطةٍ:

- طاقم الأطباء هنا استعان بالتقنية الحديثة المتاحة عندنا واتوصلنا إن الطفل "طاهر" بنت مش ولد، وده بناءً على طبيعة تكوين جسمه الداخلي.

صدمة متوقعة لكن تأكيدها كان أشد تأثيرًا على مسامع كليهما، بهتت ملامح "نوال" واختفت الدموية من بشرتها لتبدو كالموتى، شاخصة الأبصار، فكها الأسفل متدلٍ في عجزٍ مرعوبٍ، فأي مستقبلٍ مظلم ينتظر طفلها؟! في حين تحولت تعابير زوجها للعدائية والإظلام، وتوهجت عيناه بشررٍ مستطر، أكمل مدير المشفى حديثه موضحًا بعض الحقائق الغائبة عنهما:

- ابنكم لما اتولد، أو خلينا نصحح المعلومة بنتكم، كانت بتحمل العضوين الأنثوي والذكري، ودي من الحالات النادرة اللي بتصيب بعض المواليد.

حملق فيه "منصور" ببلاهةٍ وقد تقلصت تعابيره بدرجة كبيرة، للحظةٍ أخيرة تمسك باحتمالية وجود خطأ في الأوراق، أحس بعروقه تنتفض وبتسارع نبضات قلبه مع كل كلمة يتفوه بها حينما استأنف سرده للوقائع:

- وكان المفروض يتم الانتظار لحد ما المولود يوصل لسن سنتين عشان يتم تحديد

هويته بعد ما تكون أجهزته الحيوية اكتمل نموها، وساعتها بس كنت هتقدر تعرف إن كان ولد أو بنت؛ لأن أعضائه الداخلية هتبين هو إيه بالظبط، ومن الكشف الظاهري الأولي كان واضح الضمور الظاهر على العضو الذكري ده لو اعتبرناه أصلاً ولد، وبالتالي ده رجح كفة إن الجهاز التناسلي أنثوي من البداية، ورغم كده عملنا التحاليل والفحوصات اللازمة والأشعة المقطعية عشان نتأكد من شكوكنا.

توالت الحقائق فوق رأسه لتزيد من حالة الاحتقان لديه، سأله مباشرةً وقد كست حمْرة ملتهبةً حدقتاه:

- يعني هو مش واد..؟!

زم شفتيه مؤكدًا:

- لأ، دي بنت! واللي اتعمل زمان فيها كان غلط من البداية، كان المفروض تستنى شوية و...

فَقَد "منصور" آخر ذرات هدوئه ليهيج صارخًا وهو يطيح بيده ما وُضع على مكتب مدير المشفى:

- إنتو اللي عملتوا فيه كده!

ما إن رأى مدير المشفى نوبة هياجه التي باتت جلية حتى ضغط على الزر الصغير المثبت في جانب مكتبه الأيمن ليستدعي أفراد الأمن، فالأمور أصبحت على المحك، ثم استقام واقفًا ليرد عليه بحزم:

- يا أستاذ إنت ماضي على موافقتك لإجراء العملية دي في التوقيت ده، يعني بالبلدي مافيش حاجة تمت من غير علمك حتى لو مكونتش فاهم إيه اللي بيحصل!

شـرد لوهلةٍ متذكرًا كيف لعب "عوني" لعبته القذرة باحترافية ليصدق أن مولوده الحديث ذكرًا وليس أنثى، وأنه بيده وقع على الأوراق التي تخلي مسئولية الأخير من أي أضرار قد تحدث إن اكتُشف الأمر، ردد مصدومًا بصوتٍ محمومٍ:

- ضحك عليا ابن الحرام وقالي كلام مفهمتوش!

علّق عليه مدير المشفى:

- دي غلطتك من الأول، كان لازم تسأل وتعرف.

ألجمت المفاجأة لسان "نوال" وعقدته فتبخرت الحروف من على شفتيها، برقت

واتخذت موقف المشاهد متابعةً في صدمة كلية كم الكوارث التي تسمعها، كان جسدها ينتفض تلقائيًا مع صراخ زوجها، باتت تخشاه حد الموت، نظرت له في رعبٍ خاصة حينما ركز نظراته النارية عليها وهو يوجه إصبع الاتهام لها:

- آه يا مَرة يا حرباية، إنتي كنتي عارفة بكل ده؟!

هزت رأسها بالنفي وهي تنكر اتهامه المُجحِف:

- والله العظيم أبدًا.

بينما أضاف مدير المشفى مؤكدًا:

- يا أستاذ لازم تبقى عارف إن الزوج هو المسئول عن تحديد جنس المولود مش العكس، ووارد يحصل خلل أثناء الحمل و....

لم يصغِ لصوت العقل أو المنطق، بل اندفع نحو "نوال" كالمجنون، ثم انقض عليها بكل قوته قابضًا على عنقها ينتوي زهق روحها، شدد من قبضته عليها وهو يقول لها:

- اللي زيك يستحق الموت.

قاومته قدر استطاعتها وهي تكافح لالتقاط أنفاسها الأخيرة، تدخل مدير المشفى على الفور ليحول بينهما بعد أن خرجت الأمور عن السيطرة، لحظاتٍ معدودة واقتحم غرفة المكتب عدد من أفراد الأمن، دون انتظار أي إشارة من رب عملهم أمسكوا بالزوج الثائر وقيدوا حركته، نجحوا في إبعاده عن زوجته قبل أن تلفظ أنفاسها بين يديه، هاج "منصور" صارخًا:

- اتحمي فيهم كويس يا ....، بس وعزة جلال الله لو شوفت خلقت اللي جابوكي هادبحك إنتي والمسخ اللي خلفتهولي!

انفجرت باكية تنوح وتلطم على صدغيها بالرغم من الإجهاد الذي تغلغل في كيانها، اهتزت بالكامل وشهقت بهلعٍ أكبر حينما ردد بأعلى صوته:

- أنا ابني مات وإنتي موتي معاه!

لم تتحمل عباراته المسمومة فردت بانهزامٍ وقهرٍ:

- حرام عليك تظلمنا وإحنا مالناش يد في اللي حصل، ربنا عالم بحالنا.

هدر بها بصوته الجهوري الأجش والمليء بالانفعالات الحانقة:

- إنتي كنتي عارفة ومؤالسة معاه من الأول.

ردت نافية دون تفكير:

- لا، محصلش!

ضاعف من انهيارها العصبي حينما أكمل بكل جحودٍ وقسوةٍ:

- "طاهر" مات، سامعة ابني مات، وأنا معرفش البت دي، دي مش بنتي، إنتو قتلتوا ابني!

- طلعوه برا.

صرخ مدير المشفى بتلك العبارة الصارمة ليوقف المذبحة المعنوية التي يمارسها "منصور" على زوجته، وبالفعل امتثل أفراد الأمن له وأخرجوه من الغرفة وسط سبابه الفشين وكلماته النابية، ثم التفت نحو "نوال" ليطالعها في إشفاقٍ ممتزجٍ بالضيق، أخرج تنهيدة مهمومة من صدره وهو يردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا مش عارف أقولك إيه!

كانت أضعف من المواجهة والتصدي لظلمه المبين، لم يشفع لها تفانيها لأعوامٍ في خدمته وسعيها الدؤوب للحفاظ على إستقرار أسرته وصَون عرضه وشرفه، تحولت بين عشية وضحاها إلى المتهمة المدانة، فاق الأمر مقدرتها وبدأ جسدها في التشنج بشكلٍ مقلق مما دفع مدير المشفى للتصرف فوزا من أجل إنقاذها قبل أن تخر صريعة مصائبها.

*****

الفصل الخامس

كان الجو رطبًا وحارًا إلى حد ما، وساعد على زيادة إحساس المتجمهرين عند المخبز بتلك الحرارة المرتفعة تكدسهم أمام بابه الخشبي في انتظار فتحه لشراء ما يحتاجون إليه من الخبز الطازج، تأملت "إبتســام" الحشد المرابض بنظرات متربصة ودقيقة، حيث شكّل المكان بقعة جيدة للثرثرة ومعرفة أخبار العوام، راودها شيطان رأسها باستغلال الفرصة وتحقيق رغبتها الانتقامية من "منصور" وعائلته بعد أن فشل مخططها في ابتزازه ماديًا؛ لذا سكبت البنزين على النيران المستعرة وألهبت الأجواء بالكثير من الشائعات المغلوطة والأكاذيب المشوقة لتضمن انشغال المحيطين بها بتتبع أخبار تلك العائلة، زمت شفتيها لتقول في حزنٍ مفتعلٍ:

- حد كان يصدق إن الست الكُمل دي يحصل معاها كده؟ وربنا ده أنا لما كنت بأشوفها بأحس بقلبي بيرفرف كده من طيبتها ولسانها الحلو.

ردت عليها إحدى النساء المصطفات في ذلك الطابور المزدحم بتأفف:

- ياما تحت السواهي دواهي!

بينما أضافت أخرى متسائلة في فضولٍ:

- هو في جديد حصل؟

حركت "إبتسام" ثغرها للجانبين كتعبيرٍ عن امتعاضها التام ثم قالت:

- طلع الواد "طاهر" مش ابنه!!!

شهقات مستنكرة انتشرت بين الواقفين مع همهمات متسائلة عن كيفية معرفتها لذلك، الكل مشدوه بالمعلومة الخطيرة التي باحت بها الممرضة الشهيرة، لم يكن حديثها محلًا للجدل أو النقاش، فهي تعد بمثابة الخبيرة في مجالها، وما تقوله يعد أمرًا مفروغًا منه، استمرت في تشويه الحقائق وإضافة المزيد من الأخبار الكاذبة لتضع "نوال" في قالب الزوجة اللعوب الخائنة والتي فرطت في عرضها واستباحت شرفها مستغلةً غياب زوجها المكافح، ازداد الشغف لتقصي أخبارها، وبرعت هي في سرد الأكاذيب لترى بأم عينيها تباين ردود الفعل ما بين الاستنكار والرفض التام لفجورها، رددت إحدى النساء في استياءٍ بسبب نَهم الناس في الخوض في الأعراض دون بيّنةٍ حقيقيةٍ:

- كفاية بقى نجيب في سيرتها، الله يسهلها حالها وخلونا نشوف أشغالنا.

علّقت عليها أخرى بوجهٍ متجهم في تعابيره:

- ما الطابونة قافلة قدامك، أدينا بنتسلى، هو غحنا اللي غلطنا ولا هي؟

رمقتها المرأة الأولى بنظرةٍ حادة رافضة لما تفعله، لكنها كانت بمفردها المعترضة على ذلك، تساءلت سيدة ما قررت أن تفترش الأرضية الترابية بجسدها بعد أن تملك التعب من قدميها:

- اللي مش عايز يسمع هو حُر، واللي على راسه بطحة بقى! قولي يا "إبتسام"، في إيه تاني تعرفيه؟

أخفت "إبتسام" تلك البسمة اللئيمة التي كادت أن تظهر على ملامحها وهي تدور بعينيها على وجوه الحاضرين، الآن فقط تذوقت طعم الانتصـــار وحازت على انتقامها الجهنمي.

*****

ارتاعت من أن يفرغ انتقامه الأعمى فيه، أن يقتله جهازًا لمجرد تصديقه لما يتم تداوله عنها وعن صغيرها البائس متجاهلًا الحقائق العلمية التي كُشفت مؤخرًا، لهذا توسلت باستماتة لمدير المشفى لإبقاء طفلها لبضعة أيام ريثما ترتب أوضاعها، كانت تبحث عن المأوى له، عن الملاذ الآمن الذي يقيه شر الأقرب إليه، وإرفاقًا بحالتها وظرفها الحرج وافق الأخير على ذلك، وخصص له سريرًا بعنبر الأطفال حتى يُبَتُّ في أمره، رفعت "نوال" كفيها للأعلى وهي جالسة في صلاتها تبكي بحرقة، تناجي المولى علّه يرفع عنها البلاء، عانت منذ مكوثها كضيفةٍ -غير مرحب بها- لدى شقيقتها من الاتهامات المتوارية والعلنية التي تطعن بضراوة في شرفها، كما حُرمت من رؤية بناتها فضاعف ذلك من أحزانها، لن تمر تلك العاصفة بسلام، والأسوأ ما زال ينتظرها، اقتحمت "فايزة" عليها خلوتها صائحة بنبرةٍ عكست توترها الشديد:

- إلحقي يا "نوال" المصيبة اللي بتحصل برا!

شحبت ملامحها الذابلة أكثر وهي ترد متسائلةً بصوتٍ مذعور:

- حصل إيه تاني؟

مدت يدها لتمسك بها من ذراعها لتعاونها على النهوض من ركوعها وهي تجيبها:

- مكوم العفش قصاد باب بيتك، وشكله ناوي على نية وحشة.

لطمت على صدرها في ذهول مرتعد وشعرت بقشعريرة قاسية تجتاح جسدها، تداركت

نفسها وهرولت مندفعةً إلى الخارج لتذهب إليه، تسمرت في مكانها مدهوشة حينما أبصرت أغلب متعلقاتها الشخصية -وكذلك ما يخص صغيرها- مُلاقاة بإهمال في وسط الطريق وأمام أعين المارة، تحركت عينا "نوال" تلقائيًا "منصور" الذي كان يهلل غاضبًا، كادت مقلتاها أن تخرجا من محجريهما وقد رأته يسكب ما في ذلك الجركن البلاستيكي عليهم، انفلتت منها شهقة صارخة قبل أن تكتم البقية بكفي يدها حينما أشعل عود الثقاب وألقى به على الكومة، ثوانٍ معدودة وتراقصت ألسنة النيران المتوهجة في انعكاس حدقتيها، سألته بنبرة متألمة والحسرة المتألمة تملأ عينيها:

- ليه كده يا "منصور"؟

رمقها بنظرة متوحشة احتقارية عبرت عن بغضه الشديد لها، ثم قال لها بقسوةٍ:

- إنتي في حكم الميتة بالنسبالي، انتهيتي من حياتي.

صرخت "نوال" بهيسترية وقد فاض بها الكيل من ظلمه المُجحِف:

- حرام عليك، أنا ذنبي إيه في كل ده؟ ما أنا زي زيك و...

قاطعها بصوته الجهوري:

- ماتقوليش زيي، إنتي كدابة .. كدابة، كنتي موالسة معاه وخلفتيلي عيل زي ده!

ارتفعت نهنهاتها وهي ترد مدافعة عن نفسها:

- اتقي الله يا "منصور"، دي حكمة ربنا و...

صرخ يقاطعها من جديد بلهجة أشد قسوة وعدائية مُنهيًا حياته الزوجية علنًا:

- هو اللي زيك يعرف ربنا؟ إنتي ولية قادرة وفاجرة، إنتي مش هاتفضلي على ذمتي، إنتي طالق يا "نوال"، سمعاني طالق.. طالق!

ثم استخدم يده في الإشارة وهو يتابع بنفس الانفعال:

- والخلق دول كلهم شاهدين عليا، إنتي طالق بالتلاتة.

فضيحة مدوية أحنت ظهرها وقسمته ودمرت ليس فقط ماضيها وحاضرها، وإنما أيضًا مستقبلها على مرأى ومسمع من العامة، استأنف "منصور" قسوته عليها صائحًا:

- ومالكيش بنات عندي، أمهم ماتت.. مــاتت!

انهارت "نوال" جاثية على ركبتيها تضرب بكفيها الأرضية الترابية، ثم أمسكت بحفنةٍ من

التراب ألقته فوق رأسها وظلت تولول وتصرخ مستغيثة بمن يكف أذاه عنها، لكن لا حياة لمن تنادي، نظرات الخُذلان كانت واضحة في أعينهم، الكل اتخذ موقف المشاهد السلبي، عادت لتلتفت إليه وتوسلته باستماتةٍ وذلٍ:

- بالله عليك يا "منصور" ماتحرمني من بناتي! أنا مستعدة أعيش خدامة ليهم، بس متحرمهومش مني، دول محتاجني، يا خلق قولوله حرام كده، والله ما يرضي ربنا الظلم ده!

لم يكترث أحدهم لأمرها، حتى مَن شعر بالشفقة نحوها فضَّل ألا يخلق عداوة مع "منصور"، تضاعف نواحها، وارتفع عويلها المستنكر لما تتعرض له، بينما ظلت بناتها الأربع حبيسات المنزل، لم يسمح لهن والدهن بالخروج أو حتى توديع والدتهن، انخرطن في بكاءٍ متألم شديد التحسر، انخلعت قلوبهن مع تجريد من منحتهن الحب والرعاية والعاطفة من أمومتها، أرادت "خديجة" الخروج والوقوف بجانب أمها ضد بطش أبيها، لكن منعتها "هناء" خوفًا عليها من عنفه الأهوج وخصوصًا في تلك الحالة المخيفة، انسحب "منصور" من الباحة الأمامية لمنزله ليلج للداخل تاركًا "نوال" تجني ثمار ما أسماه خداعها مستعينًا بدعم الأغلبية من أهل بلدته لقراره الظالم.

*****

تورمت عيناها من البكاء المفجع، لم يرأف بها أحد ولم يمنحها مخلوق ذرة إحسان، بقيت "نوال" جالسة على ركبتيها أمام بقايا متعلقاتها المتفحمة لساعاتٍ في حالة شبه واعية، تستعيد كل ذكرى عاشتها في ذلك المنزل ومع فلذات أكبادها.

تأملها المارة في تعجبٍ ولم يكلف أحدهم العناء لإبعادها عن ذلك المشهد الموجع، حتى شقيقتها أتت إليها عشرات المرات ترجوها أن تنهض لكنها أبعدتها عنها واستمرت في تحديقها الشارد في أطلال حياتها المحترق إلى أن هبط الليل، جلست إلى جوارها تهون عليها وتشد من أزرها رغم يقينها بأن ما تفعله معها دون جدوى، تحاشت نظرات المارة الشامتة فيها، وركزت أنظارها مع شقيقتها فقط، انتفضت "فايزة" فزعًا والتفتت كالملسوعة برأسها للخلف حينما ناداها زوجها بوجهٍ متجهم:

- قومي فزي يا ولية من عندك!

هربت الدماء من وجهها ونظرت له بعينين متسعتين في توترٍ خاصةً حينما أكمل:

- شكل الأعدة عجبتك هنا جمب المحروسة أختك؟ لو عايزة تحصليها قوليلي.

اضطربت وارتبكت وردت معتذرة على الفور:

- حقك عليا يا أخويا!

نهضت بتثاقلٍ من جلستها غير المريحة، ونفضت التراب العالق بعباءتها قائلةً بحذرٍ علّها تسترق قلبه وتحرك مشاعره الجليدية المتجمدة:

- بس إنت شايف اللي جرالها، دي حالتها تقطع القلب و...

رفع "طلعت" كفه ليجبرها على قطع عبارتها، ثم هتف قائلًا بعدم اكتراثٍ:

- هي اللي جابته لنفسها، ويالا انجري قُدامي على البيت خليني أتنيل أطفح!

رمقته بنظرة مغلولة مغمغمة مع نفسها بغيظٍ:

- بالسم الهاري!

انتظرت للحظة حتى سبقها في خطواته فاستدارت عائدة إلى شقيقتها، مالت عليها ترجوها وهي تُرَبّت على كتفها حتى تخلت الأخيرة عن عنادها وقررت الرحيل، تنفست "فايزة" الصعداء لاستجابتها لها، ولفت ذراعها حولها لتعاونها على السير حتى وصلت بها إلى منزلها الذي لم يكن بعيدًا.

*****

- أختك خدت واجبها معانا، أنا مش ناقص مشاكل وعداوة مع "منصور"، قوليلها تروح لحال سبيلها!

ردد "طلعت" تلك العبارات بجفاءٍ بعد أن ضجر من بقاء "نوال" في منزله لبضعة أيامٍ كتعبير عن رفضه الصريح لوجودها، تحرجت "فايزة" كثيرًا من انعدام ذوقه وعدم تقديره لظروفها القاسية، عاتبته قائلةً ولكن بحذرٍ:

- يعني أطردها من بيتنا؟ ده حتى مايصحش وعيبة في حقنا، وإنت أبو الكرم كله!

هز كتفيه في عدم مبالاة:

- ماليش في الحوارات بتاعتها، هي تحل مشاكلها بمعرفتها.

ردت باستنكارٍ:

- حرام نيجي عليها إحنا كمان، دي غلبانة والله.

زجرها صائحًا بخشونةٍ:

- يا ولية إنتي غبية، بأقولك مش عايزها في بيتي، وأحسنلك تشوفيلك صرفة معاها بدل

ما أطردها بنفسي!

كان صوت "طلعت" عاليًا للدرجة التي جعلت قوته تخترق جدران غرفة "نوال" فتدرك أنها فعليًا بلا سند أو عائلة تزود عنها، تغلغل في أعماقها أحاسيس الخوف والوحدة والضياع، تركت لعبراها العنان لتشق طريقها على وجهها الباهت، نهضت عن فراشها ساحبة عباءتها الوحيدة التي تبقت لها من أشيائها لترتديها، خرجت من الغرفة ماسحة دمعاتها المقهورة من على وجنتيها، اقتربت منها "فايزة" تعتذر لها بشدة:

- أنا أسفة ياختي، والله غصب عني.

قالت لها في استسلام محبط بعد أن تخلى الأقرب عنها:

- كل حي بياخد نصيبه!

لم تكترث بالمبررات التي ظلت تصوغها أختها لتوجد الأعذار لزوجها الذي تشارك مع طليقها في قسوتهما غير الرحيمة، سألتها "فايزة" برأس منكس في خزي:

- طب هتروحي فين؟

أجابتها بيأس:

- أرض الله واسعة.

انقبض صدرها حزنًا على مصيرها المجهول، عفويًا وضعت يدها على ذراعها لتستوقفها وهي تقول لها:

- حقك عليا.

ردت بوجهها الذابل:

- وإنتي ذنبك إيه؟ الحمدلله على كل حال.

انسلت من قبضة أختها لتسير في اتجاه باب المنزل، وقبل أن تمسك مقبضه صاحت "فايزة" عاليًا متذكرة شيئًا خطيرًا:

- استني ياختي.

ردت عليها "نوال" بإصرار:

- أنا ماشية!

وكأن عقلها قد أضاء بفكرة ما ربما ستساعدها في مأزقها وتنتشلها مؤقتًا مما هي فيه

فاستطردت موضحة:

- ما تروحي عند خالتك "حسنات"؟

انعقد حاجبا "نوال" وتعقدا وهي تردد باندهاش انعكس على تعبيراتها:

- خالتي "حسنات"!

على الفور تجسد شكلها البشوش في مخيلتها، هي حقًا اسمًا على مسمى، سرحت للحظات تستعيد ذكرياتها الطفولية معها في منزل جديها، تمتعت "حسنات" ببشرة بضة، وبملامح صافية محببة للنفس تدفع من ينظر لها للتحديق في خُضرة عينيها والانجذاب لعفويتها المرحة، ناهيك عن كونها تتسم بالكرم والإحسان للآخرين، كما داعب مُخيلتها مذاق الحلوى الشهية والتي تُجيد صنعها ببراعة، تزوجت منذ زمنٍ وانتقلت مع زوجها للعيش في المدينة، لم يرزقها المولى بالبنين، وارتضت بما قسمه الله لها، وعاشت سعيدة في كنف زوجها الطيب، أصبحت أرملة بعد عدة سنواتٍ من زواجها، وترك لها زوجها الراحل ميراثًا لا بأس به، ومع هذا فضلت ألا تتزوج مرة أخرى وعاشت على ذكراه الطيبة في منزله ولم تفكر في العودة إلى البلدة لتقضي أغلب سنواتها هناك حتى نسي وجودها معظم المعارف هنا، أفاقت "نوال" من شرودها فيها على صوت "فايزة" المقترح:

- جربي تروحيلها، وأنا واثقة إن عمرها ما هتردك!

منحتها باقتراحها غير المتوقع في ذلك الوقت الحرج بارقة من الأمل، لم يكن لديها خيار آخر سوى اللجوء إليها وطلب مساعدتها، آملت في نفسها ألا تردها وإلا لأصبح القادم من حياتها أكثر إظلامًا.

*****

استدلت على عنوان مسكنها بمساعدة بعض الغرباء ممن يعرفون المنطقة جيدًا، توقفت عن السير لتجفف حبات العرق المتصببة على جبينها بطرف كمُ عباءتها، جابت بنظراتها ذلك المكان المأهول بسكانه من ذوي المظهر البسيط غير المتكلف، تلفتت حولها في حيرة؛ فالبنايات تقريبًا متشابهة، بل إنها تكاد تكون متطابقة في اللون وعدد الطوابق، استندت "نوال" على أحد أعمدة الإنارة تلتقط أنفاسها، بدت الحيرة جلية على تعبيراتها المتعبة، لاحظ أحدهم ممن كان يسير على مقربة منها ترددها وارتباكها، خاصةً أن وجهها لم يكن مألوفًا، اقترب منها يسألها في ود:

- سلامو عليكم يا ستنا، بتدوري على حد معين هنا؟

أجابته وهي تبتلع ريقها في حلقها الذي بات جافًا ومريرًا:

- متعرفش بيت الخالة "حسنات" فين في الحتة دي؟

رد الرجل بحماسٍ كبير وقد ظهر في وجهه ابتسامة عريضة دلت على صلته الوثيقة بها:

- الحاجة "حسنات"، هو في حد ميعرفش الست الكُمل دي، ربنا يباركلنا في عمرها، دي خيرها على الكبير قبل الصغير.

ارتسمت علامات الانبهار على قسماتها، لم تتخيل "نوال" أن تحظى خالتها بمثل تلك الشعبية الهائلة والسيرة الطيبة بين قاطني المنطقة، تنحنحت ثم سألته في لطفٍ مهذبٍ:

- طب ماتعرفش مكانها فين إلهي يسترك؟

هز الرجل رأسه بالإيجاب قائلًا لها:

- ده أنا هاوصلك لحد عندها.

لم تنكر "نوال" أنها شعرت بالريبة والاستغراب من تلك المعاملة الطيبة من ذلك الغريب وكأن هناك أُلفة عجيبة بينهما على الرغم من كونها المرة الأولى التي تطلب فيها العون منه، تصنعت الابتسام وردت عليه بامتنانٍ:

- كتر خيرك.

علَق مبتسمًا قبل أن يتقدم في خطواته للأمام:

- ده من بعد خيرها علينا!

تبعته "نوال" بخطواتٍ شبه متعجلة لتلحق به وقلبها يدق في توترٍ، لم تكن قد قابلتها منذ فترة طويلة، خافت من احتمالية عدم تذكرها لها، نفضت مؤقتًا التفكير في ذلك الهاجس المرعب عن عقلها حتى تصغي إلى مآثر خالتها العظيمة، فقد استرسل الرجل في الإشادة بأفعالها الخيرة وإسعادها لعشرات الأسر الفقيرة، عفويًا وجدت نفسها تبتسم لسماع مثل تلك العبارات المادحة في شخصها المُحسن، لم تغيرها قسوة الحياة، واحتفظت بما تربت عليه؛ الجود والكرم مع الآخرين، توقف الرجل عن السير مشيرًا بيده نحو مدخل إحدى البنايات وهو يقول:

- الحاجة "حسنات" ساكنة في الدور التاني، الشقة اللي على إيدك اليمين من وإنتي طالعة السلم.

شكرته قائلة:

- متشكرة يا حضرت.

انصرف الرجل دون أن يضيف المزيد فالتفتت تتأمل المكان الذي زارته في صغرها بضعة مرات تُعد على أصابع اليد بعد أن خط الزمن علاماته عليه، ما زال المكان محتفظًا بتفاصيله رغم مرور السنين، لاحظت أن الطلاء قد بهت وأصبح مشققًا، كما ظهرت الشروخ والتصدعات على جدرانه، وجدت "نوال" نفسها تبتسم في سخرية حينما أبصرت تلك الرسمة الطفولية الهزلية التي رسمتها بالقلم الحبري في مواجهة الدرابزين، خف الحبر كثيرًا وامتزج بالأتربة الداكنة فأصبحت مجرد آثار قديمة، اختفت ابتسامتها الصغيرة ودفعت جسدها للصعود أعلى الدَرَج حتى توقفت عند الطابق المنشود، ارتبكت أنفاسها وتسارعت خفقاتها، سحبت شهيقًا عميقًا لتضبط به انفعالاتها التي بدأت بالتأثر دون وجود مؤثر فعلي يحث خلاياها على ذلك، تحركت حيث أرشدها الرجل نحو الباب الخشبي المنقسم إلى جزئين ويتخلل كل جزءٍ فيه نافذة صغيرة يطلق عليها الشُراع، أحست بتلاحق دقات قلبها أكثر، استجمعت "نوال" جأشها ورفعت يدها نحو النافذة لتنقر عليها عدة مرات، ثم تراجعت للخلف مترقبة في تلهف قلقٍ ردة فعل خالتها لرؤيتها.

*****

- يا مراحب بالغالية بنت الغاليين.

رددت "حسنات" تلك الكلمات المرحبة بابنة أختها وهي تضيفها في صالون منزلها المتسع بعد أن استقبلتها استقبالًا حميميًا مليئًا باللهفة والأشواق، كانت مبتهجة لزيارتها الاستثنائية الفريدة، أجلستها على الأريكة العريضة المبطنة بقماش القطيفة المزركش بدرجات اللون الزيتي وذات القوائم الذهبية كدليل على قيمتها الغالية، ثم استأذنتها لتغيب عنها للحظات ريثما تعد لها واجب الضيافة كما اعتادت أن تفعل مع كل من يزورها، استغلت "نوال" الفرصة في تأمل أثاث المنزل الذي ما زال محتفظًا برونقه، توقفت عيناها عند صورة فوتغرافية قديمة من اللون الأبيض والأسود موضوعة في إطار عتيق جمعت بين عروسة خجول تتأبط ذراعًا قوية وزوج يطالعها بنظراتٍ هائمةٍ، شردت في ملامح العروس البشوش، كانت تعبيراتها تشع بهجة رغم الحياء الذي يكسوها، أبعدت نظراتها عن الصورة حينما ولجت خالتها للغرفة لتنظر لها باهتمام، ما زالت محتفظة بنفس النضارة والإشراق بالرغم من كبرها، أحست بالدفء والأمان يملآن نظراتها، رمشت بعينيها في حرجٍ حينما أسندت خالتها الصينية الفضية على الطاولة الرخامية التي تتصف الغرفة، تأملت ما وضعته بها من أكواب الشاي وأطباق صغيرة من الحلوى الشهية لتتناول ما بهم، عادت "حسنات" لتجلس إلى جوارها والسرور لرؤيتها بائن في معاملتها لها، مالت عليها لتُقبلها من وجنتيها بعشرات

القبلات الودودة وهي تضمها إلى صدرها، تراجعت عنها لتحملق فيها متسائلةً في حبورٍ:

- طمنيني عليكي يا بنتي؟ أخبارك إيه وولادك عاملين إيه؟ أديلي زمن ماشوفتكيش فيه، كلكم كويسين وبخير؟

لم تستطع السيطرة على دمعاتها التي أغرقت مقلتيها بعد أن لاحقتها بأسئلتها الطبيعية معتقدة أنها تعيش حياة أسرية هانئة مع أفراد عائلتها، انفجرت "نوال" باكية ونكست رأسها بانكسارٍ دافنةً وجهها بين راحتيها قبل أن تستنجد بها:

- أنا واقعة في نصيبة كبيرة يا خالتي؛ "منصور" طلقني، ورماني في الشارع!

كتمت خالتها شهقة مصدومة قاتلت لتنفلت من جوفها تحسرًا عليها، جف حلقها كليًا واضطرب صوتها وهي تسألها:

- يا ساتر يا رب، قوليلي يا "نوال" حصل معاكي إيه؟ ريحي قلبي يا بنتي!

حاولت أن تضبط ابنة أختها نوبة بكائها حتى تتمكن من سـرد تفاصيل ما خاضته مؤخرًا منذ تلك اللحظة المشؤومة التي أفسدت حياتها بالكامل إلى أن تم طردها من منزل شقيقتها لتصبح كالطريدة، أصغت لها "حسنات" بإنصـاتٍ تامٍ محاولةً استيعاب كَم القسوة والوحشية التي تعرضت له هي وصغيرها، نددت بما حدث فقالت لها مستنكرة:

- يخيبك يا "منصور"! بقى كل ده يطلع منك؟!! طلعت خسيس وقليل الأصل!

أجهشت "نوال" بالبكاء المرير حتى احمرت حدقتيها، رَبَّتت خالتها على ظهرها بحنوٍ لتهون عليها فظاعة ما عانته، ترددت الأخيرة حينما سألتها:

- طب و"طاهر" ناوية تعملي إيه معاه؟

ضربت كفًا بالآخر وهي تجيبها من بين دمعاتها المنهمرة:

- مش عارفة يا خالتي، ده لوحده موال تاني خالص!

سألتها مستفهمة بعفوية:

- يعني الضاكتور قالك إنه مطلعش واد؟

رفعت "نوال" عينيها المنتفختين من البكاء الشديد نحوها لترد في حسرة:

- أيوه، طلع زي إخواته البنات، بت مكسورة الجناح!

ثم انخرطت بقوة في بكائها المتألم حزنًا على فلذة كبدها المنبوذ من الجميع، لم تجد

"حسنات" من الكلمات ما تخفف به من وطأة المصيبة عليها سوى قول:

- اصبري واحتسبي يا بنتي، ربك هيدبرها ويحلها من عنده، محدش عارف بكرة مخبيلنا إيه، تبات نار تصبح رماد.

طالعتها "نوال" قائلة بصوتها المنتحب:

- ما الضاكتور قال لازم يعمل عملية ويبقى بت، وأنا مش عارفة إن كان ده صح ولا غلط، حلال ولا حرام!

سكتت خالتها عن الكلام لتفكر في جملتها الأخيرة لبُزهة، ثم تأهبت فجأة في جلستها وكأنها تذكرت شيئًا ما ربما سيساعدها في الوصول للقرار الصائب، هتفت على الفور:

- مافيش إلا الأستاذ "سلامة"! هو اللي هايقدر يفيدنا في الحكاية دي!

مسحت "نوال" عبراتها عن وجهها الحزين براحة يدها، ضيقت نظراتها لتسألها في اهتمام كبير:

- مين ده يا خالتي؟

*****

الفصل السادس

عددت من محاسنه غير المحدودة ومَدَحت في نبوغه المشهود به بين أهالي المنطقة، حيث كان المعظم يلجأ إليه ليستشيره في أمور الدين والدنيا نظرًا لكون دراسته مرتبطة بالشق الأول ولاشتغاله بمهنة تدريس اللغة العربية بأحد المعاهد الدينية، عـاد الأمل ليدق على بابها من جديد. سارت "نوال" متأبطة ذراع خالتها نحو منزله الذي لم يكن بعيدًا، فقط بضعة بنايات، تعجبت من الحفاوة التي كانت تُقابل بها خالتها كلما مرت على أحد أصحاب المحال التجارية القابعة أسفل البنايات أو رآها أحد الجيران، كانت بالفعل تحظى بشعبية هائلة فاقت أثرى الأثرياء في بلدتها نتيجة لإحسانها الدائم مع الجميع فرزقها الله محبة عباده، توقفت كلتاهما عن السير عند إحدى البنايات، أشارت "حسنات" بعينيها قائلةً بصوتٍ مجهد وشبه لاهث:

- الأستاذ "سلامة" ساكن هنا.

هزت "نوال" رأسها في حركة بسيطة، ثم تهادت في مشيتها وهي تسحب خالتها نحو المدخل، كان المجهود المبذول في صعود الدَرَج بسيطًا، حيث كان يسكن الأستاذ "سلامة" في الطابق الأول، توقفت "حسنات" أمام باب منزله ورفعت يدها نحو الجانب الأيسر لتقرع الجرس فصدح صوته بالداخل، ثم التفتت نحو ابنة أختها لتُعَرِّف به بابتسامتها الصافية:

- دلوقتي هيفتحلنا بنفسه، راجل وشه سمح وعنده طولة بال مش عند أي حد في الزمن ده، ربنا يراضيه ويرزقه سعادة الدنيا والآخرة.

ردت "نوال" مجاملة:

- بس مش أكتر منك يا خالتي، أنا بصراحة مشوفتش حد بيعمل خير كده زيك.

قالت لها في بساطة:

- يا بنتي إحنا أسباب ربنا أوجدها في حياة خلقه.

انفتح الباب قليلًا ليطل الأستاذ "سلامة" برأسه ممررًا نظرة سريعة على ضيفتيه، أخفض نظراته في استحياءٍ وتهذيب ثم استطرد قائلًا بترحيبٍ لبقٍ:

- السلام عليكم ورحمة الله، حاجة "حسنات"، يا أهلًا وسهلًا بأمنا كلنا، منورة بيتي المتواضع.

ردت عليه بإشراقةٍ كبيرةٍ:

- وعليكم السلام يا أ. "سلامة"، أعذرني يا ابني إن كُنا طبينا عليك كده من غير ميعاد.

قال بعتابٍ لطيفٍ وهو يشير بيده:

- ماتقوليش كده يا أمي، ده بيتك، تشرفيني في أي وقت، اتفضلي نتكلم جوا في أوضة المسافرين، مايصحش وقفتك كده برا!

علّقت عليه بامتنانٍ:

- كتر خيرك يا ابني.

خطفت "نوال" نظرة سريعة نحو الرجل الذي باتت ضيفته مؤقتًا، كان تقريبًا في منتصف الأربعينات من عمره، يغزو الشيب لحيته السوداء المهذبة، يرتدي جلبابًا فضفاضًا من اللون البني الفاتح، وتلتف مسبحة من الخرز الأزرق حول كف يده الأيمن، يحركها بإبهامه في حركة ثابتة، أبعدت عينيها لتنظر إلى الطريق الذي تسير فيه خلف خالتها حتى ولجتا إلى داخل غرفة الصالون، استقرت "حسنات" على الأريكة العريضة وجلست إلى جوارها ابنة أختها يترقبان عودة مضيفهما، رحبت زوجته بهما وقامت كما أوصاها بواجب الضيافة معهما، عـاد "سلامة" إليهما متسائلًا في احترام عن سبب الزيارة، حينها توترت "نوال" كثيرًا ونظرت لخالتها في حرجٍ وخوفٍ، أحست بتأثير ارتباكها المرتعد عليها فارتفعت حرارة جسدها وتصببت عرقًا غزيرًا، كانت تفتقر للشجاعة لتحكي ما يخصها، تولت خالتها تلك المهمة فاسترسلت موضحة له ما حدث، أنصت الأستاذ "سلامة" لكل ما قيل له بعقلية متفتحة إلى أن ختمت حديثها فعلق متسائلًا:

- يعني دلوقتي إنتو بتسألوا إن كان ينفع تتعمل العملية لـ "طاهر" ولا لأ؟

أجابته "نوال" برأسٍ مطأطأ في خزي:

- أيوه يا سي الأستاذ، الضاكتور قالنا هي بنت.

مط فمه للحظة ثم قال لها:

- أكيد رأيه الطبي مجاش من فراغ، وعشان تطمنوا أكتر هتلاقوا الإجابة عند لجنة الفتوى بدار الإفتاء.

رددت "حسنات" بوجه متعجب:

- لجنة الافتا؟!!

أومأ برأسه متابعًا في توضيح:

- أيوه، إنتو هتاخدوا الورق كله بتاع حالة "طاهر" وهتودوه هناك، وهما هيعرضوه على لجنة متخصصة هتبت في أمره، وساعتها بس هايقولولك إن كان يجوز إجراء عملية التصحيح ليه ولا لأ.

سألته "نوال" بنبرةٍ مرتبكةٍ:

- بس الموضوع كده هياخد وقت؟

رد نافيًا:

- لأ متقلقيش، إن شاء الله هيتحل بسرعة.

نهضت الحاجة "حسنات" من مكانها لتقول له بابتسامتها الودودة:

- يا رب، متشكرين يا أستاذ "سلامة"، تعبناك معانا وعطلناك.

وقف هو الآخر مقترحًا عليها:

- ده أنا تحت أمرك يا أمي، ولو تحبوا أروح معاكو أنا معنديش أي مانع؟

تبادلت نظرات متحمسة مع ابنة أختها قبل أن تقول:

- بجد؟!

أكد لها بابتسامةٍ صغيرةٍ:

- أه طبعًا، أنا ليا بعض الزملاء الأفاضل متواجدين هناك، وهاتكون فرصة طيبة أشوفهم وأتابع معاكو موضوع "طاهر".

أحست "حسنات" بالارتياح لدعمه الصادق لمشكلة "نوال" دون إظهاره أي امتعاضٍ أو كلل، شكرته بسعادةٍ:

- يبقى كتر خيرك أوي، والله ما عارفة أودي جمايلك فين.

علّق عليها بنفس الوجه الباسم:

- كله لوجه الله يا أمي، سبيني أخد الثواب ولا مستكتراه عليا؟

دعت له بقلبٍ صافٍ:

- ربنا يراضيك عنا كل خير ويوقفلك ولاد الحلال ويكفيك شر الطريق.

اتسعت ابتسامته قائلًا لها:

- الله على الدعوة الجميلة دي، اللهم أمين يا رب العالمين.

التفتت "حسنات" لابنة أختها لتقول لها في همس وهي تتأبط ذراعها:

- شوفتي يا "نوال"، ربنا مابيقطعش بينا أبدًا!

ردت بصوتٍ خفيض رافعة أنظارها للسماء وقد أثلجت كلماته المطمئنة صدرها الملتاع:

- ألف حمد وشكر ليك يا رب.

*****

اتكأت بمرفقها على مسند الأريكة الأيمن لتريح جسدها، رفعت ساقها للأعلى لتمددها إلى جوارها ثم مدت ذراعها إلى ركبتها لتدلكها قليلًا فقد كانت تشكو من الخشونة التي أصابتها في الآونة الأخيرة، زفرت "حسنات" ببطءٍ وهي تعيد ترتيب أفكار رأسها المتزاحمة، كان شاغلها الأكبر هو مصير ابن "نوال" الذي انتقل أيضًا للعيش معها في منزلها الواسع، خاصةً مع اقتراب موعد صدور القرار الحاسم من لجنة الفتوى بدار الإفتاء بعد تحويل أوراق وضعه الصحي لها، استطاع عقلها البسيط أن يعي أن مشكلة "طاهر" لم تكن فريدة من نوعها، بل إنها تكررت مع أطفال مثله في أماكن متفرقة، وقـام الأطباء بتصحيح الوضع الجسماني وفقًا للتكوين الداخلي السائد للطفل، وفي حالة ذلك الصغير -وكما أقر المتخصصون- فإن بنية أجهزته التناسلية تشير بوضوحٍ لكونه أنثى، وبقائه على الوضع الحالي سيعرضه لمشكلات جمة خاصة في مرحلة البلوغ حينما تبزغ هرمونات الأنوثة ويظهر تأثيرها على الجسد، فقط حينها سيعاني من اضطراب جسيم في هويته الجنسية وفي أفعاله الإنسانية، عاملته كحفيدها الذي لم ترزق به وحرصت على توفير كل ما ينقصه، كما خصصت له سريرًا مناسبًا لعمره لينام عليه في نفس الغرفة مع والدته حتى تكون الأخيرة إلى جواره.

- هاه، نام يا ضنايا؟

تساءلت "حسنات" بتلك الكلمات المهتمة عن الصغير، جلست "نوال" على مقربة منها وفركت أصابع كفها معًا ثم قالت لها في ضيقٍ لم تخفه:

- الحمدلله، يا حبة عيني كل شوية يقوم مفزوع من النوم، خايف لأبوه يجي ويموته.

زمت خالتها شفتيها لتقول في استنكارٍ شديد:

- منه لله، ربنا لا يربحه دنيا ولا آخرة، هو سبب نكبته دي!

هزت رأسها بلا معنى وهي تضيف:

- الحمدلله على كل حال، أدينا مستنيين رأي اللجنة.

ردت عليها خالتها بتفاؤلٍ كبيرٍ:

- استبشري خير، والأستاذ "سلامة" متابع معاهم، ولو في جديد هيعرفنا.

شــردت للحظات تفكر في تبعات القرار النهائي للجنة الفتوى إن أصدر رأيه الشرعي بجواز إجراء العملية التصحيحية، تنهدت قائلة في حيرةٍ:

- بس أنا مش عارفة هتعامل مع "طاهر" إزاي لو عمل العملية وبقى بت؟ هاقول للناس إيه؟ و...

قاطعتها "حسنات" قائلةً بصوتٍ حاسمٍ:

- محدش ليه حاجة عندك، إنتي بتصلحي الغلط، وبعدين ليه نقدر البلاء قبل وقوعه؟

همست في رجاءٍ:

- كملها معانا بالستر يا رب.

ثم أخرجت تنهيدة مهمومة من صدرها قبل أن تستأنف حديثها الموجوع بشجنٍ بائنٍ في نبرتها:

- البنات وحشوني أوي يا خالتي، نفسي أشوفهم وأخدهم في حضني.

ردت عليها خالتها:

- مش "فايزة" بتطمنك عليهم؟

أجابتها بتذمرٍ:

- أيوه.. بس عاوزة أروحلهم.

- يا بنتي ماهي قالتلك إنه صعب دلوقتي، وأديكي بتعرفي أخبارهم منها.

- بس ده مش كفاية، هتجنن عليهم، عاوزة أشوفهم، وبعدين قلبي متوغوش عليهم، حاسة إن في حاجة بتحصل من ورا ضهري.

- بلاش ظن السوء، استبشري خير.

- لا يا خالتي، أنا مش مرتاحة، وقلقانة من جوايا وخصوصًا على البت "خديجة"، دي صغيرة ومحتاجاني جمبها!

نظرت لها في إشفاقٍ، كانت تشعر بما يختلج صدرها من ضيق وهم، اقتربت منها وربّتت على كتفها مواسية إياها:

- إن شاء الله هتتقابلي معاهم عن قريب، بردك إحنا مش عاوزينك تتقابلي مع "منصور"، ويتربصلك ولا يعملك فيكي حاجة.

ردت غير مبالية بالخطر المحدق بحياتها:

- مهما كان دول بناتي، دنيتي كلها.

- اصبري إنتي بس واحتسبي عند الله، هانت يا حبيبتي، وكله خير من عنده.

سكتت "نوال" ولم تعلق عليها، كانت نظراتها كفيلة بالتعبير عن حالها البائس، رأت العبرات تتخذ مكانها في حدقتيها، تألمت لمعاناتها المستمرة، حاولت خالتها إخراجها من حالة الحزن التي تمكنت منها فقالت لها:

-دلوقتي خلينا نطمن على "طاهر" الأول وبعدين هاخدك ونروح البلد، ما أنا بردك عاوزة أشوف أحفادي.

ثم تحولت نبرتها للتحدي وهي تكمل:

- ويبقى يوريني سبع البورمبة هيمنعنا إزاي؟!

كان حديثها مبعثًا على الراحة والأمل، ابتسمت لها "نوال" وكفكفت دمعاتها التي انسابت على وجنتيها، ثم انحنت تُقبّل جبينها وهي ترد:

- ربنا يباركلي فيكي يا خالتي.

مسحت "حسنات" بيدها المجعدة على بشرتها في حنوٍ وعطف، انتبهت لصوت الدقات الثابتة على باب المنزل فقالت في عُجالة وقد ارتابت ملامحها:

- قومي شوفي الباب، يا ترى مين جاي السعادي؟!

ردت عليها وهي تنهض من مكانها:

- حاضر.

عدلت "نوال" من ضبط حجاب رأسها ثم سـارت في اتجاه باب المنزل، أدارت المقبض وتطلعت إلى ذلك الشخص الخمسيني العمر الواقف على أعتاب الباب، كان جاد التعبيرات، وحاد النظرات، يرتدي جلبابًا من اللون الرمادي يعلوه قفطان من اللون الأسود، تنحنح الرجل

قائلًا بصوته الأجش وهو يمعن النظر في وجهها الغريب عنه:

- السلامو عليكم.

أخفضت نظراتها مرددةً في حرج:

- وعليكم السلام.

سألها الرجل في هدوءٍ بنفس الصوت الخشن:

- الحاجة "حسنات" موجودة؟

هزت رأسها بالإيجاب وهي ترد:

- أيوه، نقولها مين؟

رد بقسماته الجادة:

- الحاج "بكري".

تنحت للجانب معقبةً عليه:

- طيب، لحظة واحدة، هاقولها وارجع.

هز رأسه بالإيماء قائلًا لها:

- اتفضلي.

تركته "نوال" منتظرًا عند باب المنزل وعادت إلى خالتها لتبلغها بهوية الضيف الذي لم تلتقيه من قبل، فردت عليها الأخيرة بتلهف:

- خليه يدخل بسرعة.

اعتدلت "حسنات" في جلستها المسترخية، وأحكمت عقدة حجابها على جبينها، ثم شدت عباءتها الفضفاضة على جسدها لتغطي ساقها المكشوفة، كانت متوقعة لسبب قدومه بالرغم من تناسيها للأمر؛ إنه الموعد السنوي المعتاد لتسليمها نصيبها في أرباح تجارتها معه، فقد كانت شريكته في تجارة الأعلاف، رأته مقبلًا عليها فهبت واقفة لترحب به بود:

- يا أهلًا وسهلًا بيك يا حاج.

رد عليها وهو يجلس في مواجهتها:

- بنورك يا حاجة، إزي صحتك؟

أجابته رافعة نظراتها للسماء:

- الحمدلله في نعمة.

تبادل معها حديثًا معتادًا عن أحوالها إلى أن حضرت "نوال" ومعها صينية مرصوص بها ثلاثة أكواب؛ اثنان يحويان الشاي الساخن، وواحد به ماء بارد، انحنت واضعة إياها على الطاولة الرخامية وهي تقول بابتسامة صغيرة ناعمة:

- اتفضلوا الشاي.

رد "بكري" بهدوءٍ وكامل نظراته مركزة على حجابها الذي انفرطت عقدته وأظهر عنقها:

- متشكر.

نظرت "نوال" إلى خالتها قائلةً لها بنفس الوجه المبتسم:

- خدوا راحتكم يا خالتي، أنا هاخش جوا أقعد مع "طاهر".

ابتسمت "حسنات" لفطنتها وردت قائلة:

- ماشي يا عين خالتك.

أعادت "نوال" لف حجاب رأسها المتدلي حول عنقها، ثم انسحبت من الغرفة تاركةً إياهما يتحدثان في خصوصية، لم تشعر بالعينين اللاتين تراقبان تصرفاتها العفوية في حذر وكأنها أثارت بوجودها غير المقصود بذرة اهتمامه فتأهبت كامل حواسه وتنشطت خلايا ذهنه، انتظرها "بكري" حتى توارت بالداخل ثم أخفض صوته متسائلًا:

- مين دي يا حاجة؟

أجابته "حسنات" مسترسلة في تلقائية:

- بنت أختي "نوال"، جت تعيش معايا هنا وتونسني بعد ما جوزها الله ينتقم منه طلقها ورماها مع ابنها وخد منها بناتها.

انزعج من جملتها الأخيرة فتساءل بوجه عابس ونبرةٍ مهتمةٍ:

- يا ساتر، ليه كده؟

للحظة ندمت على تسرعها في البوح بأسرار ابنة أختها، ومع هذا أوجدت لنفسها المبرر لفعل ذلك؛ فهي تبحث لها عن الدعم الخارجي القوي ممن يملكون السلطة والمعرفة حتى يكونوا نعم السند لها إن أصابها مكروهٍ ما وفارقت الحياة، لاحظ "بكري" عبوسها واستشعر

عدم رغبتها في الحديث فبادر قائلًا:

- لو حاجة خصوصي مافيش داعي تقولي يا حاجة، أنا غرضي أساعد وربنا اللي شاهد عليا.

قالت له في حزنٍ:

- والله دي حالها يصعب على الكافر، وحكايتها حكاية!

- لو في إيدي حاجة أعملها قوليلي، وأنا وأعوذ بالله من كلمة أنا بعون الله أقدر أحلها.

ردت بامتنانٍ وقد تشجعت قليلًا لمؤازرته:

- يبقى كتر خيرك يا حاج "بكري".

قال لها دون تفكير مستخدمًا يده في الإشارة:

- إنتي بس تؤمري، وأنا من العين دي قبل العين دي!

اختلج صدرها شعورًا متعاظمًا بالارتياح، ابتسمت تجامله:

- ما يؤمرش عليك عدو يا رب.

في تلك الأثناء، كان الأستاذ "سلامة" قد تلقى رد لجنة الفتوى في مغلفٍ مغلق، تلهف لمعرفة الرأي الشرعي في تلك العملية الخطيرة، ومع هذا لم يتجرأ على فتح المظروف وهرع لتسليمه إلى الحاجة "حسنات" مؤجلًا كافة أعماله، طرق الباب وانتظر على أحر من الجمر فتحه له، بالطبع خرجت "نوال" من الغرفة لتعرف من الطارق، تفاجأت بوجوده فسألته بقلبٍ يدق في خوفٍ ممتزجٍ بالتوتر:

- أستاذ "سلامة"، خير؟ عرفت حاجة جديدة؟

رفع المغلف أمام أنظارها قائلًا في عجالة:

- لجنة الفتوى ردوا علينا.

شحب لون بشرتها في خوفٍ أكبر من رده الذي طالما انتظرته، ارتعشت يدها وهي تمتد لتتناوله منه، ســارت كالمغيبة نحو الداخل مستشعرة قوة خفقات قلبها بين ضلوعها، تحرك "سلامة" ليقف قبالتها متسائلًا في تهذيب:

- لو تحبي أفتحه وأقرالك اللي مكتوب فيه؟

لم تمتلك الشجاعة الكافية لفعل ذلك بمفردها، بدا اقتراحه كطوق النجاة بالنسبة لها؛ لذا

مدت يدها بالمغلف في اتجاهه دون أن تنبس بكلمة، أخذه منها وبدأ في فضه بهدوء وترقب، جاءت إليه "حسنات" وبصحبتها "بكري" لتتساءل الأولى في تلهف قلق:

- إيه الأخبار يا أستاذ "سلامة"؟

نظر لها قائلًا في غموض:

- دلوقتي هنعرف.

لم تستطع قدما "نوال" أن تحملاها فجلست على أقرب مقعد تضم يديها المرتعشتين إلى صدرها، زاغت نظراتها وتقلصت معدتها من شدة ترقبها المرتعد، أطرقت رأسها وانتظرت ما سيمليه على مسامعها، ساد الصمت بين الواقفين إلا من بعض الهمهمات السريعة وغير المفهومة كتعبير عن قراءة "سلامة" لمحتوى المغلف بصوتٍ خافتٍ للغاية، كاد قلبها أن ينخلع من مكانها حينما صاح مهللًا:

- الله أكبر، اللجنة وافقت بالإجماع يا ست "نوال".

كتمت شهقتها الفرحة بيدها ونظرت لخالتها بعينين دامعتين غير مصدقة ما قيل للتو، في حين أطلقت "حسنات" زغرودة عالية بعد أن هللت وكبرت، أضاف "سلامة" موضحًا بلغة بسيطة ليستوعبوا الأمر:

- الحمدلله رب العالمين، هما كاتبين مافيش مانع من إجراء العملية طالما فيها ضرورة طبية، ومافيش فيها أي تغيير لخلقة الله أو تحويل بما يخالف الشرع.

ردت عليه "حسنات" بحماسٍ:

- يبقى نتوكل على الله ونعملها في أقرب وقت.

اقترح "بكري" مستئذنًا:

- لو مافيهاش تطفل مني يا حاجة، أنا مستعد أشوف أجدع مستشفى في البلد ونعمل فيها العملية.

التفتت نحوه لتقول:

- والله ما عارفة أقولك إيه.

قال لها:

- الدنيا لسه بخير يا حاجة، والرجالة موجودين في كل مكان.

ردد كلماته الأخيرة ونظراته مسلطة على "نوال" التي كانت تبكي بسعادة، أحس "بكري" نحوها بشعورٍ غريب يجذبه إليها، شعور افتقده منذ عشرات السنوات هي أوقظته فيه منذ الوهلة الأولى التي أطلت فيها عليه.

*****

الفصل السابع

ابتسمت لها الحياة من جديد وعادت السعادة لتدق أبوابها بعد أن نجحت عملية التصحيح لصغيرها "طاهر" وتحول إلى الطفلة "مريم"، نعم أطلقت عليها ذلك الاسم بعد تعديل هويتها، لم تتخيل "نوال" كم المساعدات التي تلقتها من الغرباء للوقوف بجوارها في أزمتها الكبيرة، حتى أنهم فرحوا لسعادتها، وشاركوها إياها، بل واحتفلوا معها بميلاد الصغيرة "مريم" وكأنها ابنتهم أيضًا مما عوضها قليلًا عن افتقادها للأجواء الدافئة التي كانت تعيشها في كنف أسرتها، كذلك تولى "بكري" مهمة استخراج الأوراق الرسمية للصغيرة بمساعدة محاميه المخضرم ليصبح كل شيء قانونيًا وعلى أكمل وجه، تبقى فقط التأهيل النفسي للصغيرة بعد تماثلها للشفاء؛ ولذلك اقترح عليها مدير المشفى الذي تولى رئاسة طاقم الفريق الجراحي اسمًا بعينه لتتابع معه في صورة جلسات أسبوعية حتى تتقبل الطفلة ما حدث لها وتنشأ بشكل سوي وصحي فلا يؤثر عليها مستقبلًا أو تصاب بما يعرف باسم اضطراب الهوية الجنسية، وهذا ما حرصت عليه "نوال" وواظبت على حضور الجلسات في مواعيدها المحددة.

كانت فرحتها على وشك التناقص بسبب زيارة شقيقتها "فايزة" والتي أتت محملة بالأخبار غير المحمودة، لم ترغب الأخيرة في إحزانها، لكن لن يظل الأمر مخفيًا عنها، لهذا قررت أن تزورها عند خالتها وتخبرها بنفسها قبل أن يسبقها الغريب ويطلعها على الأمر؛ تأملت "فايزة" الصغيرة بنظرات شبه ممتعضة عكست نفورًا صريحًا منها، وأظهرت رغبتها في عدم تقبيلها كما اعتادت أن تفعل، جابت بعينيها على الثوب الوردي الذي ارتدته وتأملته باشمئزاز، استفزها تلك الأنشوطة المصنوعة من خيط التريكو -والتي تحمل نفس اللون- الموضوعة على رأسها، بالطبع لم ينمو شعرها القصير أو يستطيل، بقي كما هو ليثير ضيقها، راقبت "نوال" ردة فعلها من بقعة لا تستطيع رؤيتها منها، انزعجت من التعبيرات المنفرة المقروءة على وجهها، تفهمت سبب عزوفها عنها، هي لم تتقبل فكرة التغيير ببساطة، استجمعت جأشها ومسحت تلك الدمعات المتسللة عند طرفيها، رسمت ابتسامة زائفة على مُحياها وهي تعود إليها مرحبة بها بلطف:

- نورتينا يا "فايزة".

أرادت "نوال" أن تغرس في نفس أختها أنها تحب طفلها في كافة أحواله، وتتقبله بكامل عيوبه؛ لذا حملت الصغيرة "مريم" وأجلستها على حجرها، انهالت عليها بالقبلات ثم قالت في بهجة:

- شوفتي بنوتي الحلوة بقت طِعمة إزاي وعسل؟

علقت عليها قائلة باقتضابٍ عابس:

- آه.. شوفت!

كظمت "نوال" انزعاجها من طريقتها السمجة أمام صغيرتها التي تحتاج الكثير من المجهود والدعم المعنوي والنفسي لتعتاد على التغيير الجذري الذي طرأ على جسدها، تغاضت عن الأمر وأضافت متسائلة:

- أخبارك إيه؟ وجوزك عامل معاكي إيه؟

أجابتها على مضضٍ:

- الحمدلله .. في نعمة!

أطلت "حسنات" من باب الغرفة حاملة في يدها كيسًا من الحلوى، نادت على الطفلة وهي تلوح به في الهواء:

- تعالي يا "مربومة"! شوفي يا عين ستك جبتلك إيه من البقال؟

نهضت الطفلة من حجر والدتها وركضت نحوها لتختطف الكيس وتتفقد ما به بسعادةٍ غامرة، انحنت عليها "حسنات" لتضمها بذراعيها إلى صدرها، ثم طبعت قبلة عميقة على وجنتها قائلة لها:

- خشي كليه جوا، بس متبهدليش هدومك الحلوة دي.

أومـأت "مريم" برأسها دون أن تنطق وانطلقت بعدها نحو الخارج، تساءلت "حسنات" بوجهٍ جاد في تعابيره وهي تلقي بثقل جسدها على الأريكة:

- خير يا "فايزة"؟ جاية عندنا ليه النهاردة؟ أديلنا زمن ماسمعناش منك حاجة.

تنهدت مجيبة إياها بنفس التعبيرات الجامدة:

- غصب عني يا خالتي، "طلعت" جوزي مضيق عليا في الراحة والجاية.

ردت "نوال" مدافعة عنها:

- تلاقيها جاية تقولي أخبار بناتي، ما أنا غصب عني اتلهيت عنهم الفترة اللي فاتت.

لم تقتنع خالتهما بذلك فاستمرت في عتابها الحاد:

- وهي أختك راحة عند حد غريب؟ ده أنا خالتك يا "فايزة"، يعني في مقام أمك، عاوزة تستني لما أموت وتيجي تشوفيني؟

اعتذرت منها بوجهٍ مقلوب:

- حقك عليا.

غمغمت خالتها بسَخَط وهي تشيح بوجهها بعيدًا عنها:

- لا حق ولا مستحق، آل يعني بيفرق معاكي زعلي!

تدخلت "نوال" في الحوار بينهما قبل أن يشتد لتقول بجدية:

- مالوش لازمة العتاب دلوقتي، قوليلي يا "فايزة" البنات عاملين إيه؟

حدَّقت فيها شقيقتها بنظرات غامضة جعلت الشكوك تراودها، ثم أردفت قائلة بنبرة جافة ودون أي مقدمات تمهيدية:

- بصي ياختي، من غير لف ولا دوران، "منصور" اتجوز تاني وسافر وخد البنات معاه!

صدمات فتاكة تفوهت بها دفعة واحدة غير عابئة بتأثيراتها القوية على أختها المضطهدة، تجمدت "نوال" في مكانها وحملقت في أختها بصدمة مذهولة، انعقد لسانها واضطرب تفكيرها، رددت في عدم تصديق:

- اتجوز.. البنات.. طب وأنا و... "مريم"؟

تساءلت "حسنات" مستفهمة بنبرة غاضبة وقد قست ملامحها:

- الراجل الناقص! وإنتي كنتي فين يا "فايزة"؟ جاية تقوليلنا ده كله بعد ما خربت مالطة؟!!!

ردت عليها بنزق:

- وأنا كنت هاعمل إيه يعني؟ ما هي "نوال" السبب ...

صاحت بها خالتها بانفعالٍ غير مسبوق ملوحة بيدها في عصبية:

- السبب في إيه إن شاءالله؟ هي اللي قالتله طلقني وارميني في الشارع عشان مجبتلكش الواد اللي نفسك فيه؟ هي اللي افترت عليه وأنكرت ابنه عشان مطلعش زي ما هو عايز؟ هي اللي حرمته من بناته؟ ما تقفي عوج وتكلمي عدل!!!!!

ضغطت على شفتيها قائلة:

- أنا مقصدش بس....

ضربت "حسنات" كفيها معًا مقاطعة إياها لتواصل تعنيفها بغلظة:

- يا ريتك ما جيتي زورتينا ولا دخلتي علينا بالأخبار السودة دي!

انتفضت واقفة من مكانها لتنظر لها في غيظ قبل أن تردد باستياء:

- الله بقى يا خالتي!

ردت عليها الأخيرة بنفس اللهجة المتعصبة:

- الله ياخدك يا شيخة!

استشاطت "فايزة" غضبًا من إلقاء اللوم عليها وتوبيخها بذلك الشكل السافر فصاحت بتهورٍ مشعلة الأجواء أكثر:

- طب بدل ما تحمليني ذنبها، كان الأولى تيجي تشوف بناتها بنفسها! هي اللي مصدقت تبعد وترمي الحمل على غيرها، صح ولا أنا كلامي غلط؟

ضجرت خالتها من تجاوزها غير المقبول فهبت واقفة لتهاجمها بلا هوادة:

- هو كان بمزاجها يا إدلعدي؟ ماتفوقي لنفسك وتشوفي السم اللي طالع من بؤك.

جرفتها مشاعر السُخط فقالت:

- يعني عاوزة تشيليني بلوتها وأنا ماليش دعوة أصلًا؟

ردت عليها خالتها في غضبٍ:

- تصدقي يا بت، إنتي متفرقيش حاجة عن "منصور"، زيك زيه في قسوته وظلمه.

احتدم الجدال بينهما وتعالت الأصوات وشُحنت الأجواء بعشرات الاتهامات، وضعت "نوال" يديها على أذنيها لتسدهما، لم يكن بها الرغبة لسماع كل ذلك إلى أن خرجت عن سكونها المضطر لتنفجر صارخة في الاثنتين:

- كفاية بقى، مش عاوزة أسمع حاجة، حرام عليكم، أنا تعبت من كل حاجة!

توقفت كلتاهما عن المشاحنة لتنظرا في اتجاهها، في حين تابعت "نوال" صراخها المتشنج لتبوح بما يعتصر فؤادها:

- أنا قلبي بيتقطع على بناتي، كل يوم بأنام ودمعتي على خدي عشانهم، محدش حاسس

بالنار اللي جوايا، أنا بأموت وهما بُعاد عني.

انهارت باكية أكثر وامتزج نحيبها مع أنينها وهي تكمل:

- وكل ده عشان خاطر حاجة مالناش ذنب فيها؟ ليه الكل بيعتبرني أنا وحدي بس المجرمة؟ أنا بس اللي غلطت مع إني معملتش حاجة، ولا "مريم" عملت حاجة! حد يقولنا ذنبنا إيه؟

شعرت "حسنات" بوخزة عنيفة تطعن قلبها تأثرًا بمعاناة ابنة أختها، خاصة أنها تقف متكتفة الأيدي عاجزة عن التصرف، نفخت "فايزة" بانزعاج لتضيف بعدها:

- منه لله "عوني"، لو كان قالك على اللي فيها كان إداكي حرية الاختيار، مكوناش وصلنا للوضع ده.

ردت عليها خالتها بحدة:

- "عوني" عمل اللي شافه صح، ربنا يسامحه بقى.

التفتت نحوها "نوال" لتعلق عليها تلك المرة بصوتٍ مليء بالألم:

- حتى لو كان قال يا خالتي، كان "منصور" برضوه هيطلقني، عارفة ليه؟

حملقت فيها خالتها بنظرات مقهورة عليها، بينما أجابت "نوال" على سؤالها مستفيضة بمرارة المظلوم:

- لأنه عايز الواد، كل حلمه في الواد وبس، مش فارق معاه حاجة غيره، ليه ياخد بناتي معاه ويحرمني منهم؟ ده عمره ما حبهم، عمره ما قالهم كلمة حلوة يبل بيها ريقهم! بيعذبني ليه في بعدهم ويحرق قلبي عليهم؟

مع كل كلمة تفوهت بها ارتفع نحيبها، احتضنتها خالتها لتهدئ من حالة الانفعال المسيطرة عليها، قبلت رأسها ورجتها بقلبٍ منفطر:

- متعمليش في نفسك كده يا بنتي، ربنا هيجبر بخاطرك وينصرك، سلمي أمرك ليه!

أجهشت "نوال" بالبكاء أكثر في أحضان خالتها التي حاولت احتوائها والتخفيف من قسوة ما تعانيه، بينما قامت "فايزة" بتعليق حقيبتها على كتفها لتقول بجمود:

- يدوب ألحق أركب المواصلات وأرجع، فوتكم بعافية.

لم تنتظر الرد واكتفت بتوديعهما بكلمات مبتورة تاركة شقيقتها غارقة في بحور تعاستها.

*****

ليالٍ متعاقبة قضتها "نوال" حزينة على فراق الأحبة دون وداعٍ لوقتٍ يعلمه الله وحده، بللت وسادتها بعبراتها الحارقة واختنقت أنفاسها في صدرها الملتاع لتشعر أن روحها تنتزع من جسدها في عذابٍ متواصل، وتحول الطعام إلى علقم يحرق جوفها كلما تناولته مجبرة، تناقص وزنها بشكلٍ ملحوظ، وذبل وجهها أكثر، حتى أنها أصبحت قليلة الكلام، شبه منعزلة، تتعامل مع صغيرتها التي تحتاجها بذهنٍ شارد، لا تلقي بالًا لما يخصها خاصة بعد أن صارت قضيتها مطروحة في الجرائد كسبق علمي مميز، نوعًا ما أهملت "نوال" ابنتها، وتأخرت عن حضور ما تبقى من جلسات تأهيلها النفسي لتلقي بكامل حملها على خالتها، انخرطت من جديد في إحباطها الكئيب، سعت خالتها لإخراجها من القوقعة التي انعزلت فيها عنها بشتى الطرق، لكنها فشلت، كان الطوفان أقوى منها تلك المرة، انحنت هامتها، واختفت الفرحة من منزلها بعد أن تذوقت لذته الشهية، كانت "حسنات" مهمومة وهي جالسة مع "بكري" الذي أتى لزيارتها على غير المعتاد، عَلِم منها تفاصيل مأساة ابنة أختها فانزعج كثيرًا وهاجت دمائه في عروقه النابضة، حتى أنه صاح مهددًا:

- اقسم بالله لو الجدع ده قصادي لكنت جبته راكع تحت رجلين الست "نوال" يستسمحها، وبعد كده سيحت دمه.

قالت له وهي تمسح دمعاتها المتجمعة عند طرفيها:

- تسلم يا حاج، أهوو ربنا وحده اللي قادر يجيبلها حقها منه.

ثم التزمت الصمت وحملقت في الفراغ، تأملها "بكري" في ترددٍ حائر، كان يريد مفاتحتها أولًا في موضوعه المهم الذي اضطر لتأجيله لأكثر من مرة ريثما تهدأ الأوضـاع، لكنه يئس من الانتظار والترقب، نفدت آخر ذرات صبره؛ لذا حسم أمره بطرحه فاستطرد قائلًا بصراحةٍ صادمة:

- أنا عاوز أتجوز الست "نوال"!

لمعت عينا "حسنات" بانتباه مفاجئ من عرضه غير المتوقع أبدًا، سألته لتتأكد مما سمعته:

- تـ.. تتجوزها؟

هز رأسه بإيماءة مؤكدة وأكمل معللًا:

- أيوه، عايز أتجوزها، أنا شايف فيها الزوجة المناسبة ليا، يمكن قبل كده مكونتش حاطط

الموضوع في دماغي، وبأقول لنفسي أديني عايش والسلام، بس دلوقتي لأ.

أشارت بيدها معقبة على كلامه الجاد:

- مش عارفة أقولك إيه؟ أصل لا ده وقته ولا الظروف تسمح و...

قاطعها مبرزًا بنبرة عقلانية:

- يا حاجة "حسنات" الراجل مايعبوش إلا جيبه، وأنا الحمدلله ربنا فاتحها عليا من وسع، وكله على يدك.

- ربنا يزيدك من فضله.

أضــاف موضحًا أسبابه للزواج منها بحكم تجربته العريضة في الحياة والتي تجعله يدرك بواطن الأمور بنظرة واحدة خبيرة:

- وبعدين مخبيش عليكي، اللي زي الست "نوال" دي يتاقل بالدهب، واحدة أصيلة، متشيلكش هم أي حاجة، تصون عرضك في غيابك، وتحفظ شرفك وتحافظ على سرك.

قالت في تهكمٍ وبكلماتٍ شبه موحية:

- فين اللي يقدر؟

انزعج من تعبيرها الذي خانها وانعكس ذلك على قسماته، انتفخت أوداجه معاتبًا:

- أنا موجود وباقدر يا حاجة، ولا شيفاني مش أد المقام؟

قالت مُلطفة على الفور بعد أن تداركت خطأها:

- لا يا حاج "بكري"، أنا مقصدش والله، دي زلة لسان.

تخطى تلك النقطة ليتابع حديثه الجدي واضعًا النقاط فوق الحروف:

- المهم خدي رأيها، وأنا مستني، وعشان تطمن أكتر، بنتها "مريم" في عينيا، هاتبقى زي بنتي وأكتر، وبكره الأيام تثبت ده!

ردت عليه بحيادية:

- اللي فيه الخير يقدمه ربنا.

استأذن بعدها بالانصراف ليتركها في حيرة أكبر، كانت تعلم أن الحاج "بكري" لا يمزح في مثل تلك الأمور، أو حتى يتحين الفرص لاستغلالها، هو رجل عملي أبدى رغبته بوضوحٍ تام

في الزواج من ابنة أختها رغم صعوبة ظروفها التي يعرفها بالكامل، لن تنكر أن "نوال" إن أولت الاهتمام لنفسها لظهر حُسنها الفطري وجاذبيتها كامرأة ناضجة الأنوثة، بالطبع هي ليست بالنزوة العابرة في حياته ليتسلى به قليلًا ثم يتخلى عنها بعد أن يشبع شهوته منها، إنه أعقل من ذلك بكثير، هو يبحث عن الاستقرار الأسري، والأخيرة تبحث عن الأمان والسند، كلاهما يلائم الآخر بشكل ما، تفاجأت "حسنات" بطريقة تفكيرها وحماسها العجيب لتلك الزيجة، رددت لنفسها بابتسامة متفائلة:

- سبحان الله، ربنا ليه حكمته في كل حاجة بتحصلنا!

*****

كانت الخطوة المستعصية عليها هي كيفية إقناع "نوال" بالقبول بعرض الزواج المناسب لوضعها الحالي، كان عليها أن تسلك نهجًا جديدًا لتضمن نجاحها في مسعاها؛ فكرت في التمهيد له قبل أن تدخل فيه مباشرة، أعدت طعام الإفطار بأصناف بسيطة وشهية، ووضعتها في صينية واسعة ثم ذهبت به إلى غرفتها، وقفت عند أعتابها تستأذن:

- ينفع أدخل يا "نوال"؟

أنزلت الأخيرة ساقيها من على الفراش وهرعت إليها لتتناولها منها وهي تقول:

- بقى ده اسمه كلام يا خالتي، تاعبة نفسك وكمان بتستأذني في بيتك؟ ده إحنا ضيوف عندك.

ردت بامتنانٍ وهي تُربِّت على كتفها:

- ربنا يباركلي فيكي يا بنتي، ده طلتك عليا كل يوم إنتي و"مريم" تسوى كنوز الدنيا.

- ربنا يحفظك لينا يا خالتي.

قالتها "نوال" وهي تفترش الأرضية بجسدها بعد أن أسندت الصينية على (الطَبلية) الصغيرة، التفتت لتنادي صغيرتها:

- تعالي يا "مريم" عشان تفطري.

استجابت ابنتها لأمرها على الفور فقد اشتاقت للجلوس في حجرها والاستلقاء على صدرها الحنون لسماع دقات قلبها، جلست القرفصاء إلى جوارها تدس اللقيمات الصغيرة في جوفها، رفعت عينيها لتتطلع إليها في براءة وتلهف، رأت الحزن يغطي خلجاتها، كما انطفأت تلك النظرة المتألقة في عينيها ليحل الذبول مكانها، أخفضت "مريم" رأسها لتحدق

في طعامها، شعرت بغصة مريرة في حلقها وهي تبتلع اللقيمات بصعوبة، تملكها إحساسًا قويًا بالذنب وتأنيب الضمير، فهي مَن أفسدت حياة والدتها بمصائبها الجمة، وسيطر على تفكيرها المحدود هاجسًا خاطئًا بأنها لو لم تولد من الأساس لما عانى الجميع بسبب وجودها، انتبهت لصوت النهنهات الخافتة فنظرت مجددًا إلى والدتها، وجدتها تبكي فتألمت أكثر وترقرقت العبرات في عينيها تأثرًا بها، أردفت "حسنات" تنهر ابنة أختها:

- اللي زي ده مايتبكيش عليه يا "نوال".

كانت الرؤية ضبابية بسبب دموعها الكثيفة، أغمضت جفنيها وردت عليها في حسرة:

- ضيعت عمري وشبابي على واحد زيه مصانش العشرة ولا قدرها.

واستها خالتها قائلة:

- ماتقهريش نفسك يا حبيبتي.

غمغمت في تهكم وألم:

- لأ ورايح يتجوز تاني، خلاص نسى كل حاجة عملتها عشانه!!!

ردت عليها بضيق:

- إنسيه يا "نوال" وبصي لنفسك وحياتك اللي جاية.

اختنق صوتها بدرجة كبيرة وهي تكمل بنفس الشجن:

- كان ناقص أبوس مداسه عشان يرضى عني.

أحست بمدى المرارة والقهر في حديثها، خرجت تنهيدة مشحونة بالحنق والبغض من وضاعة طليقها، حاولت "حسنات" أيضًا أن تلفت أنظارها للجانب المشرق من حياتها فقالت لها:

- احمدي ربنا إنك عرفتي تعالجي بنتك من غير ما تتحوجيله، ربنا سخرلك عباده والحمدلله اتقضت على خير وبقت زي الفل.

نظرت لها بعينين منكسرتين تسألها في ضعف وحسرة:

- وبناتي التانيين؟ أنساهم كده؟

نكست رأسها في عجزٍ، فالأمومة لا يمكن أن تتجزأ بأي حالٍ، وهي سلبت أهم غرائزها الفطرية، عادت دمعاتها لتنساب بغزارة وهي تكمل:

- محدش حاسس بالنار اللي بتاكل فيا.

ردت عليها خالتها:

- خلاص إهدي يا بنتي وكملي أكلك.

فقدت "نوال" شهيتها، ونفضت يديها من الفتات العالق بأصابعها ثم استندت على راحة كفها لتنهض من جلستها وهي تقول بكلماتٍ مقتضبة:

- أنا شبعت، هاقوم أعملنا شاي.

أدركت "حسنات" أن الوقت غير مناسب بالمرة للتطرق لذلك الموضوع الحساس؛ لذا أرجأت الحديث عنه حتى إشعارٍ آخر، تطلعت إلى "مريم" فوجدتها تعبث بطعامها دون أن تمسه، أشفقت عليها بشدة؛ فالصغيرة ما زالت في حالة تخبط وحيرة، ووالدتها ملتهية عنها بصراعها مع طليقها، زمت شفتيها لتقول بحسرة:

- كبدي عليكي يا بنتي! لا طايلة عنب الشام، ولا بلح اليمن!

*****

الفصل الثامن

وقفت تجفف ثمار الليمون المبتلة بقطعة القماش القديمة لترصه بعد ذلك في القرطاس الذي صنعته من ورق الجرائد القديم حتى تحفظه لاحقًا في درج الثلاجة فيبقى طازجًا حينما تستخدمه فيما بعد، ركزت حواسها مع ما تفعله فيما عدا سمعها، أصغت لإلحاح خالتها التي تجاهد لإقناعها بالقبول بعرض الحاج "بكري" للزواج منها مشيرة إلى شهامته وطباعه المحمودة التي لا غبار عليها، قطعت عليها "نوال" إصرارها بردٍ حاسمٍ:

- قوليله لأ يا خالتي، أنا مش هاتجوز.

عاتبتها متسائلة:

- وتضيعي اللي باقي من شبابك هدر؟

أجابتها بتنهيدة بائسة:

- هو عاد في حاجة يتبكي عليها؟! ما هو كله راح! خليني في همي.

اعترضت على النبرة المحبطة التي تتحدث بها لتقول:

- والله العظيم الراجل شاريكي ومقدرك، وبعدين يا "نوال" صوابعك مش زي بعض.

تركت ما في يدها لتستدير نحوها، نظرت في عينيها متسائلة بصوتٍ يحمل مرارة الذل وعذاب الإهانة:

- وأرمي نفسي في الغُلب تاني؟ وأبص ألاقيه لو عملت حاجة ضايقته يعايرني ببنتي ولا يفكرني باللي حصلي؟ إنتي ناسية الجرايد كتبوا إيه عن عمليتها؟

تساءلت خالتها بنظراتٍ جادة:

- هو حد اتعرضلك لا سمح الله من أهل الحتة؟ ما الكل مقدر وفاهم وضع "مريم"، وبالعكس إنتي شوفتي منهم كل خير!

علقت في تهكمٍ ساخط:

- أيوه، ما عدا أبوها وأهلي والناس اللي يعرفونا يا خالتي، إحنا بالنسبالهم عملنا جريمة، وكملت باللي اتكتب في الجرايد، يعني أي حد لو شاف بنتي هايعيرها باللي حصلها، والله أعلم إن كان مستخبيلنا حاجة تانية ولا لأ!

- دي حكمة ربنا.

شعرت بخجلٍ مُرجارح وكأن سكينًا يغرز في صدرها بقسوةٍ وهي تكمل:

- هما مايبفهموش كده، إحنا خلاص اتفضحنا واللي كان كان، ومالناش عين نبص فيها في وش حد!!

ردت قائلةً في يأس:

- ده مقدر ومكتوب، بس حياتك مش هاتقف عند كده.

أشاحت بوجهها بعيدًا لتقول بتنهيدة مطولة مهمومة:

- الله الغني يا خالتي عن الجواز كله، بلاها "بكري" أو غيره.

دافعت "حسنات" عنه بشدة فقالت:

- الحاج "بكري" غير "منصور" خالص، ده سيد الرجالة وأبو المجدعة كلها، وإنتي جربتيه بنفسك و...

وقبل أن تستكمل استرسالها في سـرد محاسنه انتفضت كلتاهما في فزعٍ حينما سمعا صوت الطرقات العنيفة على باب المنزل حتى ظنا أنها ستخلعه، هرولت "نوال" هاتفة بصوتٍ مرتفع:

- أيوه يا اللي بتخبط، بالراحة شوية، هي الدنيا هتطير؟

وما إن فتحت الباب حتى وجدت "بكري" عند أعتابه، انعقد حاجباها وهي ترمقه بنظرة تحمل الانزعاج، وقبل أن تتحرك شفتاها لتسأله عن سبب طرقه بذلك الشكل الأرعن، اندفع نحو الداخل ليجبرها على التنحي جانبًا صارخًا فيها بتوترٍ مرتعدٍ:

- إنتو نايمين على ودانكم ومش دارين باللي بيحصل برا؟

رفعت يداها لتلوح بها وهي تسأله:

- حصل إيه؟

تجاهلها مرغمًا حيث زاغت أنظاره في أرجاء المكان وكأنه يبحث عن شيء بعينه، ودون استئذان اتجه نحو الغرف الموجودة بالطرقة الطويلة ليقتحم غرفة النوم الخاصة بـ "نوال" وابنتها، كان يعرف المنزل جيدًا بحكم زيارته المتعددة للحاجة "حسنات"، وأيضًا لتشابه تصميم البنايات الهندسي وتقسيم المساحات الداخلية للشقق السكنية، كانت الصغيرة جالسة على حافة الشرفة تتدلى ساقيها في الهواء وعلى وشك السقوط منها إن أمالت رأسها للأمام قليلًا، وأهلها في غفلة عنها، بحذرٍ تامٍ وقف "بكري" خلف "مريم" يلتقط أنفاسه المضطربة،

ألقى بقفطانه عن كتفيه لتصبح حركته غير مقيدة، دنا منها وهو يسحب أنفاسًا عميقة ليكون هادئًا في تعامله مع الموقف الخطير، فمنذ أن لمحها مصادفةً على تلك الوضعية وهو يجوب ببصره بين واجهات البنايات أثناء تدخينه نارجيلته حتى هوى قلبه بين قدميه جزعًا عليها وكأنها ابنته من صلبه، لم يشعر بنفسه إلا وهو يندفع نحو مدخل البناية ليهب لإنقاذها قبل أن يحدث الأسوأ، وحمدًا لله وصل في الوقت المناسب، التفت "بكري" برأسه للجانب ليجد أمها على وشك الصراخ، حذرها بنظرة صارمة صامتة منه وهو يرفع سبابته في وجهها، كتمت شهقاتها في اللحظة الأخيرة مستجيبة لأمره غير المنطوق، وارتسمت أمارات الهلع على قسماتها وفي نظراتها إليه، حاوطتها خالتها من جسدها لتمنعها من الاقتراب هامسةً لها بقلبٍ مرتجف:

- بالله عليكي ما تصوتي.

تمتمت بأحرفٍ متقطعة وصدرها ينهج بصورة قوية:

- "مريـم" هتموت.. يا خالتي.

- استر يا رب، نجيها يا حي يا قيوم!

بلغ "بكري" مسافة آمنة تمكنه من الوصـول إلى الطفلة دون أن يثير خوفها فتفقد اتزانها وتسقط عن الشرفة، داعبها بلطفٍ مبالغ فيه:

- "مريومة" الجميلة بتبص على إيه؟

استدارت الصغيرة نحوه وعلى وجهها تكشيرة حزينة للغاية، لم تستطع أن ترى والدتها المرعوبة خلفه بسبب جسده الضخم الذي حجب الرؤية عنها، تابع "بكري" سؤاله:

- عارفة أنا جبتلك إيه؟

أجابته بعبوس:

- مش عايزة حاجة!

- ليه بس؟

سألته بعينين تلمع فيهما دمعاتٍ رقيقة:

- هو أنا وحشة؟

ازدرد ريقه وهو يدنو خطوة للأمام معترضًا عليها بلطف:

- ليه بتقولي كده؟ ده أمك جوا بتعملك أحلى أكل، ولسه قايلالي إنها هتجبلك فستان حلو ولعبة جديدة.

ردت بصوتٍ عميق يعكس شجنًا موجعًا:

- أنا مزعلاها، وهي معدتش بتحبني، وإخواتي سابوني، وأبويا بيكرهني.

آلمه تلقائيتها البريئة فابتلع غصة كالعلقم في حلقه ليقول لها:

- إنتي غلطانة، كلهم بيحبوكي أوي وعاوزين يشوفوكي أحلى واحدة في الدنيا كلها.

هزت رأسها محتجة:

- لأ، محدش عاوزني؟

ابتسم لها بسمة حنون وهو يقول له بنبرة نابعة من قلبٍ صادقٍ في مشاعره:

- بس أنا بأحبك، ده إنتي بنتي.

عبست بوجهها هاتفة:

- إنت بتكدب عليا؟

عاتبها بلطفٍ ودود:

- لا والله، أبوكي الحاج "بكري" مابيكدبش أبدًا.

استطاع أن يصل إليها، ولم يفزعها بسحبها فجأة من على الحافة فيحدث جلبة من صراخها وربما يتطور الأمر لفضيحة تتناقلها الألسن ويعرض العائلة للقيل والقال من محبي نشر الشائعات، بابتسامة أبوية حنونة ووجهٍ ضاحك لف ذراعه حول جسدها الضئيل ليحاوطها فتبقى في مأمن من الخطر، أوشكت "نوال" على فقدان وعيها من بشاعة الأفكار التي راودت عقلها في تلك الثواني الحرجة، انقبض قلبها بقوة مع سماعها لمعاناة صغيرتها، شعرت بالذنب ناحيتها، بتقصيرها في حقها، بإهمالها لها وتعريضها للخطر، ارتخت أعصابها وانسابت دمعاتها عفويًا وهي تراه يعاملها بأبوية فياضة كأنها ابنته من لحمه ودمه، مشهدًا تمنت أن تراه مع "منصور"، ذلك الشخص الأناني البغيض القاسي الذي حرم أحبته من أبسط حقوقهم ونبذهم بعيدًا عن حياته، كتمت أنينها النادم عندما رانت ضحكة طفولية بريئة في الأجواء لتبدد غيمة الخوف السائدة، همست "حسنات" ترجو ابنة أختها بتوسلٍ شديد:

- خصيمك النبي ما تعملي حاجة للبت، الحمدلله جت سليمة، وأهوو "بكري" معاها هيدخلها، ماشي يا ضنايا؟

هزت رأسها بالموافقة وقد كان كل ما في عينيها خوف وجزع، لم تكن تملك من القدرة الذهنية أو البدنية ما يخولها لمعاقبتها، فهي المخطئة الأولى والأخيرة في تلك المحنة المفاجئة، ناهيك عن عدم رغبتها في إفســاد تلك اللحظة الصافية بين ابنتها ومن يتطلع ليكون زوجها، كركرت "مريم" ضاحكة بضحكة أسرت قلبها وسلبت لبها وأعادت إليها شغفها الأمومي نحوها، كفكفت "نوال" عبراتها بأناملها وتراجعت منسحبة للخلف وعقلها قد عاود التفكير بجدية في عرض الزواج.

*****

رغم تحفظها الشديد إلا أنه أصر على إقامة حفلٍ كبير يليق به في المنطقة الشعبية ليعلن للجميع أنه تزوج منها، أرادها أن تعيد رفع هامتها بشموخٍ، أن تفرد ظهرها الذي أحنته المصائب، أن تستعيد كرامتها الأنثوية، أن تفتخر بما فعلته من أجل تصحيح أوضــاع ابنتها وإنقاذها من معاناة كانت لتستنزف طفولتها وصباها وكامل حياتها. جلست "نوال" على مقعد العروس تتطلع إلى المحدقين بها بنظراتٍ خجولة متوترة، لم تتوقع ذلك الحضور الكبير في ليلة عرسها الثانية، أتى العشرات لتهنئة الحاج "بكري" ذي الصيت الواسع، وأيضًا خالتها "حسنات" ذات السمعة الطيبة، بدت مظاهر الحب والسعادة واضحة في نظرات المدعوين، كان شيئًا يدعو للتفاخر والاعتزاز إصرار "بكري" على إبقاء الصغيرة جالسة على حجره منذ بدء الحفل وحتى قبله لتقديمها لضيوفه. فقد أعلن بذلك عن قبوله لمنحها دون ندمٍ أبوته التي حُرمت منها قسرًا بسبب ذنبٍ لم تقترفه، تأملت "نوال" طفلتها بعينين تلمعان بعبراتٍ رقيقة، كانت ترتدي مثلها ثوبًا من اللون الأبيض يزين خصلات شعرها التي بدأت تستطيل قليلًا طوقًا رفيعًا، أحست بخفقة قوية في قلبها وزوجها الجديد يقول مبتسمًا:

- "مريم" من النهاردة بنتي، أنا أبوها وإنتي تاج راسي، ربنا يقدرني وأسعدكم إنتو الاتنين.

ضغطت على شفتيها لتمنع تأويهة عاطفية متأثرة من الخروج من بين شفتيها، فشتّان الفرق في المعاملة بين طليقها "منصور" وبين زوجها "بكري"؛ فالأول نبذها لأنها في عُرفه خدعته وأتت له بمولود ذكر مزيف، والأخير أبدى استعداده التام لفعل المستحيل ليكون إلى جوارها، أبعدت نظراتها عنه حتى لا يرى الدمعات المترقرقة فيهما، التفتت نحو خالتها تراقب الوجوه الوافدة، اشرأبت بعنقها لتسألها باهتمام:

- هي "فايزة" مجاتش؟

بدا وجه "حسنات" محبطًا وهي ترد:

- لأ يا ضنايا.

عبست تعابير "نوال" أكثر وقالت في انكسارٍ بعد أن خاب أملها في قدومها:

- يبقى مش جاية!

مسحت خالتها على كتفها وأردفت مبررة عدم حضورها:

- تلاقي جوزها منعها، ما إنتي عارفاه موالي في صف اللي ما يتسمى.

رفعت عينيها في وجهها قائلة:

- كان نفسي تكون معايا.

عاتبتها "حسنات" بلطف:

- هو أنا مش كفاية يا "نوال"؟

حاولت الأخيرة أن تبتسم لتبدد غيمة الحزن التي تغطي قسماتها:

- إنتي الخير والبركة يا خالتي، ده لولاكي كان الله أعلم وحده بـ ....

قاطعتها بصوتها الحنون:

- ماتفكريش في حاجة وحشة، افرحي بجوزك وبيتك.

هزت رأسها بإيماءة صغيرة موافقة، فلا داعي لاستدعاء الأحزان في وقت البهجة، مالت عليها خالتها لتقول بحماس:

- بصي الناس فرحانة عشانك إزاي؟ دي نعمة من عند المولى!

مسحت بأناملها في حذرٍ الدمعات المتسللة على وجنتيها مرددة بصوتٍ ممتن:

- الحمدلله على فضله.

أحست بلمسة خشنة قليلًا توضع على كفها فاستدارت على الفور للجانب الآخر لتجد "بكري" يتطلع إليها في حب، سألها مهتمًا:

- في حاجة مش عجباكي؟

ردت نافية:

- لأ يا حاج "بكري"، إنت كلفت نفسك كتير، مكانش ليه لازمة و..

رفع حاجبه ليشير لها معاتبًا في ضيق قبل أن يقاطعها:

- مش عايز أسمع الكلام ده تاني، دي حاجة بسيطة، وست الكل اللي زيك يتعملها أحلى صوان فرح، وبعدين إنتي من دلوقتي مسئولة مني، وأي حاجة نقصاكي أن كفيل أجيبهالك، إن شاءالله لبن العصفور، أؤمري إنتي بس!

ردت مبتسمةً في حرج:

- مايؤمرش عليك عدو، ربنا يباركلنا فيك.

عمق نظراته نحوها فذاب الجليد الذي غلّف قلبها، لم تنكر "نوال" أن نفس المشاعر المرتبكة التي أحستها قبل سنواتٍ في ليلة زفافها الأولى تملكتها الآن مع فارق عظيم، أن الزوج هنا يُشعرها بكبريائها، يقدر أنوثتها، يمدح جمالها، يسعى لاكتساب حبها.

*****

مضى أكثر من شهر على زواجها به، ومع كل يوم يمر عليها كانت تستعيد بريق حياتها المفقود في منزله الذي أعاد تجهيزه بأثاثٍ جديد، عادت إلى طبيعتها النشيطة المليئة بالحيوية والحماس، زاد اهتمامها بابنتها بسبب حرص زوجها الواضح على توفير كل متطلبات الصغيرة وكأنها حقًا ابنته من لحمه ودمه، تأكدت "نوال" من استغراق طفلتها في النوم قبل أن تغلق باب غرفتها عليها، اتجهت للمطبخ لتبدأ في تجهيز طعام العشاء له قبل أن يعود من عمله، ولكن استوقفها قرع الجرس، سحبت حجابها الطويل الذي تضعه بالقرب من باب المنزل لترتديه على عجالة، تأكدت من ضبطته ثم أدارت المقبض وتطلعت بغرابة لذاك الشاب الغريب ذي البشرة السمراء والذي يقف محني الرأس وفي يديه عدة أكياس منتفخة وحبات العرق متجمعة بغزارة عند مقدمة رأسه، بدا وجهها صارمًا عندما سألته بجمود:

- إنت مين؟

أجابها دون أن يتجرأ على رفع أنظاره:

- أنا "خيري" سواق الحاج "بكري" الجديد.

هزت رأسها في صمت فتابع بلهجة رسمية:

- الحاج باعتني بالطلبات دي وهو طالع ورايا.

- طيب، اتفضل.

قالتها وهي تتنحى للجانب لتفسح له الطريق حتى يتجه نحو المطبخ ليضع ما في يديه بالداخل، استأذن بعدها بالانصـراف فشكرته على تعبه، لحقت به لتغلق الباب من خلفه لكنها لمحت زوجها يصعد على الدرجات، انتظرته حتى ولج للداخل فأغلقته ثم اقتربت منه لتزيح عنه قفطانه الأسود قائلة له:

- خير ربنا موجود يا حاج، مكونتش تعبت نفسك واشتريت حاجات تانية، ده التلاجة مليانة على آخرها.

شمر عن ساعديه وهو يرد مبتسمًا:

- يا ستي الأمر ما يسلمش، جايز تحتاجي حاجة كده ولا كده.

قالت في امتنانٍ وعرفانٍ الجميل:

- ده إنت مكفيني وزيادة، ربنا يباركلي فيك يا حاج وتعيش وتجيبلنا الحلو كله.

زادت ابتسامته اتساعًا مع كلماتها الشاكرة، دس يده في جيب جلبابه ليخرج منها علبة زرقاء اللون مغلفة بقماش القطيفة، رفعها "بكري" أمام أنظارها وهو يأمرها في لطفٍ:

- طيب خدي ده يا أم الغالية.

تناولته منه وتفحصتها على عُجالةٍ قبل أن تسأله بفضولٍ:

- إيه ده؟

أشــار لها برأسه مكملًا حديثه:

- افتحيها وقوليلي رأيك.

أسندت "نوال" قفطانه على مسند الأريكة، ثم قامت بفتحها لتتفاجأ بقلادة عريضة ذات فصوصٍ براقة تتدلى منها حلقة دائرية محفور فيها بالخط الكوفي كلمة (ماشاءالله)، تدلى فكها السفلي في إعجابٍ، انعكس وهج انبهارها في عينيها، نظرت له هاتفة:

- يا صلاة النبي، دي حلوة أوي.

اقترب منها زوجها ليأخذ العلبة منها ثم استل القلادة منها ليلبسها إياها وهو يقول:

- يا رب تعجبك.

تجهمت تعابيرها مرددة باستنكارٍ شديد:

- يا لهوي يا حاج، جايب المشاءالله دي عشاني وكمان متعجبنيش!!!

أدار "بكري" زوجته ناحيته، تطلع لها في شغف وهيام، تنهد قائلًا لها:

- وعقبال ما اجيبلك الصاغة كلها يا غالية.

تورد وجهها بدموية خجلة، كانت لا تزال تشعر بالارتباك من غزله العفيف وتدليله الزائد لها، أسبلت عينيها قائلة بصوتها الناعم:

- بس ده كتير!

أحنى رأسه عليها ليقبل أعلى جبينها وهو يرد:

- مافيش حاجة تغلى عليكي.

ســار بعدها متجهًا نحو الحمام فتبعته حاملة منشفة قطنية، وقف أمام الحوض يغسل كفيه، حملق فيها متسائلًا بجدية واهتمام:

- ها قوليلي "مريم" ناقصها حاجة؟ أنا بعت أجيبلها هدوم جديدة من بلاد برا، كلها كام يوم وتيجي على المراكب.

ردت "نوال" عليه:

- والله ما ليه لازمة، لسه هدومها بشوكتها.

قال لها ببساطة:

- خليها تلبس وتفرح، وبعدين أنا كلمت الأستاذ "سلامة" يشوفلنا أحسن مدرسة عشان نقدملها فيها.

رددت في استغرابٍ شديد وكأن ذلك الأمر كان بعيدًا عن تفكيرها في ذلك الوقت الحالي:

- مدرسة!!!

انزوى حاجباه متسائلًا:

- أيوه، أومال هانسيبها كده من غير ما تتعلم؟

قالت في حرج وقد تسرب إليها شعورًا بالقلق والخوف:

- بس حالتها و...

قاطعها مؤكدًا وبلهجةٍ تحمل الصرامة:

- شوفي يا "نوال"، اللي حصل زمان كان صفحة واتقفلت من حياتك وحياتها، إحنا بنتكلم في النهاردة، وأنا عاوز أشوفها أحسن واحدة في الدنيا.

نكست رأسها في خزي، ما زال شبح الماضي القريب يؤرق مضطجعها، قالت له في نبرة عكست حزنها:

- أنا مش عارفة أقولك إيه، أنا ربنا عوضني بيك بعد الظلم والبهدلة اللي شوفتها في حياتي.

أغلق الصنبور وسحب المنشفة من يدها ليجفف بها راحتيه، ثم ألقاها على طرف كتفه ليتمكن من وضع إصبعيه أسفل ذقن زوجته، رفع وجهها إليه وتطلع إليها قائلًا عن تفاخرٍ واضح:

- ده أنا اللي ربنا رزقني بيكي، انسي اللي فات وفكري في بكره.

أشعرتها نظراته بالدفء والأمان، كان قادرًا ببساطة على احتواء أحزانها ودفنها في الأعماق، سألته بابتسامةٍ صغيرة لاحت على ثغرها:

- طيب هانوديها مدرسة إيه؟ يعني في مدرسة هنا قريبة؟

لوح بيده وهو يجيبها:

- كتير.

هزت رأسها في استحسانٍ، لكن ما لبث أن أصابها الهلع حينما تذكرت ما نُشر في الصحف مسبقًا ضمن الأخبار الرئيسية عن عملية التحول الخاصة بابنتها لتصبح حديث الألسن لبعض الوقت قبل أن ينتقص الاهتمام بذلك الموضوع ليحل آخر بديلًا عنه، شحب وجهها واتسعت نظراتها، حدّقت في وجه زوجها تقول برفضٍ تامٍ خالقة لنفسها العديد من الأعذار:

- لا مش هاينفع، ده الكل هنا يكون عارف بحكايتها فجايز حد يعايرها من العيال، بلاش يا حاج، خلينا نبعد عن الشر وتغنيله، مش هاستحمل حد يجيب سيرتها، وجايز تتعقد الأمور وحد يفكر يأذيها، بناقص منه العلام ده، هي كده كويسة.

استغرب من ردة فعلها المبالغ فيها وسألها:

- ليه كل ده يا "نوال"؟ طبيعي يحصل شوية أخبار وهلومة عشان الحكاية جديدة ومش معروفة، بس أهي خدت وقتها وخلصت، مش معقول حياتنا هتقف عشانها.

لم تقتنع بمبرره المنطقي وأصرت على رفضها فقالت:

- بلاش يا حاج، عشان خاطري، بنتي مش ناقصة بهدلة.

أمسكها "بكري" من يدها ليخرجها من الحمام واتجه بها نحو غرفة النوم، أجلسها على طرف الفراش، ثم أزاح المنشفة عن كتفه ليليقها بإهمال على الأرضية وجلس إلى جوارها، سحب نفسًا عميقًا لفظه دفعة واحدة واستطرد موضحًا بعقلانية:

- اسمعي يا ستي، إحنا هنقيدها في مدرسة بنات، ونرجع نقدملها منازل ونجيبلها مدرسين شاطرين يذكرولها وتروح بس على الامتحانات، وأهي تبقى تحت عينك، ها إيه رأيك؟

بدت وجهة نظره مريحة إلى حد ما، فسألته بشكلٍ آلي رغم القلق الذي يكسو خلجاتها:

- وده ينفع؟

حرك رأسه مؤكدًا بالإيجاب:

- أه طبعًا، ناس كتير عاملة الحكاية دي، وبعدين ماتشليش هم حاجة، هو أنا عندي أغلى من "مريم"؟

استطاع "بكري" بمجهود بسيط أن يزيح الغشاوة الخائفة المسيطرة على عقلها بشأن مستقبل ابنتها، استمر في استرساله والحديث عن فوائد التعليم وأهميته في الوقت الحالي ليضع مصالح الطفلة نصب عينيها وفوق أي اعتبارٍ فلا تتراجع عن الموافقة بسبب بعض الهواجس والمخاوف التي حتمًا ستتلاشى بمرور الأيام، تخلت "نوال" عن حذرها الشديد مع كل نصيحة كان يسديها لها، واتبعت ما يمليه عليها من واقع خبرته الحياتية العريضة لتنفذ اقتراحاته التي ثبت بالفعل جدواها وألحقتها بالمدرسة، تعاقبت السنون ونشأت صغيرتها بشكلٍ سوي وصحي في بيئة أسرية مستقرة مليئة بالمحبة والعاطفة وتتخذ من طريق العلم منهاجًا أساسيًا، عوضتها عن الأيام العجاف التي عاشتها حتى بلغت صغيرتها ونضج جسدها بأنوثته الحقيقية.

*****

- يا ما إنت كريم يا رب، اللهم لك الحمد والشكر، ده الحاج هيفرح أوي لما يعرف.

تمتمت بتلك الكلمات المتضرعة للمولى وزادت من ابتهالها لجلاله ما إن انتهت الطبيبة النسائية من الفحص الدقيق لابنتها لتؤكد لها خبر بلوغها، في البداية ظنت "نوال" أن ما أصاب "مريم" هو نزيف دموي مشابه لذلك الذي كانت تعاني منه بعد إجراء جراحتها الخطيرة، لكن الطبيبة طمأنتها وأكدت لها أنها دماء الحيض الشهرية نتيجة وصول جسدها

لمرحلة البلوغ، الآن تستطيع أن تستريح، أن تزيح تلك المخاوف التي ظلت جاسمة على صدرها لوقتٍ طويل؛ بالطبع لن تقل فرحة زوجها "بكري" عنها، فهو مثلها كان يترقب تلك الأنباء السارة، جلست "مريم" في مواجهة والدتها عند مكتب الطبيبة تتأمل ردة فعلها المتأثرة، رأت عبراتها تبلل وجنتيها وكأنها أنهر متدفقة من المياه، استغربت من بكائها العفوي، فهي على عكسها كانت تشعر بكل تغيير يطرأ على جسدها، بالأنوثة التي تشبعت بها خلاياها قبل أن تطفو على السطح، مالت نحو والدتها تربِّت على فخذها وهي تهمس لها في نعومة:

- اطمني يا ماما، أنا كويسة.

وضعت "نوال" يدها على كف ابنتها تمسح عليها برفقٍ بأناملها التي تكرمش جلدها، أمعنت النظر فيها عن قربٍ، لقد كبرت حقًا وباتت على أعتاب مرحلة المراهقة، تحولت ملامحها الطفولية لملامح نضرة مليئة بالعنفوان والجمال، نظراتها حادة، وشفتاها ممتلئة قليلًا، كانت رقيقة الطباع، حسنة المظهر، تليق قسماتها بهويتها الأنثوية، وجدت "نوال" نفسها تبتسم في ابتهاج، كفكفت عبراتها بطرف كمِّ عباءتها، ثم اعتدلت في جلستها وحدقت في وجه الطبيبة التي بادرت موضحة:

- طبيعي يحصل تطورات كتير في المرحلة دي، المهم ناخد بالنا من النظافة الشخصية والعناية بالجسم عشان نتجنب أي التهابات ممكن تحصل.

سألتها "نوال" في عدم فهم:

- التهابات إيه دي؟

أجابتها الطبيبة بنبرة عملية وبشكل مبسط:

- ما هو الجزء ده من الجسم زي حتة في جسمنا معرض للتلوث ده لو حصل إهمال ومكانش فيه اهتمام بنظافته، وللأسف في المستقبل ممكن يأثر على الحمل والإنجاب.

ردت في لهفة:

- إحنا معاكي يا ضاكتورة، قوليلنا نعمل إيه!

ابتسمت معلقة عليها ونظراتها تركزت على وجه ابنتها:

- هي شوية نصايح بسيطة "مريم" لو التزمت بيها هتبقى في أمان من أي التهاب.

استقامت "مريم" في جلستها واشتد كتفاها عرضًا، كانت عيناها تتحركان بحركة ثابتة

وهي تقول لها بثقة كبيرة اكتسبتها من تربية زوج أمها:

- وأنا جاهزة يا دكتورة.

*****

الفصل التاسع

خمسة عشر عامًا مرت على زواجها منه، لكنه فارقها بعد عشر سنوات لإصابته بذبحة صدرية، انتقل "بكري" للرفيق الأعلى وبقيت وحدها المسئولة عن تربية "مريم"، تلك التي حازت على منزلة مميزة في قلب زوج أمها، كانت ابنته حقًا بمحبته الأبوية الصافية، لم يشعرها يومًا أنها لا تنتمي إليه، بل كانت أغلى من أغلى عزيز لديه، دومًا كان يوصيها بالافتخار بكينونتها، بالاعتزاز بنفسها وهويتها، اهتم برعايتها ودعمها حتى تحقق أحلامها، ورغم وفاته إلا أن وصيته نُفذت وصارت مدللته خريجة جامعية، حاولت "نوال" قدر المستطاع أن توفي بعهدها له لترى أمنياته وآماله تتحقق فيها، ما زاد من ألمها وضاعف من أحزانها هو رحيل خالتها بعد بضعة أشهر، لم تدفنها في مقابر العائلة ببلدتها التي انقطعت عنها لتدفن بجوار زوجها الوفي الذي سبقها منذ عقود، خلت حياتها فجأة من أحبابها الأوفياء، وأصبحت ابنتها فقط ما تبقى من ماضيها الأليم وحاضرها الهادئ، دمعة مترقرقة في مقلتها تسللت من طرفها لتنساب على وجنتها، ظهرت أمارات الكبر عليها رغم وقفتها المستقيمة، كما تهدل جلدها وتكرمش تحت عينيها، حتى الشيب نال من خصلات رأسها.

أطبقت على جفنيها بقوة لتحرر باقي عبراتها الحبيسة حينما داعب ذاكرتها مشاهد مختلطة لضحكات بناتها مع مشاحناتهن السخيفة، كم تحترق شوقًا لرؤية وجوههن بعد مرور تلك السنوات وتلمس بشرتهن! كم تتلهف لتأمل التغيير الذي صار بهن! كم تتمنى ضمهن بين أحضانها ومشاركتهن أحزانهن قبل أفراحهن! علمت مسبقًا من شقيقتها "فايزة" التي كانت تمدها بين الحين والآخر ببعض الأخبار عنهن بزواجهن فيما عدا "خديجة" التي بقيت عزباء، اعتصر الحزن قلبها لمنعها من أبسط حقوقها كأم في مشاطرة فلذات أكبادها تلك الفرحة الكبيرة حينما تُلبس فيها إحداهن طرحة عرسها وتزفها لمن دق القلب لأجله، اضطرت أن تكتم أوجاعها في نفسها لسنواتٍ من أجل صغيرتها المظلومة وتعايشت مرغمة مع هذا الألم الذي لا ينتهي، مسحت "نوال" دمعاتها المشتاقة بعد أن انتهت من قراءة الفاتحة أمام شاهد قبره الرخامي لتستدير برأسها نحو "خيري" الذي كان يصطحبها في جميع مشاويرها، قال لها الأخير مواسيًا:

- تعيشي وتفتكري يا حاجة، الحاج "بكري" -الله يرحمه- كان راجل طيب، الكل دايمًا فاكره بالخير.

ردت بحزنٍ وهي تزيح البقايا العالقة بأهدابها:

- ده مايتعوضش، ربنا يرحمه برحمته الواسعة.

ثم سارت بضعة خطوات حذرة للأمام حتى خرجت للطريق الرملي الرئيسي بين المقابر المتراصة على الجانبين قبل أن تتوقف عن المشي لتسأله من جديد وهي تستدير نحوه برأسها:

- وزعت الأمانة على أصحابها يا "خيري"؟

هز رأسه بالإيجاب قائلًا:

- أيوه يا حاجة، الأمانة راحت لأصحاب نصيبها من بدري.

شكرته مبتسمة ابتسامة مبتورة:

- تسلم يا "خيري"، معلش بأتعبك معايا.

علق معترفًا بالجميل:

- ده إنتي تؤمري يا حاجة، أنا لحم كتافي من خير الحاج.

سألته في اهتمام:

- كلمت الأستاذ "سيد"؟

أومأ برأسه مرددًا:

- أيوه، وهيستنانا في المحل.

قالت في استحسانٍ وهي تتجه نحو السيارة:

- على خيرة الله.

استقرت بالمقعد الخلفي ثم حملقت في انعكاس وجهه عبر مرآة السيارة الأمامية لتأمره بلطافةٍ:

- بعد ما توصلني هناك اطلع على الجمعية وهات "مريم"، زمانها خلصت شغلها فيها.

قال مُلبيًا لأمرها:

- حاضر.

التفتت "نوال" برأسها للجانب لتحدق بشرود في الطريق المليء بشواهد القبور على جانبيه، أحست بانقباضة تضرب صدرها، بألم عنيف يكاد يفتك بقلبها، فحتمًا ستأتي تلك اللحظة التي يخشاها الجميع وتتقابل مع الأموات، عززت الرائحة المميزة لهذا لمكان المهيب

ذلك الشعور كثيرًا بداخلها، هي لم تكن تهابه، لكنها كانت تخاف على صغيرتها من مواجهة الحياة بمفردها دون أن تحميها من شرور قساة القلوب، خاصة ممن يعرفون حكايتها؛ أبيها وإخوتها، وهؤلاء الذين انقطعت الصلة معهم من المعارف والأقرباء، بالطبع لن يقبلوا بها بينهم إن التقوا بها ولو مصادفة، حتمًا سيحولون حياتها إلى جحيم، ولن تستطيع التصدي لهم بمفردها، انشغل بالها بما يمكن أن يهدد مستقبلها، وسعت بكل طاقتها لتأمين ما يضمن لها حياة هانئة وخالية من المتاعب، فقط لو صــارت الأمور كما تتمنى.

*****

كانت تلك هوايتها المفضلة، إعداد الشاي الساخن على شعله (السبرتاية) في إبريقٍ مصنوعٍ من الصاج، رفعت "وداد" الإبريق للأعلى بعد أن غلت المياه لتفرغ محتوياته في الكوب الزجاجي الموضوع على صينية النحاس، ثم أضافت ثلاثة ملاعق من السكر مثلما يحب ابنها في كوبه، تأملها "مصطفى" الجالس إلى جوارها على الأريكة التي تشبه المصطبة في أريحيتها بنظراتٍ متحمسة وهي تقلبه جيدًا لتضمن ذوبان السكر به، دومًا يحب تناوله من صنع يديها، وكأن لأناملها قدرة عجيبة على وضع نكهة مميزة تنسيه مع تذوقه له إرهاق العمل بمتاعبه التي لا تنتهي، حرك عنقه للجانبين بحذرٍ وهو يفركه براحته حتى أحس بفقراته المتيبسة تفرقع، اعتلى ثغره ابتسامة مستمتعة وقد أمسكت والدته بالكوب من عند حافتيه لتعطيه إياه، تناوله "مصطفى" منها مبتسمًا وبدأ في ارتشافه محدثًا صوتًا صغيرًا ليظهر استمتاعه بمذاقه الرائع. ارتبط ذهنيًا ووجدانيًا بتلك الاستراحة القصيرة التي يأخذها معها لتثرثر له بآخر أخبار البلدة وأهلها، على النقيض معه كانت "وداد" مزعوجة منه، زمت شفتيها في امتعاضٍ كتعبيرٍ عن تذمرها من عناده الذي لا ينتهي، طالعته بنظرة مطولة تجوب على بشرته القمحية، وهيئته الرجولية التي تظهر جديته وأصالته -بالإضافة إلى عنفوانه وخشونته- بإعجابٍ ممتزج بالضيق، فمثله يعد مطمعًا لكثير من عائلات البلدة ممن يسعون للمصاهرة مع شاب يعتبر كامل الأوصاف، لكن لسوء حظه بات نذير شؤم على كل من يتزوج بها.

تنامى إلى عقلها ذكريات زيجته الأولى، كانت مدعاة للتفاخر والتباهي بين الجميع، تزوج الأجمل بين الفتيات، ومنحه الله نعمة الإنجاب، فحملت زوجته الأولى في أحشائها حفيد العائلة المنتظر، لكن لم يحدث ذلك ولم تدم زيجته سوى لبضعة أشهر قبل أن تتوفى زوجته بسبب إصابتها بتسمم الحمل نتيجة جهل الأغلبية آنذاك بمخاطره الشديدة، وبعد مرور عدة أشهر سعت لتزويجه بأخرى، ومع هذا -ولسوء حظه- تشاركت الثانية مع الأولى في نفس المصير، وتوفيت بعد عام واحد دون سبب معين ليغدو بين أهل البلدة منحوسًا، ومن وقتها

لم يحاول "مصطفى" الزواج وعزف عنه كليًا. حزن قلبها وانفطر عليه لِما أصابه من تعاسة مبكرة، سعت كأم بشتى الطرق لإقناعه بالعزوف عن ذلك القرار الخاطئ، لكنه أبى الإصغاء إليها واستمر على رفضه الحازم، احتدت نظرات والدته نحوه ثم نفخت قائلة في يأسٍ:

- يا ابني يا حبيبي أنا عاوزة أفرح بيك، ده اللي زيك معاه أورطة عيال.

نظر لها من طرف عينه ببرودٍ وكأن الأمر لا يعنيه، تناول رشفة أخرى كبيرة من شايه ليبتلعها في حلقه قبل أن يرد بعدم مبالاة:

- هو أنا يعني ماتجوزتش؟ ما هو على يدك يامه، اتجوزت اتنين، وسلموا نِمَر.

قالت في تبرمٍ ونظراتها المتنمرة مركزة على وجهه الهادئ:

- نصيبهم كده يا ابني، الأعمار بيد الله.

وضع "مصطفى" كوبه على مسند الأريكة ثم رفع ساقه للأعلى ليثني ركبته ويتكئ عليها، مازحها قائلًا بلهجة جمعت بين الجد والهزل:

- شوفي يامه، أنا حاسس إني....

بتر باقي عبارته عن قصدٍ ليثير فضولها، فتلهفت لسماع ما سيقوله بكامل حواسها، لكنه صدمها قائلًا:

- بومة!

احتقن وجهها من رده الساخر وصاحت مستنكرة بعينين تشعان غيظًا:

- فُشر! أل بومة أل، ماتقولش على نفسك كده يا ضنايا، ده إنت تشرف أي واحدة تتقدملها، هما اللي اتعموا على قلوبهم وفي عينيهم.

تأمل "مصطفى" حالة الغليان المسيطرة عليها بهدوءٍ تام، استغرب كثيرًا من عصبيتها الزائدة لذلك الأمر الذي أخرجه من حساباته قبل وقتٍ طويل، حاول أن يهون عليها المسألة فتابع سخريته بابتسامة بلهاء:

- أقولك جوزي أخويا، هو غاوي جواز، وبيموت في الهئ والمئ وشغل الحريم الرايقة.

تجهمت تعبيراتها معلقة عليه على مضضٍ وهي تضع غطاء (السبرتاية) على شعلتها لتطفئ لهيبها المتقد:

- هو يعني "أنور" مستنيك؟ ما هو مش ملاحق، عمال يتجوز ويطلق عمال على بطال،

تقولش بدلة وبيقلعها!

لم يستطع منع نفسه من إطلاق دعابة ساخرة من الموقف برُمّته فهتف ممازحًا:

- ماشاء الله يامه، عندك شباب زي الفل تفتخري بيهم، واحد مزواج، والتاني قابض للأرواح، حقيقي نسب يشرف!

استفزها استخفافه بالموضوع فلكزته في جانب ذراعه وهي تنهره:

- يا واد بطل تنكيت، أنا على أخري.

أنزل "مصطفى" ساقه ليجلس مستقيمًا ثم اشرأب بعنقه قليلًا ليقبل أعلى رأس والدته قائلًا لها:

- وهو أنا أقدر بردك يا حَجوج؟

نظرت له بغيظ وهي تدفعه بعيدًا عنها موبخة إياه ولكن بلطافة:

- أوعى كده ما تضايقنيش.

تأملها بنظراتٍ ضاحكة وهو يتابع كمَ التغييرات المتناقضة التي تطرأ على والدته في دقيقة واحدة، وكأن كل المشاعر تختزل في قسماتها، انتفض كالملسوع في خضةٍ حينما صاحت بغتةٍ:

- بس لاقيتها، إيه رأيك في البت "سامية" بنت "خضرة"؟

بهتت ملامحه للبرهة محاولًا استيعاب العرض غير المتوقع منها والذي لم يحبذه مطلقًا، فتلك الفتاة سمجة في تصرفاتها، ومن النوع الفضولي اللزج، ظنت "وداد" -بجسدها الممتلئ بالشحم واللحم- أن وراء سكوته تلميحًا متواريًا بالموافقة فتابعت مقترحة بابتسامة عريضة:

- شكلها عجبتك، تحب أفاتحلك أمها وأنا بأجيب العيش من الطابونة؟

قال على الفور ليحجم من حماسها الزائد:

- اقسم بالله ما عايزها، هو في إيه؟

لكزته برفقٍ في جانب كتفه بكوعها وهي تقول بنبرة متشجعة:

- ماتكسفش يا حبيبي، ده أنا أمك، يعني سترك وغطاك، قولي البت دخلت مزاجك؟

توتر "مصطفى" من تسرعها غير المحمود فقال دون تردد:

- بالله عليكي بلاش.

زوت حاجبيها متسائلة بضيقٍ مصطنع:

- هي مش عجباك؟

ثم شرعت تعدد من محاسنها:

- دي بت لهلوبة في شغل البيت، وعليها لفة طرحة ماشوفتهاش في البلد كلها، ده غير الحاجات والمحتاجات اللي عندها.

تدلت شفته السفلى في بلاهةٍ وهو يصغي لوصفها العجيب عنها، وجد نفورًا كبيرًا يصيبه لمجرد تخيلها تشاركه لحظاته الحميمية بأسلوبها السخيف اللزج، امتعض وجهه وهتف محتجًا:

- كفاية يامه!

سألته باندهاشٍ:

- هي فيها إيه وحش؟ دي مدملكة في بعضها، قولي مش مالية عينك ليه؟

رد بتعبيراتٍ منزعجة:

- مش على الشكل، بس دي بت رغاية، وغلسة كده، حاجة تخنق، لأ وأمها أصعب منها، نظام حكاوي القهاوي، وأنا مش أدهم بصراحة!

تنهدت موافقة إياه في الرأي فقالت بعفوية واضعة إصبعيها على طرف ذقنها:

- معاك حق يا واد يا "مصطفى"، الولية "خضرة" لكاكة وكلامها كتير، دي بتوجع نافوخي. طب ما تشوف البت آ.... ؟!

انحنى يُقبل كتفها ليقاطعها بعدها وهو يرجوها علّها تكف عن محاولاتها الفاشلة لتزويجه:

- قفلي على السيرة دي ربنا يكرمك، أنا مبسوط كده وزي الفل.

زجرته قائلة في عبوسٍ واضح:

- بس أنا لأ!

وقبل أن يستمر جدالهما الميؤوس منه اندفع "أنور" –الابن البكري لـ "وداد"- لداخل المنزل صافقًا الباب خلفه بقوة أجبرتهما على الالتفاف نحوه، تحرك كالمجنون وهو يصيح

متسائلًا بأنفاسٍ لاهثة وأنظاره تمر على أرجاء المكان وكأنه يبحث عن شيءٍ ما:

- أومال أبوك فين يا "مصطفى"؟

رمقته والدته بنظرة نارية من عينيها قبل أن تضع يدها أعلى منتصف خاصرتها لترد باستنكارٍ ساخط:

- مافيش سلامو عليكم، داخل على كفرة؟!

أجابها مبرزًا:

- لأ يامه مقصدش، بس معايا خبر بمليون جنية!!!!

سألته باهتمامٍ وهي توزع نظراتها بينه وبين أخوه:

- خبر إيه ده؟

التقط أنفاسه مجيبًا إياها:

- الواد "محمود" عديلي اللي شغال في مجلس المدينة قالي على حتة معلومة هتنقلنا فوق أوي.

رد عليه "مصطفى" متسائلًا في فضول:

- إيه هي؟

ضجرت "وداد" من مماطلته فنهرته بنفاد صبرٍ:

- يا واد انطق، إنت هتدينا الأخبار بالقطارة؟

وقف قبالتها في شموخٍ ثم أردف قائلًا:

- الأرض بتاعتنا داخلة كردون مباني، يعني المتر فيه هيتباع بعشر أضعاف تمنه دلوقتي.

مفاجأة ســارة غير موضوعة في الحسبان نزلت على مسامعهما فجعلت لعابهما يسيل، حَدَقت "وداد" في وجه ابنها البكري للحظات متمتمة في غِبطةٍ وقلبها يدق بحماسٍ:

- يا حلاوة يا ولاد!

ازدرد "مصطفى" ريقه متسائلًا في جدية وقد نهض من مكانه ليقف في مواجهة أخيه:

- إنت متأكد من الكلام ده؟

رد مؤكدًا دون أن يهتز له جفن:

- بأقولك "محمود" جايب المعلومة من ناس عليوي في مجلس المدينة.

قال له آملًا:

- يا رب يكون بجد، هاتفرق معانا الحكاية دي.

بينما علقت "وداد" بنبرةٍ متفائلةٍ وهي تفرك كفيها معًا:

- وأخيرًا الفرج هيدق بابنا.

عـاد "مصطفى" لجديته فتابع موضحًا وهو يشير بسبابته:

- خد بالك إن جزء من الأرض دي مع ولاد الحاج "فايق".

ضاقت عينا "أنور" من جملته الاعتراضية الهامة فقال له دون أن يفكر مرتين:

- يبقى لازم نشتريها منهم قبل ما يعرفوا ويرفضوا يبيعوها!

- بالظبط!

قالها "مصطفى" بلهجة جادة وقد تقلصت قسماته قبل أن يعاود الجلوس في مكانه، همهمات جانبية دارت بين أخيه ووالدته استثارت أحلامهما بالثراء الفاحش، حثت "وداد" ولديها على العمل بجدية لتنفيذ مسعاهم في أسرع وقت قبل أن تضيع تلك الفرصة الذهبية من بين أيديهم.

*****

على قدر وعيها بتلك النوعية من المسائل القانونية استنبطت النتائج الفعلية التي قام بها محامي زوجها المخضرم على أرض الواقع ليحصل في النهاية على صك الملكية الخاص بقطعة الأرض الزراعية محل البيع، تأملت "نوال" التوقيعات التي زيلت العقود الرسمية بنظرات دقيقة متمعنة، ثم رفعت رأسها نحوه تسأله رغم معرفتها بالإجابة مسبقًا:

- يعني خلصت معاهم يا أستاذ "سيد"؟

قال في ثقة وهو يضع نصب عينيها إحدى الأوراق:

- أيوه يا حاجة، ورثة الحاج "فايق" وافقوا يبيعوا بالسعر اللي عرضناه عليهم، ومضوا خلاص، والورق كله جاهز، مش فاضل غير توقيعك ونروح الشهر العقاري نسجله هناك.

هزت رأسها في رضا قائلة له:

- تمام.

أمسكت "نوال" بالقلم الحبري ووقعت باسمها أسفل جملة (الطرف الأول) ليشرع محاميها في إكمال باقي الإجراءات، تركت القلم وشبكت أصابع يدها معًا مكملة باقي حديثها:

- يبقى كده ناقصنا نشتري البيت.

رد عليها بنفس الهدوء الواثق:

- متقلقيش يا حاجة، أنا لاقيت حاجة كويسة، ناقص بس اتفق مع أصحابه.

سألته بحاجبين معقودين:

- في حتة كويسة يا أستاذ "سيد"؟

أجابها بتريث:

- في قلب البلد وقريب من الأرض كمان.

حركت رأسها في رضا وهي تعقب عليه:

- طب خير، ربنا ييسرلنا أمورنا للآخر.

عكفت على مطالعة بنود العقود بنظرة أخيرة قبل أن تزيل آخر ورقة بتوقيعها، ثم رفعت رأسها ويدها ممدودة للأعلى قليلًا لتعطيه لمحاميها الدؤوب حتى يكمل باقي مهمته القانونية، استراحت في جلستها وراقبت المارة من الزجاج الأمامي لواجهة المحل، لمحت ابنتها وهي تترجل من السيارة، لوحت الأخيرة بيدها لها، وما هي إلا لحظاتٍ حتى ولجت للداخل مبادرة ببسمة مرحة:

- سلامو عليكم.

التفت "سيد" نحوها يحييها وهو يدس أوراقه في حقيبة يده الجلدية:

- وعليكم السلام، إزيك يا آنسة "مريم"؟

ردت عليه متسائلة في تهذيب:

- الحمدلله في نعمة، إنت أخبارك إيه يا أستاذ "سيد"؟

نهض من مكانه قائلًا:

- في فضل من الله.

احتفظ وجهها بابتسامته الرقيقة وهي ترد عليه:

- يدوم يا رب.

ثم تركزت أنظارها على والدتها المتعبة لتسألها بحنوٍ:

- عاملة إيه دلوقتي يا ماما؟ زورتي بابا "بكري"؟

أجابتها بعد زفير مطول نسبيًا:

- أيوه، ولسه راجعة من شوية.

تنحنح "سيد" مستئذنًا:

- طيب هاسيبكم يا حاجة وأروح أخلص أشغالي.

- ماشي يا أستاذ "سيد"، وطمني لما تخلص الموضوع إياه.

تصنع الابتسام قبل أن يرد بإيجازٍ:

- حاضر، سلامو عليكم.

ردت التحية عليه وراقبته بعينيها حتى انصرف من المحل فاستدارت برأسها نحو ابنتها قائلة لها بوجهٍ مشدود التعبيرات:

- اقعدي يا "مريم"، عاوزة أتكلم معاكي شوية.

تأملت الأخيرة ذلك الغموض الذي ينتشر على ملامحها باهتمامٍ قليل ثم تساءلت:

- خير يا ماما؟

سحبت "نوال" شهيقًا عميقًا لفظته ببطءٍ لتضيف بعدها بترددٍ ملموس:

- بقالي فترة بأفكر في الموضوع ده، صحيح كنت مأجلاه لفترة، لكن دلوقتي جه أوانه؟

انقبض صدرها من أسلوبها المريب في الحديث وسألتها بترقبٍ:

- خير، وغوشتيني.

استجمعت والدتها شجاعتها لتبوح لها بقرارها الحاسم الذي استحوذ على كامل تفكيرها في الفترة الأخيرة:

- إحنا هنرجع بلدنا.

وكأنها نزعت فتيل قنبلة ثورتها فانفجرت هادرة بغضبٍ وقد انتفخت أوداجها واشتعل وجهها:

- بتقولي نرجع؟ طب ليه؟ وعشان مين؟ ده إحنا مالناش حد هناك، واللي منا باعونا من زمان!!!

تحاشت النظر في عينيها وردت بنبرة حملت المرارة والحزن:

- لازمًا نرجع يا "مريم".

ردت برفضٍ قاطع:

- لأ، استحالة.

كانت متوقعة لمثل تلك الردة الانفعالية الثائرة، فما عاشته ليس بالقليل، تحلت "نوال" بالصبر والهدوء واسترسلت موضحة سبب قرارها الصادم والذي قلب الموازين:

- لازمًا أرفع راسك هناك وارجعلك حقك وكرامتك، محدش ضامن عمره، وماينفعش نفضل مدارين كده ولا كأننا عاملين عاملة.

ضربت "مريم" بيدها بعنفٍ على سطح المكتب قبل أن تهب واقفة لترد معترضة بلهجة قاسية ونظراتها تشع وهجًا محتقن:

- لأ يا ماما، أنا مش هاروح هناك.

بدأ صوتها في الاختناق وهي تتابع بمرارة:

- أنا بأكره البلد دي باللي فيها، نسيتي عملوا فيكي إيه؟ وطردوكي منها إزاي؟ ده إنتي المفروض أكتر حد يكون ضد الحكاية دي!

كانت متفهمة لأسبابها ومع هذا ردت بعقلانية:

- لا إنتي غلطتي ولا أنا عملت جريمة، الذنب كله على أبوكي، وجه الوقت إن كل واحد ياخد حقه ويتحاسب.

علقت "مريم" في تهكمٍ ساخط:

- أبويا؟؟ أنا ماليش أب غير بابا "بكري"، التاني اللي في البطاقة ده أنا معرفوش!

أخفت "نوال" تأثرها بكلماتها العميقة التي لامست قلبها وضغطت على جرحها النازف،

ارتدت قناع الجمود وقالت في حسيم بلهجة لا تسمح بالنقاش:

- الموضوع منتهي يا "مريم"، اعملي حسابك خلال أيام هنسافر هناك.

احتدت نظرات ابنتها وضاقت بشكلٍ غاضب، بهذه البساطة تعود إليهم وكأن ما اقترفوه في حقها أمرًا هينًا؟! كيف تصفح عمَن أنكروها؟ كيف تنسى من نبذوها لذنب لم ترتكبه؟ كانت تمقتهم، تحتقرهم، ترفض الاختلاط بهم في أي مكان. لم تستطع "مريم" التنفيس عن رفضها العارم في وجهها، فاندفعت خارجة من المحل ودماؤها تغلي في عروقها، لحقت بها أنظار والدتها القلقة، كان تشعر بكل ما يهيج في نفسها الملتاعة، اتكأت "نوال" بطرف ذقنها على قبضتيها المضمومتين معًا لتقول في أسف:

- غصب عني يا "مريم"، حقك لازم يرجع.

*****

الفصل العاشر

باءت جميع محاولاتها لإقناعها بالعدول والتراجع عن قرارها النهائي الحاسم بالفشل الذريع؛ فوالدتها ما زالت على موقفها المعاند ومُصرة على العودة إلى بلدتهما، سلبتها حق الاختيار وفعل ما تريد بناءً على رغبتها الشخصية، وبالتالي باتت مجبرة على طاعتها، هاجت "مريم" وافتعلت المشاجرات الحادة معها، ولكن دون جدوى، كذلك لجأت لأسلوب الاستعطاف والتوسل علّها تسترق قلبها وتتخلى عن عنادها، ومع هذا ظلت مرابطة على موقفها الصــارم، في الأخير استسلمت ورضخت للأمر الواقع وبدأت في حزم متاعها وهي تبكي بحزنٍ كبير، لم تكن مستعدة بعد لتلك الخطوة الفاصلة في حياتها، انتهت من تجهيز متعلقاتها الشخصية ووضبطت أشياءها الضرورية بداخل حقيبة سفر متوسطة الحجم، مسحت أرجاء المكان الذي ترعرعت فيه بنظرة وداع أخيرة، ستشتاق لكل ركنٍ فيه احتوى على ذكرى تخص طفولتها، صباها، وشبابها، قاومت بقدر استطاعتها ترقرق العبرات في عينيها، وســارت تتبع والدتها في صمتٍ مقهور.

شعرت "نوال" بكل ما يؤلم ابنتها من مشاعر مرتبكة، حائرة، مرتعدة، والأكيد مذعورة، فالأمر ليس بالهين عليها هي شخصيًا، فماذا عن صغيرتها وهي قليلة الخبرة في الحياة؟ لكن لابد من فعل ذلك والعودة إلى هناك والاستقرار بين أهل البلدة ليعتاد الجميع على حقيقة وجود "مريم" ويتقبلونها فيما بينهم، ولن يحدث الأمر بين عشية وضحاها، سيستغرق فترة لا بأس بها لوضع الأمور في نصابها الصحيح. أكدت لنفسها مرارًا وتكرارًا أنها لم تفعل ما يشين، أو حتى اقترفت خطيئة عظيمة، بل إنها قامت بالصواب والأصلح لابنتها لتمنحها هويتها الحقيقية، جلست الاثنتان في المقعد الخلفي بالسيارة التي يقودها "خيري" والتزمتا الصمت، فقط بضعة تعليمات مقتضبة كانت تنطق بها "نوال" ليقوم بها رجلها الوفي، توترت أعصاب "مريم" مع ولوجه للطريق الذي مشت عليه في سنوات عمرها الأولى، ما زالت معالمه محفورة في ذاكرتها، وتنشطت بمجرد أن رأته من جديد، عادت الذكريات لتتدفق بقوة في عقلها فأصابته بالصَخب، شبكت أناملها معًا وضغطت عليهم في توترٍ رهيب، لمسة حنون من والدتها التي أحست بخوفها المضاعف على يديها هدأت قليلًا من روعها لكنها لم تزل رهبتها، مالت "نوال" نحوها لتهمس لها من تلقاء نفسها:

- أنا حاسة بيكي يا بنتي، متخافيش، أنا جمبك وهنعدي الأيام دي سوا!

لم تنجح "مريم" في رسم حتى ابتسامة باهتة على ملامحها الواجمة لتطمئنها، لن تستطيع خداعها وإدعاء حماستها لتلك المغامرة المثيرة، بل إنها تكاد تموت رعبًا في داخلها من مواجهة من شهدوا على مذلة والدتها وما أسموه فضيحة كينونتها، مطب صغير خطت

السيارة فوقه لتبطئ من سرعتها وهي تستدير في اتجاه الكوبري القصير الذي يربط بين طرفي البلدة لتتوغل بهم أكثر في أرجائها حيث البيوت البسيطة التي بقيت محتفظة بمظهرها العتيق، والحقول الخضراء المزروعة بأصناف متنوعة من المحصولات، كان الهواء منعشًا نسبيًا وملطفًا لحرارة الجو المرتفعة، ومع هذا أشعرها بالبرودة فارتجف جسدها قليلًا، ارتفع ضجيج قلبها الخائف مع تقدم السيارة أكثر، استطاعت أن ترى من خلف الزجاج الأعين الفضولية المتتبعة لحركتهم لكونهم -في اعتقادهم- غرباء عن المكان، تحاشت النظر نحوهم وانخفضت بجسدها للأسفل لتتوارى عن نظراتهم، استمعت بعد لحظاتٍ لصوت مكابح السيارة فاختلست النظرات من النافذة الملاصقة لها لتجدهم يتوقفون عند بيت منعزل تقريبًا عن باقي المنازل وتحاوطه الخضرة من أغلب جوانبه، استعادت القليل من شجاعتها ورفعت جسدها لتمرر نظراتها بدقة أكبر على تفاصيل المكان.

كانت جدران البيت الخارجية باهتة الطلاء تجمع بين اللونين البني والأصفر، يفصل بين امتزاج اللونين عدة نقوش هندسية، أما النوافذ خشبية مطلية باللون الأخضر، ذكرتها هيئته بمنزل العائلة القديم، التفتت لجانبها فور أن سمعت والدتها تناديها:

- يالا يا "مريم"، إحنا وصلنا!

حملقت فيها كالمبهوتة لثوانٍ حتى تستوعب جدية الموقف، هي هنا بالفعل وليس ما تراه الآن وهمًا من نسج خيالها، تنفست بعمقٍ حتى تستعيد انتظام أنفاسها المضطربة، ابتلعت ريقها في حلقها الجاف فأحست بمرارته، ضغطت على شفتيها في قلقٍ، ووضعت يدها على مقبض الباب لتفتحه والخوف يعتريها كليًا، ترجلت "مريم" عن السيارة وهي شبه فاقدة لشجاعتها، اختطفت بعينيها نظراتٍ سريعة عن طبيعة المكان حولها، شعرت بقدرٍ بسيط من الاطمئنان لعدم وجود أشخاص فضوليين محيطين بهم، منحها ذلك شعورها بالارتياح، قطّبت جبينها في استغرابٍ واستقامت أكثر في وقفتها حينما رأت المحامي "سيد" متواجدًا في المكان، ودون أن تسأل استنبط عقلها أنه مَن تكفل بكل المعاملات القانونية الخاصة بحيازتهم لملكية المنزل، حانت منها التفاتة جانبية نحو أحد الحقول القريبة عندما التقطت أذناها صرخات ضاحكة لبعض الأطفال، تركزت حواسها مع لهوهم المرح ولم تشعر بنفسها وهي تبتسم لعبثيتهم البريئة، عـاد الجمود يغلف ملامحها وقد هتفت بها والدتها:

- تعالي يا "مريم"، هندخل جوا!

تحركت قدماها إراديًا لتسير خلفها، اعتلت الدرجات القصيرة التي لم تتجاوز الخمس درجات لتصل إلى باب المنزل، أصدر القفل صريرًا مزعجًا وقد أدير المفتاح به، استخدم "خيري" قوته الجسمانية لدفع الباب وفتحه، فقد كانت مفصلاته صدئة وتحتاج للتليين،

عبق صدورهم رائحة الهواء العطنة وملأتها، فركت "مريم" طرف أنفها بسبابتها حتى تعتاد على الرائحة الثقيلة التي زكمتها وأزعجتها، ثم جابت بنظرة عامة شمولية شكل المنزل من الداخل، كان كل شيء مغطى بأغطية بيضاء تكسوها الأتربة، فطنت إلى كون والدتها قد ابتاعته بمحتوياته من أثاث ومفروشات قديمة، وإلا لكانت قد أجلت سفرهما حتى تشتري الجديد وتضعه به، راودها هاجس ما بأن تعجيل أمها لتلك النقلة النوعية في حياتهما يخفي بطياته خطبًا عظيمًا.

*****

وقفت على يمين طاولة الطعام ممسكة بإحدى الدجاجتين التي طهتهما بين يديها لتقسمها إلى نصفين، وضعت الجزء الأكبر في صحن زوجها وأسندت النصف الآخر بجوار مثيلتها على طبق أكبر حجمًا فإن ظل جائعًا ناولته بقيتها، مررت إليه الحساء الشهي، ثم جلست في مقعدها لتشرع في تناول الطعام هي الأخرى، استطردت "وداد" مادحة ما أعدته بتفاخرٍ عظيم:

- أما أنا عملالك جوز فراخ شمورت، إنما إيه حكاية! هتاكل صوابعك وراها.

هز "متولي" رأسه في رضا وقطم قطعة كبيرة من لحمها المطبوخ جيدًا، ابتسم يشكرها:

- تسلم إيدك، لأ والشوربة طعمها حلو، طول عمرك أستاذة في الطبيخ يا "وداد".

تصنعت الخجل وهي ترد:

- دايمًا ناصفني كده يا حاج.

سألها مهتمًا:

- أومال "صباح" مرات ابنك فين؟ مش شايفها يعني في البيت!

زمت شفتيها لتجيبه على مضض:

- هاتقضى اليوم عند أهلها.

ملأ معلقته بالأرز الأبيض ودسه في فمه ليقول بعدها معترضًا وبعض حباته تتناثر من جوفه:

- هي كل يوم والتاني عندهم؟! الكلام ده ماينفعناش!

اشتكتها هاتفة بتبرمٍ:

- الرك على المحروس ابنك، هو اللي سايبلها السايب في السايب، وهي مصدقت، ركبت ودلدلت! أنا أعرف عاجبه فيها أم لسانين دي!

وافقها الرأي قائلًا:

- اختياراته شبهه، مش كان اتجوز "نسمة" بنت "أبو عوف"؟

تنهدت قائلة في ندمٍ مفتعل:

- يالا النصيب، هانقول إيه غير كده!

ثم قربت صينية البطاطس الساخنة من زوجها ليتمكن من سحب بضعة أجزاءٍ منها ويضعها فوق الأرز، ابتلع ما يفيض عن مساحة ملعقته دفعة واحدة، وعاد ليسألها باهتمامٍ:

- طب والواد "مصطفى" فين؟ بقالي يومين مابشوفهوش!

أجابته واضعة يدها على وجنتها كإشارة متوارية عن انزعاجها من سوء حظه:

- كبدي عليه، طالع عينه في الجمعية الزراعية، بيجرد المخازن كلها قبل ما يستلم التقاوي والسماد.

لم ينظر زوجها نحوها وهو يرد:

- ربنا يعينه.

أضافت "وداد" بلمسة شجن:

- يا رب، أهوو ده اللي مظلوم معانا، مابنلحقش نفرح بجوازته.

قال لها وهو يبتلع لقمة أخرى أكبر حجمًا:

- ربنا موجود، وكل حاجة بتيجي في وقتها.

مالت عليه زوجته تسأله في رجاءٍ:

- طب ما تشوفله بنت حد من معارفك ولا أصحابك اللي بتقعد معاهم على القهوة؟

رمقها بنظراتٍ حادة قبل أن يعلق عليها:

- تفتكري معملتش كده؟ ابنك اللي راسه ناشفة ومش عاوز يتجوز.

أخرجت زفيرًا مهمومًا من صدرها رددت بعده في استياءٍ:

- ربنا يصلح حاله ويفك عقدته.

تابعا تناول الطعام بنهمٍ واضح عليهما إلى أن حضر "أنور" وعلى وجهه وجومًا مثيرًا للريبة، ألقى عليهما التحية وجلس بعبوسه المزعج على يسار والده دون أن ينبس بكلمة، تفرس الأخير في ملامحه متسائلًا:

- في إيه يا "أنور"؟ وشك مقلوب كده ليه؟ هو في حاجة حصلت؟

أجابه بنفس الوجوم الشديد:

- أرض ولاد "فايق" اتباعت.

توقف "متولي" عن مضغ الطعام وترك ملعقته تسقط في صحنه، مسح بطرف كُم جلبابه المنزلي البقايا العالقة على شفتيه، سأله بشكلٍ آلي:

- اتباعت لمين وإزاي؟ أنا مش قايلك تركز في أم الموضوع ده وتسيب كل حاجة تانية؟!!

لوح بيده مدافعًا عن نفسه:

- ما أنا عملت كل اللي قولتلي عليه بالحرف، بس اتفاجئت بإنهم باعوه.!

سألها والده بنبرة ساخرة:

- وباعوها لمين يا فالح؟

أجابه بغموضٍ:

- مش هاتصدق يا حاج.

صاح به بانفعالٍ ونفاذ صبر:

- ما تقول على طول، مش ناقصة لف ودوران، باعوها لحد نعرفه؟

لعق شفتيه قائلًا بحذرٍ وهو يطالعه بنظراتٍ شبه قلقة:

- لـ "نوال".

للحظة حلَت الحيرة على تعبيرات والده قبل أن يسأله بترددٍ:

- "نوال" مين؟

أوضح له بتمهلٍ:

- مرات عمي "منصور".

صححت "وداد" عفويًا وبوجهٍ غير مُبالٍ:

- قصدك اللي كانت مراته، ما هو طلقها أديله زمن.

زجر "متولي" زوجته بنظرة حادة ليجبرها على التوقف عن ثرثرتها النسائية غير المجدية صائحًا بها:

- ابلعي لسانك دلوقتي يا ولية، إحنا في كانت مراته ولا لأ، خلينا نشوف المصيبة اللي بقينا فيها!

ثم التفت نحو ابنه موجهًا حديثه له:

- يعني عاوز تقولي إنها جت اتفقت مع ولاد "فايق" واشترت الأرض منهم والبيعة راحت خلاص مننا؟

- أومأ برأسه قائلًا بإيجاز:

- أيوه.

كور "متولي" قبضة يده وضرب بها على سطح الطاولة في عنف قبل أن يهدر بابنه منفعلًا:

- تِبَب وتغطس وتجيب أرار الحكاية من طقطق لسلامو عليكم، سامع؟ ماترجعش إلا ومعاك كل التفاصيل.

نهض "أنور" عن الطاولة هاتفًا بنبرة عكست يأسه:

- حاضر يابا، اللي تؤمر بيه.

تدخلت والدته في الحوار قائلة بعبثية:

- ما تسيب الواد يحط لقمة في بؤه قبل ما يروح مشوارك و...

قاطعها "متولي" بحدةٍ شديدة:

- يا ولية أكل إيه السعادي، خلينا نتنيل نفكر هنعمل إيه، دي أرض بملايين راحت مننا في غمضة عين!!!

أخفضت عيناها في حرجٍ وأكملت تناول طعامها مبرطمة بكلماتٍ غير مفهومة، في حين نهض زوجها عن مائدة الطعام ليسير مع ابنه يمليه أوامره حتى يأتي له بالأمر اليقين.

*****

جابت بنظراتها اللامعة تلك المساحة الشاسعة من الخضرة النضرة التي تمنح من يتطلع إليها سلامًا داخليًا عجيبًا، شردت لبُرهة مع لحظات لهوها الطفولي بين الحقول حينما كانت تبلغ الأربع سنوات، متعة ساحرية لا توصف وهي تختبئ خلف عيدان القصب وأقرانها من الأطفال يبحثون عنها، لاحت على شفتيها ابتسامة باهتة متحسرة على مرحلة انقضت مبكرًا لتعاني بعدها بين أروقة المشافي، عادت "مريم" لمحيطها الواقعي ووالدتها تشرح لها مستخدمة ذراعها في الإشارة:

- الأرض اللي إنتي شيفاها دي كلها بتاعتك، أنا اشتريتها من أصحابها، ورجعت نقلت ملكيتها باسمك.

التفتت ابنتها لتنظر إليها متسائلة بنوعٍ من التذمر المعاند:

- وأنا أفهم إيه في الأرض والزراعة عشان يبقى عندي أرض زي دي؟

ردت عليها بعقلانية تامة:

- مش مطلوب منك حاجة، هي هتتباع بشيء وشويات لما يطلع قرار مجلس المدينة، وده هيحصل قريب.

كانت تعلم أن جدالها معها لن يجدي، ولكنها لم تيأس من المحاولة فاسترسلت ترجوها باستماتة:

- ماما، أنا مش عايزة كل ده، أنا حاسة إني مخنوقة هنا، كفاية إنك معايا وجمبي، خلينا نرجع بيتنا والحتة اللي اتربيت فيها و...

قاطعتها "نوال" قائلة بجمودٍ ووجهٍ صارم:

- ما هنا بيتك وأرضك وأهلك الحقيقيين!

اغتاظت "مريم" من تلك الجملة الأخيرة التي تناقض كليًا ما عاشته هي وأمها من معاناة، وألم، وهجر وكأنها نست كل تلك الأوجاع في لحظة لتتآمر عليها، صاحت بعصبيةٍ وقد انتفضت عروقها غضبًا:

- دول مش أهلي ولا أنا أعرفهم!

قست نظرات "نوال" بشكلٍ واضح، كانت لا تزال متسلحة بقناع الجمود واللا مبالاة مما استفز ابنتها أكثر فكادت تبكي وهي تنطق بألم:

- يا ماما أنا مش قادرة أعيش هنا.

أشاحت بوجهها بعيدًا عنها وهي ترد:

- بكرة تتعودي.

أمسكت ذراعها بكفيها وكأنها تتعلق به، تنفست بعمقٍ لتضبط نوبة البكاء التي تهاجمها، ومع هذا اختنقت نبرتها وهي ترجوها باستعطاف مضاعف:

- يا ماما عشان خاطري اسمعيني بس و...

أزاحت الأخيرة قبضتيها عنها لتوليها ظهرها ثم قالت بنبرة جليدية قاسية:

- خلاص يا "مريم"، إحنا اتكلمنا في الموضوع ده كتير، رجوع مش هايحصل، هنفضل هنا والكل لازمًا يعرف بوجودنا.

قالت لها بنبرة مهتزة وهي تمسح دمعاتها التي تجمعت في طرفيها:

- والله أنا خايفة من اللي هيحصل، النفوس وحشة!

كانت متعاطفة مع ابنتها لأقصى الحدود، لكن لا مجال للتراجع وقد باتت الأمور قيد التنفيذ، همَّت بالتحرك لكن استوقفها شكل تلك المرأة المنحنية والتي تسير متكئة على عصا خشبية تجرجر ساقيها واحدة تلو الأخرى بشكلٍ يشير لعجزها، كانت المرأة مشغولة بالنظر إلى أسفل قدميها فلم تلمح "نوال" التي شرعت تتفرسها بنظرات ضيقة مدققة في ملامحها، ما زالت ذاكرة الأخيرة تعمل بشكل جيد فلم تبذل مجهودًا في تذكر هويتها، إنها الشيطانة التي تسببت في تخريب حياتها والإساءة لسمعتها بكل ما أوتيت من قوة، فمجتمع محدود وضيق كذلك الذي يعيشون فيه تصل الأخبار فيه بسرعة البرق، وكانت هي مادة جيدة للثرثرة والقيل والقال، آنذاك أبلغتها أختها "فايزة" بما قيل في حقها، وكانت هي أحد رؤوس الأفاعي ممن نهشوا في عرضها. يا لعدالة السماء!!! من يتخيل حال تلك الممرضة التي كانت تدق الأرض بخطواتها الصحيحة لتغدو هكذا معتلة، واهنة، شبه عاجزة، ثيابها قديمة مليئة بالأوساخ، ووجهها مجعد تبعث ملامحه الكئيبة على النفور. رسمت على مُحياها ابتسامة مصطنعة وهي ترحب بها بنبرةٍ عاليةٍ قاصدةً لفت أنظارها إليها:

- إزيك يا "إبتسام"؟

رفعت الأخيرة رأسها قليلًا لتنظر لصاحبة الصوت الأنثوي، سألتها في حيرة متعللة بالوهن المسيطر على جسدها:

- مين؟ معلش مش واخدة بالي؟

قالت "نوال" بنبرة تهكمية جمعت بين الجد والهزل:

- مش معقول تكوني نستيني، ده إحنا عِشرة سنين يا "إبتسام"!!!!

اعتصرت عقلها علّها تعرف هويتها، تحول وجهها للاصفرار من عنف المجهود الذي تبذله لتذكرها، يئست من معرفتها فقالت بتردد:

- الصوت مش غريب عليا ولا الشكل، إنتي ......

قاطعتها قائلة بنبرة غير قابلة للتشكيك:

- أنا "نوال" يا "إبتسام"، ها افتكرتيني؟

حاولت الأخيرة الانتصاب في وقفتها المحنية لتنظر لها عن كَثبٍ، ثم قالت في صدمة مدهوشة:

- "نوال" مرات "منصور عمران"؟

صححت لها بنظراتٍ شبه متوحشة وقد قست نبرتها:

- اللي كنت مراته، إنتي نسيتي إنه طلقني هنا وسط الخلق؟

تساءلت "إبتسام" وهي لا تزال غارقةً في دهشتها:

- أيوه.. أيوه.. بس إنتي رجعتي البلد إمتى؟

أجابتها باقتضابٍ ليثير فضولها أكثر:

- قريب.

أدارت "إبتسام" رأسها للجانب قليلًا لتتطلع بفضول لتلك الشابة الواقفة بجوارها، سألتها بخبثٍ بعد أن سعلت مرتين:

- ومين الحلوة اللي واقفة جمبك دي؟

حاوطت "نوال" ابنتها من كتفيها بذراعها وضمتها إليها ثم قدمتها بابتسامةٍ متباهية:

- بنتي "مريم".

لاحقتها بسؤالها التالي دون تفكير:

- إنتي إتجوزتي تاني؟

ردت عمدًا بجملة كانت واثقة أنها ستقلب الموازين:

- أيوه، بس "مريم" بنتي من طليقي "منصور"!!!!

تقلص وجهه "إبتسام" وهي تعتصر ذاكرتها من جديد قائلةً لها:

- بس اللي افتكره قبل ما "منصور" يسافر إن كان عندكم أربع بنات وواد اسمه "طاهر" ربنا افتكره، "مريم" تبقى مين؟

ركزت "نوال" كامل نظراتها على وجهها قبل أن تصرح علنًا بحقيقة ابنتها:

- "مريم" هي "طاهر"!

انفلتت شهقة عالية من جوفها لم تستطع كتمانها، ثم تلعثمت وهي تردد:

- "ط...طاهر"!

توقعت "نوال" ردة فعل كتلك، بدت هادئة للغاية وهي تكمل متسائلة بنفس النبرة التهكمية المستنكرة:

- مش معقول متكونيش عارفة الحكاية، وإنتي كنتي الدراع اليمين لـ "عوني" وسره كله معاكي؟!

انعقد لسانها ولم تجرؤ على النطق، ظل الذهول مسيطرًا على تعبيرات وجهها بالأخص، عادت لتسألها من جديد بقوةٍ وثقةٍ:

- حصلك إيه يا "إبتسام"؟

اهتز جسدها وكادت أن تفقد اتزانها فألقت بثقل جسدها على عصاها وتشبثت بها بكلتا يديها، حاولت "إبتسام" جمع قوة غير موجودة بها لترد:

- مـ... مافيش

اقتربت لتقف إلى جوارها ثم ربتت على كتفها بقوةٍ طفيفة، انحنت عليها "نوال" برأسها لتهمس لها بنبرة أربكتها:

- اجمدي كده واصلبي طولك، الحكاية لسه بتبتدي.

حملقت فيها بنظراتٍ شبه زائغة، شعرت بجفاف حلقها، بتدفق الدماء المتوترة في عروقها، بتلاحق دقات قلبها، ارتبكت من اقترابها المخيف وردت معللةً علّها ترفق بها:

- معلش، أصل المرض هدني، وزي ما إنتي شايفة أنا لوحدي مافيش حد يساعدني.

قالت لها بصوتٍ خالٍ من التعاطف أو الشفقة:

- ما هو الجزاء من جنس العمل، ولا إنتي إيه رأيك؟

تجمدت عينا "إبتسام" على وجهها القاسي، أحست بالرهبة من قوتها غير العادية، وقبل أن تتحرك شفتاها لتنطق سألتها "نوال" عن ثقةٍ واضحةٍ:

- هنتقابل تاني، مش كده ولا إيه؟

ردت دون تفكيرٍ:

- أكيد، نورتي البلد يا "نوال".

تجاهلت الرد عليها عن عمدٍ واتجهت إلى ابنتها تسحبها من رسغها خلفها لتسير بعدها متأبطةً ذراعها، كانت متيقنة أن نظرات "إبتسام" ما زالت مُسلطة عليها تتابعها في صدمةٍ وفضولٍ، على عكسها كانت "مريم" في غاية التوتر والخوف، اقْشعرَّ بدنها خوفًا لمجرد إثارة حقيقة هويتها بجراءةٍ ودون أي مقدماتٍ، عاتبت والدتها قائلةً:

- عملتي كده ليه يا ماما؟ ليه فكرتيها بالحكاية القديمة؟

أجابتها "نوال" بنبرة حانقة وقد توحشت نظراتها:

- يا بنتي دي أس البلاوي كلها، إنتي متوعيش على اللي هي عملته زمان!

لم يشغلها ما حدث في الماضي، كانت مرتعدة مما سيحدث في المستقبل، انتبهت "مريم" لوالدتها حينما تابعت بلهجتها الجادة التي لازمتها مؤخرًا حتى في تصرفاتها:

- وبعدين الناس لازم تعرف إننا رجعنا، والحرباية دي هتعمل ده!

أخافتها كلماتها الأخيرة أكثر وضاعفت من توترها، زاد تمسك "مريم" بوالدتها علّ إحساسها المفقود بالأمان يعود إليها، انخفضت نبرتها وهي تغمغم بكلماتٍ متضرعةٍ رافعةً أنظارها للسماء:

- استرها يا رب من اللي جاي!

*****

لم يكن عسيرًا عليه العثور على عنوان منزلها، فالبلدة بضواحيها معروفة له ككف يده، وبالرغم من امتعاضه من تلك الزيارة إلا أنه وجب عليه ذلك، خاصة بعد خسارته التي لا تعوض لتلك الصفقة الرابحة، اتجه إلى منزلها، وجلس في الصالة النظيفة منتظرًا قدومها،

أحضرت له الخادمة - ذات الأربع عشر عامًا- كوبًا من الشاي الساخن وأسندته أمامه على الطاولة، ثم انسحبت في هدوء، ضجر "متولي" من الانتظار، بدا متشنجًا في جلسته، تلفت حوله ملقيًا نظرة سريعة على المنقولات، لم يكن الأثاث بالجديد، لكنه كان مرتبًا ونظيفًا، اتجهت أنظاره نحو "نوال" التي ما زالت محتفظة بملامحها الهادئة، وبكل ترفعٍ وكبرياء استقبلت الأخيرة ضيفها ببرودٍ واضحٍ، جلست قبالته ترمقه بنظراتٍ جافة تحمل اللوم والانزعاج، تجاهل ردة فعلها المقروءة تجاهه ليستطرد متسائلًا بوقاحة:

- رجعتي ليه يا "نوال" بعد السنين دي كلها؟!

ورغم أسلوبه الفظ الذي لا يحمل أدنى معنى للأدب والتهذيب إلا أنها ردت متسائلةً بجمودٍ ومتعمدة الحفاظ على مظهرها الهادئ:

- ليه؟ هو أنا المفروض مارجعش يا "متولي"؟

اغتاظ من مناداتها له مجردًا من أي لقبٍ، تجاوز عن تلك الجزئية مضطرًا ليجيبها مباشرة:

- بعد اللي حصل زمان المفروض مكونتش تيجي هنا تاني!

احتقنت دمائها من رده الذي يحمل اتهامًا متواريًا عن كونها قد ارتكبت فحشًا عظيمًا، بذلت "نوال" مجهودًا عنيفًا لتحافظ على هدوئها قبل أن تُعقّب عليه بحدةٍ طفيفةٍ انعكست على نبرتها وأيضًا نظراتها:

- جاي تلومني أنا وناسي ابن عمك المفتري؟ هو اللي ظلمني وداس عليا وعلى كرامتي! وفي الآخر عاوزين تطلعوني أنا الغلطانة؟!

حاول "متولي" تحاشي النظر في عينيها المركزة عليها وهو يقول:

- أهوو كان ماضي وخلص، وكل واحد راح لحال سبيله، مالك بيه دلوقتي؟

انفجرت صائحة فيه بتشنجٍ وانفعالٍ بعد أن نجح في استفزازها بأسلوبه الفظ المثير للأعصاب:

- مالي بيه؟ إنت اللي جاي عندي في بيتي تعايرني بحاجة ماليش ذنب فيها!

رد بخشونةٍ يلومها بشكلٍ مباشرٍ:

- كل واحد أدرى باللي عمله، واللي على راسه بطحة!

هدرت بعصبيةٍ في وجهه:

- ولا كلمة زيادة، مش هاسمحلك تغلط فيا في بيتي يا "متولي"، "نوال" بتاعة الزمان الغلبانة مكسورة الجناح ماتت وادفنت، اللي قدامك دي مستعدة تفرقش عضم اللي قدمها لو بس فكر يضايقني.

لم يُلقِ بالًا لما أسماه تُرّهَاتها الفارغة وتابع حديثه بنفس الأسلوب السمج المستفز:

- بصي يا بنت الناس، مشكلتك معاه ماتخصنيش، أنا جاي أتكلم معاكي في حاجة تانية خالص.

رمقته بنظرة احتقارية مغتاظة من وقاحته الزائدة عن الحد، تنفست بعمق لتستعيد انضباط انفعالاتها ثم ردت عليه دون مراوغة:

- عشان الأرض، صح؟!

تفاجأ "متولي" من صراحتها ومع هذا قال ببسمةٍ سخيفةٍ متكلفةٍ:

- كويس إنك جيتلي دوغري، إنتي لا ليكي في شغل الفلاحة ولا الأنفار، والأرض دي أنا كنت متفق أخدها من "فايق" قبل ما يموت، بس الحق خد حقه قبل ما نكمل اتفاقنا و...

قاطعته بجراءة وقحة:

- إنت كداب.

صدمته إهانتها غير المسبوقة فاتسعت حدقتاه ذهولًا، هبّ منتفضًا من جلسته ليحذرها بإصبعه في وجهها:

- إنتي اتجنني يا ولية؟ بتقولي عني كداب؟

ردت عليه بنفس القوة دون أن يهتز لها جفن:

- ايوه، لما تضحك عليا بالكلمتين دول عشان تنكر إن الأرض داخلة كردون مباني.

أحس بجفاف حلقه من معرفتها بذلك أيضًا، خرج صوته مرتبكًا وهو يرد:

- كردون إيه ده؟

قالت له عن ثقة:

- الحقيقة، ها تقدر تنكر ده؟ وإلا مكونتش فكرت تيجي لحد عندي.

ألجمت المفاجأة لسانه ونظر لها في ذهول، نهضت واقفة لتطرده بقسوة منقطعة النظير:

- شرفت يا "متولي".

احتقن وجهه بخمرة غاضبة واكتست نظراته بشررٍ مستطر، لم تكن الواقفة في مواجهته بالمرأة المضطهدة التي غلبتها مصاعب الحياة وكسرت شوكتها، بل كانت واحدة أخرى أكثر قوة وشجاعة، استدار "متولي" خارجًا من منزلها يجرجر أذيال خيبته وراءه تاهيك عن غضبه المحموم، التقطت أذناها كلماته اللاعنة ومع هذا لم تشعر بالضيق، بل غمرها إحساسًا كبيرًا بالارتياح، فهي نفسها لم تتخيل أن تكون بمثل تلك الصلابة خلال جدالها معه في مواجهةٍ هي الاولى، جلست "نوال" على مقعدها مستشعرة تلاحق دقات قلبها وصدرها ينهج علوًا وهبوطًا، نظرت إلى كفها المرتعش في توترٍ، سحبت أنفاسًا عميقة لتستعيد به انضباط انفعالاتها، ثم هتفت متعهدة لنفسها:

- دي البداية بس، وهاعمل أكتر من كده لحد ما أرجع حقي وحق بنتي من كل اللي ظلمونا.

*****

كاد غيظه وحنقه من عجرفتها وتطاولها عليه أن يميته كمدًا، ظلت أعصابه مستثارة ودماؤه محتقنة لوقتٍ كبيرٍ، وظهر ذلك بوضوح في تصرفاته مع كل مَن يلقاه طوال طريق عودته إلى بيته، لم يطق "متولي" الحديث مع كائنًا مَن كان، ألقى بقفطانه على الأرضية في غرفة نومه وجلس على طرف فراشه يغمغم بعبراتٍ غير مفهومة، التقطت زوجته قفطانه ونفضته من الشوائب التي ربما تكون قد علقت به، أسندته على حافة الفراش وحاولت تهدئته بعد رأت حالته المنفعلة، جلست عند قدميه بجوار فراشهما لتفركهما له بحذرٍ، ثم رفعت عيناها نحوه لتقول له بلطفٍ علّها تخفف من حدة غضبه:

- -ماتقهرش نفسك ياخويا، إن شاءالله كل حاجة هتتحل.

نظر لها شزرًا وهو يرد متسائلًا من بين شفتيه المضغوطتين:

- هتتحل إزاي يا أم العريف؟

لم تمتلك الإجابة الشافية له، فقالت على سجيتها:

- معرفش، بس أكيد ليها حل، وبعدين صحتك يا حاج مش هاتستحمل، ضغطك هيعلى من عصبيتك دي وترقد فيها.

قال لها بتأفف وقد تقلّص وجهه:

- يا ولية الملافظ سعد.

ضرب بكفه على فخذه بتشنجٍ متابعًا بنبرة متحسرة:

- هاتجنن، الأرض كده تضيع مننا في غمضة عين؟ ده كان فاضل تكة وتبقى بتاعتنا!

قالت له بنزقٍ:

- ما هي مارحتش لحد غريب، "نوال" بردك مننا وعلينا!

وكأنها انتزعت فتيل قنبلة صبره المهددة بالانفجار فلكزها بقدمه يدفعها بعيدًا عنها وهو يوبخها بغضبه المستعر:

- اقطمي يا ولية، إنتي ناوية تنقطيني بكلامك ده؟ غوري من وشي السعادي بدل ما اتجن عليكي.

حملقت فيه بنظرة مزعوجة من تعنيفه البدني وقالت له:

- هو أنا قولت حاجة غلط؟ ماهي حتمًا هتراعي العِشرة اللي كانت بينا، وكلمتين حلوين كده يخلوها تلين وتبيعلك الأرض.

هاجم اقتراحها باستنكارٍ متهكم:

- يا ولية روحي شوفي وراكي إيه، عِشرة إيه اللي بتكلمي عنها، صحيح مخك مضلم وتفكيرك زي الجاموسة.

زمت شفتيها لتقول في عتاب:

- ماشي يا حاج، فش غلك فيا وخلي عليا الاستحمال.

قال في استياءٍ وقد فاض به الكيل من سذاجتها المستفزة:

- شكلك ناوية تجيبلي الكافية، أنا أحسن حاجة أعملها أغور من البيت ده السعادي، بدل ما أرتكب جناية وأخش اللومان على آخر الزمن.

دفعها من طريقه ليسحب قفطانه من على طرف الفراش، أسدله على كتفيه وخرج من الغرفة بوجهه المحتقن ونظراته المشتعلة، لم تكترث "وداد" لاستحقاره لها وتهكمه الدائم على طريقة تفكيرها المتواضعة، فقد اعتادت على تقلباته المزاجية الحادة حينما يعجز على تصريف الأمور وفق أهوائه الشخصية، التفتت إلى أعمالها المنزلية متناسية ببساطة ما حدث قبل لحظاتٍ.

*****

الفصل الحادي عشر

شيّع بنظراته المزعوجة أحد هؤلاء العاطلين ممن اتخذوا المقهى الشعبي مركزًا للالتقاء، واللهو، والتسامر، وتبادل الأحاديث عن أي جديد يطرأ على بلدتهم، كان الحديث الدارج مؤخرًا على ألسنتهم هو عودة "نوال" وابنتها غريبة الأطوار، تلك التي نالت النصيب الأكبر من الافتراءات والأكاذيب المغلوطة حتى باتت في نظر مَن يردد اسمها بالمسخ المشوه، بالطبع بعض الأحاديث عنها احتوت على عبارات بذيئة وتلميحات فسيئة استثارت حفيظة "مصطفى" الذي كان رافضًا لكل ما يقال عنها، توحشت نظراته وكاد أن يشتبك مع مَن يطلق تلك النكات الجريئة، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة معيدًا حساباته في رأسه رافضًا تضخيم الأمر وافتعال أي مشاجرة، في الأخير اتخذ موقفًا محايدًا لم يمنع فيه أحدهم من التطرق لما يخصها. فاض به الكيل من سماع المزيد فترك نارجيلته بعد أن خبا دخانها ممتنعًا عن تجديد حجره، ثم دس يده في جيبه ليخرج حفنة من النقود وضعها على صينية القهوة وانصــرف من المكان ملقيًا نظرة ناقمة على جميع مَن فيه، أحس بنيران تحرق صدره من غيظه، وعاتب نفسه لسلبيته التي ربما إن لم يقاومها لترسخت فيه، سأله أحدهم بنبرةٍ عاليةٍ أجبرته على الالتفات نحوه:

- إنت هتمشي بدري يا "مصطفى"؟ ده لسه الأعدة هتحلو.

أجابه بعبوس:

- معلش أصلي تعبان.

وقبل أن يحاصره ذلك الرجل بالمزيد من الأسئلة اللزجة أسرع في خُطاه منسحبًا من المكان، قادته خطواته الهائمة دون قصدٍ نحو المنزل الجديد الذي اشترته "نوال"، توقف عنده يتأمله بنظراتٍ مهتمةٍ، عاد المنزل ليدب بالحياة بعد أن بقي مهجورًا لأعوام عِدة منذ رحيل سكانه القدامى، استطاع أن يلمح تلك الفتاة الصغيرة المنهمكة في تلميع الزجاج الخارجي قبل أن تختفي بالداخل وتوصده ورائها، عرفها من وجهها المألوف، كانت ابنة إحدى نساء البلدة الفقيرات ممن يتوسلن للأعيان لتشغيل بناتهن في خدمتهم نظير مبلغ مالي محترم، توقع أن تكون أمها قد لجأت لطلب المساعدة المقنعة من "نوال"، خاصةً بعد أن عرف الجميع عن ثرائها الكبير، اقتحم عقله ذكرى لم يحبذها عنها؛ يوم إذلالها علنًا وتطليقها أمام الجميع لتغدو مثالًا صريحًا على اضطهاد المرأة التي لا تنجب سوى البنات، آلمه استعادة إحساسه بالضعف والخزي، فهو يومها كان ضمن المشاهدين الذين زادوا على أوجاعها بموقفهم المخزي والداعم في نفس الوقت لـ "منصور" في رغبته على إنجاب

مولود ذكر يشد من أزره في الكبر ويرثه بعد الممات، أغمض "مصطفى" جفنيه مجبزا نفسه على نفض تلك الذكرى المؤلمة بكل ما فيها من مشاهد قاسية عن عقله، تأهب للتحرك بعيدًا عنه لكن استوقفه ذلك التجمع المريب لبعض الشباب وكأنهم يشكلون حلقة دائرية حول أحدهم، دقق النظر جيدًا وهو يدنو منهم ليرى طيف امرأة ما ترتدي عباءة سوداء تزود بنفسها وبمن معها عمن يتطالون عليها باللفظ واليد.

خبأت "مريم" وجهها في كتف والدتها وجسدها بالكامل ينتفض رعبًا من أسلوبهم المعتدي، حاولت أن تحتمي من بذاءات ألسنتهم ومضايقاتهم الوقحة قدر المستطاع، كم ودّت لو تنشق بها الأرض وتبتلعها فلا تتعرض لمثل تلك الإساءات الشنيعة، شعرت "نوال" برجفة ابنتها المتمسكة بها، تشبثت بها جيدًا وتأبطت ذراعها وانعطفت بها نحو طريق مغاير لذلك الذي تسير فيه علّها تجد مَن يساعدها في إبعاد هؤلاء المتطفلين الوقحين عنها، عبارة مسيئة اخترقت آذان الجميع حينما نطق بها أحدهم عاليًا:

- ماطلعش أصلي، ده تيواني مضروب!

همست "نوال" لابنتها تحذرها بجدية:

- ماترديش عليه ومِدّي في خطوتك.

سارت الاثنتان بخطواتٍ أقرب للركض للابتعاد عنهم، ومع هذا اعترض طريقهما شابًا ليقول بنظراتٍ غير بريئة:

- مستعجلين ليه يا حلوين؟ ده إحنا لسه بنتعرف!

توهجت غريزة الدفاع الأمومية لدى "نوال" فأقصت ابنتها خلفها لترد عليه بصوتٍ مرتفعٍ ومهددٍ:

- ابعد عن سكتنا بدل ما أقلع اللي في رجلي وأنزله على دماغك!

قال ساخرًا منها بعد أن أطلق ضحكة رقيعة مقززة:

- لا خوفت الصراحة.

ثم ما لبث أن تحولت أنظاره نحو "مريم" وهو يتابع ببذاءةٍ وجراءة كبيرة:

- طب ما تقلع هي، وأهوو هنتبسط كلنا!

انكمشت "مريم" على نفسها رعبًا، كادت أن تموت في جلدها من هلعها، اختبأت في ظهر والدتها تحتمي بها، تلك الأخيرة التي هاجت دماؤها الثائرة في عروقها وانتفضت رافعة

يدها في الهواء لتهوى به على صدغه صافعةً إياه بشراسةٍ، اشتعل الشاب غضبًا من تطاولها عليه، وقبل أن يفكر في الانتقام منها ورد الصاع صاعين هبط على وجهه صفعة أخرى قوتها أشد ناتجة عن يد ذكورية عنيفة، استدار بغضبه الأهوج نحو الذي تجرأ عليه ليجد "مصطفى" مطبقًا على عنقه، استخدم الأخير قوته في إزاحته عن الطريق ثم ركله في ركبته ليطرحه أرضًا، وبصوته الجهوري الأجش هدر عاليًا وهو يجوب بنظراته على الشباب المشاركين في ذلك الأمر المُشين:

- إنتوا اتجننتوا؟ عاملين فيها رجالة وبتقفوا للحريم تضايقوهم؟

تبادلوا معه نظرات مترددة حائرة لكنه قطع عليهم شكوكهم بقوله الحاسم:

- إنتو كده مسيتوا حريم بيت "عمران"، وده مايتسكتش عليه!

عبارة كتلك التي تلفظ بها بصراحة كانت تعني احتفاظ عائلة "عمران" بعلاقتها معهما ووجودهما تحت حمايتهما،

نظراته أيضًا كانت وحدها كفيلة بإرعابهم دون حاجته لاستخدام القوة، اعتذروا منه بعبارات مختصرة قبل أن يفروا من أمام أنظاره النارية، فـ "مصطفى" وإن كان مسالمًا في أغلب المواقف إلا أنه عند الأزمات يظهر وجهًا مخيفًا يطيح بالأعناق، زحف الشاب المُلقى أرضًا على بطنه لينأى بنفسه من غضبته العمياء وهو يردد:

- أسف يا عمنا، مكونتش أعرف، حقك عليا!

ثم فر كالفأر المذعور دون أن يلتفت للخلف، تنفست "نوال" الصعداء لوجود ذلك الشهم الذي دافع عنهما باستماتة ليظهر لها معدن الرجال الحقيقي في زمنٍ انعدمت فيه المروءة والأخلاق، مسحت حبات عرقها التي ملأت وجهها لتشكره بأنفاس مضطربة:

- كتر خيرك يا ابني، عيال ناقصين رباية.

اعتذر منها بصوتٍ ما زال يحتفظ بتشنجه:

- حقك عليا أنا يا "أم طاهر"، كان المفروض جتلك بسرعة وقت ما شوفت شوية الواغش دول جايين ناحيتكم.

انتبهت حواسها بدرجة كبيرة، فذلك اللقب لم تسمعه منذ سنوات، بل يمكن الجزم أنه قد تم محوه من حياتها، تفرست "نوال" في ملامح وجهه جيدًا، لم يكن بالغريب عنها، بدا وجهه مألوفًا بالنسبة لها، ساعدها على تذكره تعريفه بنفسه وهو يشير نحو صدره:

- أنا "مصطفى متولي عمران"، افتكرتيني يا "أم طاهر"؟

لم تبذل أي مجهود على الإطلاق، عرفته على الفور وقالت بابتسامةٍ تحمل الألم:

- عرفتك يا ابني، بس معدتش حد بيناديني بـ "أم طاهر"، الناس اللي يعرفوني دلوقتي بيقولولي يا "أم مريم".

عندما نطقت باسم ابنتها تحولت عيناه نحوها، كانت تعبيراتها ما تزال مذعورة مرتعدة، سألها "مصطفى" باهتمامٍ كبير:

- إنتي كويسة؟

اكتفت يهز رأسها بإيماءات متعاقبة دون أن تمتلك الشجاعة على الرد، استطاع "مصطفى" أن يلمح العبرات الكثيفة التي تملأ عينيها، أحس بالألم يعتصره إشفاقًا على حالها، فحاول طمأنتها قائلًا:

- متخافيش، محدش فيهم هيتعرضلك تاني.

قالت بغصةٍ ألمت حلقها وأجبرت دمعاتها المقهورة على الانسياب:

- أنا من الأول مكونتش عايزة أرجع هنا.

توقفت لثانية لتسحب به نفسًا سريعًا حتى تسيطر على نوبة بكائها قبل أن توجه اللوم نحو والدتها وتقول لها:

- أديكي شوفتي بنفسك اللي كنت خايفة منه حصل وقصاد عينيكي كمان، تفتكري كانوا بيقولوا إيه عني خلاهم يتجرأوا بالشكل ده عليا وأنا معاكي؟ فكرتي كنتي هاتحميني إزاي منهم لو مدوا إيدهم عليا وحاولوا يتأكدوا إن كنت بنت ولا لأ؟

حدقت فيها والدتها في صدمة من صراحتها المليئة بالشجن والأوجاع، بينما تابعت "مريم" بنفس المرارة:

- أنا بأكره المكان ده بكل اللي فيه، يا ريتني أموت عشان ترتاحي مني.

كانت تطعنها معنويًا في صدرها بكلماتها الأخيرة فأحست "نوال" بقبضة مؤلمة تعتصر قلبها وتفتك به، تحسست صدرها بيدها حتى تخفف حدة الألم، بينما التقت عينا "مصطفى" الآسفة مع نظرات "مريم" المنكسرة لتهرب الأخيرة من نظراته المسلطة عليها وصوت نهنهاتها يسبقها، خشيت "نوال" من تعرض ابنتها للأذى مجددًا إن تركتها بمفردها فاستدارت قائلةً على عُجالة:

- مش عارفة أقولك إيه بعد اللي حصل ووقفتك معانا و...

قاطعها بتفهم:

- أنا مقدر الظروف، روحي إنتي بس وراها وماتسيبيهاش لوحدها، هي مضايقة أكيد من اللي حصل.

- تشكر.

قالتها وهي تحاول الإسراع في خُطاها لتلحق بابنتها، في حين تبعها "مصطفى" بخطواتٍ حذرة يراقبهما عن كثبٍ حتى اطمأن لدخولهما المنزل، حينها فقط تنفس الصعداء وشعر بأن مهمته قد تمت على خير، لكن ما لبث أن هاجمه إحساسٌ غريبٌ بالضيق، فماذا سيفعل إن تكرر الأمر مجددًا ولم يكن موجودًا لنجدتها؟ انقبض قلبه واشتدت تعابيره تجهمًا لمجرد توهم ذلك، أظلمت نظراته وقد بدأت عدة أفكار سوداوية -تتضمن مشاهد خيالية عن محاولات متعمدة للاعتداء عليها- تهاجم رأسه، زمجر في غضبٍ متعاظمٍ وهو يجز على أسنانه بقوة، اختنق صدره بحنقه حتى كاد أن ينفجر، ثم قال بصوت شبه مسموع ليقطع على نفسه أي مجال للتراجع:

- أنا مش هاستنى لحد ما حاجة تحصل، لازم اتصرف!

*****

رفضت الخروج من غرفتها لتناول الطعام معها بعد الموقف الأخير الذي جابهته مفضلة الاختلاء بنفسها، لكن بقيت تلك الرجفة مصاحبة لها نتيجة توتر أعصابها، تفهمت والدتها ما مرت به وتحملت ثورتها الانفعالية مرغمة، فكان من المتوقع حدوث بعض الصدامات، لكنها لم تتخيل أن تكون بمثل تلك السرعة وتلك البشاعة، وقفت "نوال" خلف ابنتها للحظة مترددة في الحديث معها بعد أن استأذنت بالدخول، لن تتركها تعاني بمفردها، ستتحمل جدالها واتهاماتها بصدر رحب علّها بذلك تنفس عن مشاعرها المكتومة، اقتربت منها لتربّت على كتفها في حنوٍ، ثم قالت لها:

- قدر الله وما شاء فعل، محدش بيهرب من نصيبه.

التفتت "مريم" نحوها لتسألها بألمٍ ووجهها يشع حمرة حانقة:

- وأنا ليه أربط مصيري بمكان هيجيب أجلي ويضيعني؟

أجابتها والدتها بجمود اكتسبته من مصائب الحياة التي خاضتها:

- مش هانهد اللي بنيناه عشان حكاية حصلت وانتهت، كان وارد ده يحصل في أي وقت، وأهي عدت على خير، نحمد ربنا بقى ونشوف هنعمل إيه في اللي جاي.

اغتاظت من ردها غير المكترث فهدرت بنبرة منفعلة يشوبها الغضب:

- انتهت؟ إنتي بتقولي كده؟ دول حياالله بيجربوا حظهم، والمرادي لاقينا حد يقف معانا، الله أعلم المرة الجاية هيحصل إيه!

تعهدت والدتها بجدية دون أن ترمش:

- أنا مش هاسكت وهكلم الأستاذ "سيد" و...

رفعت "مريم" سبابتها في وجهها تحذرها بنبرة مختنقة للغاية:

- بلاش توعديني بحاجات مش هتعرفي تعمليها!

ردت عليها أمها تعاتبها:

- يا بنتي ماتقسيش عليا، في النهاية أنا عاوزة مصلحتك.

صاحت في استنكار:

- مصلحتي، ده بجد؟

عللت لها:

- أيوه، كرامتي وكرامتك لازم ترجع، الكل لازم يعرف الحقيقة و...

رفضت الإصغاء لنفس المبررات الواهية التي لا تسمن ولا تغني من جوع وهتفت بعنادٍ مُصر:

- مصلحتي إني أمشي من هنا وأسس حياتي بعيد عن ناس مستنية اللحظة اللي تعريني فيها عشان تشوف إن كنت لسه ولد ولا بقى فيا حاجة البنات وأنقع.

أطرقت رأسها في حيرة بعد مصارحتها تلك، خرج من صدرها تنهيدة مهمومة وهي ترجوها:

- يا "مريم" كلامك بيقطع في قلبي، أنا مش قادرة أستحمل حاجة عليكي، لكن غصب عني.

استدارت "مريم" بجسدها لتنظر نحو النافذة، ضجرت من نقاشها العقيم معها، ضاقت عيناها حينما لمحت بعض الصبية يتجمعون على مقربة من باحة المنزل الأمامية في بقعة

شبه معتمة فلم تستطع تبين ملامحهم، اتسعت عيناها حينما رأتهم مقبلين نحو المدخل وفي أياديهم شيء ما، تدلى فكها السفلي في خوف وقد أبصرت قطعًا مختلفة في الأحجام من الحجارة تُقذف في اتجاهها، انفلتت منها صرخة عالية، ثم التفتت نحو والدتها تسحبها بعيدًا عن الزجاج الذي بدأ يتناثر في كل مكان لتحتمي كلتاهما بالجانب الآخر من الفراش، ظلت الاثنتان في وضع الانحناء حتى توقف الصبية عن إلقاء الحجارة، بأعجوبة إلهية نجت "مريم" من إصابات خطيرة استهدفتها تحديدًا، واصلت صراخها المفزوع حتى توقف الهجوم الضاري، كانت والدتها الأسبق في النهوض، صاحت بها تتوسلها وقد تعلقت بذراعها:

- استني يا ماما، رايحة فين؟

أزاحت قبضتها عنها قائلة لها بوجهٍ غاضب:

- مش هاسكت.

اقتربت من النافذة ثم استجمعت قواها لتصرخ بأعلى نبرة مهددة المجهولين:

- يا ولاد الكلب، مش هاسيبكم، هاعرف أجيبكم واحد واحد.

استقامت "مريم" واقفة، تلفتت ناظرة حولها بخوفٍ، وبخطواتٍ محسوبة خطت فوق قطع الزجاج المهشمة تسأل والدتها:

- ولسه برضوه عاوزة تفضلي هنا؟!

التفتت "نوال" نحوها ببطءٍ، ثم نظرت في عينيها مباشرة وأجابتها بإصرارٍ أشد دون أن ترمش:

- أيوه، مش هانمشي من هنا!!!

*****

احتدم نقاشهما وارتفع صوت والده الذي وبخه بحدة نظرًا لما اعتبره تصرفه الخاطئ وغير المدروس من أجل الدفاع عمن لا تستحق ذلك، وما زاد الطين بِلة تصريحه العلني أن "نوال" ما تزال تنتمي لعائلة "عمران"، ويقع نفس الشيء على ابنتها، تحمل "مصطفى" قسوة أبيه بهدوءٍ واضح حتى على تعابيره، فأمر تلك المضطهدة وابنتها قد شغل حيزًا كبيرًا من الفراغ الذي كان مسيطرًا على حياته، عاد ليحملق بنظرات باردة في وجه والده الذي كان يلمع وكأنه يفح نارًا وهو يعنفه:

- إزاي تقول كده؟ حد قالك إنها من بقية عيلتنا؟ ليه تحشرنا معاهم؟ إنت مخك طق!

قال كأنه لم يسمع توبيخه القاسي:

- عشان دي عرضنا، وعمر الدم ما يبقى ميه.

اندلع غضبه لتبريره خطئه فقال بصوته الحانق:

- يا "مصطفى" دي غفلت الكل واشترت الأرض من ورانا، يعني المفروض بقى بينا عداوة، تقوم إنت تبوظ الدنيا بتسرعك ده؟

أطبق على شفتيه ممتنعًا عن الكلام، في حين علقت عليه "وداد" التي راقبت مشاداتهما قائلة بسلاسة:

- يا حاج ده الكل عارف إنك حقاني، ليه نحارب عشان حاجة مش مقسوملنا؟ خيرها في غيرها.

استشاط غيظًا من ردها فهدر بها:

- اسكتي يا ولية، بلاش كلامك اللي يفقع المرارة ده، أنا مش ناقصك.

زمت شفتيها معترضة على إسكاته لصوت الحق:

- هو أنا كفرت؟

وقبل أن يزيد من تعنيفه لشخصها الساذج انتبه ثلاثتهم لصوت الدقات القوية على باب المنزل، أمرها بعصبية مستخدمًا يده في التلويح:

- روحي شوفي مين جايلنا السعادي.

- حاضر.

انصاعت "وداد" له وسارت في اتجاه الباب مُلقية حجابها الداكن العريض على رأسها فانسدل يغطي كتفيها والجزء العلوي من ثوبها المنزلي، أدارت المقبض لتفتحه فتفاجأت بوجود "نوال" عند أعتابه، عرفتها من ملامحها التي لم تتغير كثيرًا عن السابق، تحفزت الأخيرة للانقضاض على كل مَن يتجرأ على ابنتها دفاعًا عنها؛ لذا قالت عاليًا ودون أي مقدمات ترحيبية:

- جوزك فين يا "وداد"؟

ردت مستنكرة تجريد زوجها من أي لقب يوقره:

- مالك داخلة هجم علينا كده من غير إحم ولا دستور، ده البيوت ليها حُرمة؟!

اندفعت تلكزها في كتفها وكأنها غير مرئية بالنسبة لها لتلج للداخل وهي ترد:

- ده لما يبقى فيها رجالة من الأول!

اشتعلت حنقًا من وقاحتها فلحقت بها لتمسك بها من ذراعها حتى تجبرها على الوقوف وهي تحذرها:

- اكلمي عدل يا مَرَة، إنتي هنا في بيتي.

انتشلت "نوال" ذراعها من قبضتها بعنف وقد التفتت إليها لفتة سريعة حادة:

- كلامي مش معاكي، حاسبي!

دفعتها من جديد لتنادي بصوت حـاد أسمع جميع من في المنزل:

- يا "متولي"!

خرج الأخير لمقابلتها قائلًا باندهاش:

- "نوال"!

رحب بها "مصطفى" بودٍ استنكره أبويه:

- يا أهلًا وسهلًا يا حاجة، ده البيت نور بوجودك.

رمقته بنظرة غامضة قبل أن تشيح بعينيها عنه لتتهم "متولي" قائلة:

- بتسلّط عليا العيال يتهجموا عليا وعلى بنتي؟

انتفخت أوداجه غضبًا من افترائها عليه، ضرب الأرضية بعكازه الخشبي يحذرها:

- إنتي بتتكلمي عن إيه؟ عيال مين دول؟

تابعت بلهجتها المتعصبة:

- ولا فكرك عشان إحنا لوحدنا هنخاف ونخ؟ تبقى غلطان يا "متولي"، أنا هافرجك "نوال" هتقدر تعمل إيه!

تساءل "مصطفى" مستفهمًا وهو لا يستطيع إخفاء دهشته:

- حصل إيه تاني يا خالتي؟

جذبت "وداد" ابنها من ذراعه ليميل نحوها ثم سألته بضيق:

- خالتك منين يا واد؟! هي تقربلنا أصلًا؟!

رد هامسًا من بين شفتيه المضغوطتين:

- مش وقته يامه.

ثم تساءل مجددًا بنبرة قلقة:

- هو حد اتعرضلكم تاني؟

تطلعت إليه بعينين تطلقان شرارات الغضب وهي تضيف بغموضٍ ضاعف من ارتباكه:

- اسأل أبوك وهو يقولك!

برقت عيناه وهو يعاود التحديق نحو والدته، في حين أكملت "نوال" تحذيرها شديد اللهجة لـ "متولي" فقالت له:

- بس قسمًا عظمًا اللي هيمس شعرة من بنتي ولا يأذيها هاقرقشه بسناني وهو حي!!

نظرة أخيرة نارية منحتها له قبل أن تتابع:

- اللهم بلغت اللهم فاشهد.

انصرفت بعدها ودماؤها الثائرة ما زالت تندفع بغزارة إلى عقلها، لكنها رحلت مُخلِّفة ورائها عاصفةً زلزلت جدران "متولي" وعائلته، أحست "نوال" بنغزة عنيفة تعتصر قلبها مما دفعها لتسير بتباطؤٍ ملحوظ، استندت بيدها على شجرة قريبة ساحبة أنفاسًا عميقة علّها بذلك تهدئ من حدة الانقباضة الفتاكة، شعرت بعرقها البارد يغرق جسدها، ارتفع حاجباها للأعلى في توترٍ قلق، للحظة انتابها هاجسًا قويًا بدنو أجلها، أدمعت عيناها خوفًا من موتها دون أن توفر الحماية المطلوبة لابنتها، تضرعت وسط إعيائها راجية المولى أن يهون عليها ألمها حتى تنتهي مهمتها، بالكاد استطاعت أن تكمل طريقها إلى منزلها دون اللجوء لمساعدة أحدهم، توقفت عن المشي لتلتقط أنفاسها، حاولت قدر المستطاع أن تتصرف بصورة طبيعية كي لا تثير شكوك ابنتها فتكتشف مسألة تعبها المتزايد مؤخرًا، حثت نفسها على الصمود أمامها ومقاومة المرض إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

*****

تقلبت شفتاها في امتعاضٍ متأفف كعادتها التي لازمتها تعبيرًا عن اشمئزازها كلما رأت "مريم" بجوارها، لم تتقبل فكرة تصحيح هويتها، نفرت منها وعاملتها كالذي يحمل مرضًا معديًا، فلم تحتضنها منذ إجرائها للعملية، بل إنها لم تلمسها مطلقًا، في البداية لم تعِ ابنة

أختها تصرفاتها الشاذة، ومع نضوجها أدركت نفورها منها، بادرت "نوال" قائلة في عتابٍ سافر بعد أن مضت عدة أسابيع دون أن تفكر شقيقتها في زيارتها رغم معرفتها بعودتها:

- ما لسه بدري يا "فايزة"، جاية على نفسك ليه؟ دي البلد كلها زارتنا وسألت علينا إلا اللي من لحمي ودمي!

ضمت أختها شفتيها بقوة لتحبس الكلمات في جوفها، بينما تابعت "نوال" متسائلة بكلماتٍ موحية:

- ولا تلاقي في حد منعك؟!

أجابتها بارتباكٍ:

- لا ياختي، بس مشاغل البيت والعيال.

ثم ازدردت ريقها لتدعي كذبًا:

- ده حتى "طلعت" جوزي كان عاوز يجي معايا يسلم عليكي ويشوف ... بنتك.

ووجهت نظراتها نحو ابنتها تسألها في سماجة فظّة:

- هي اسمها إيه؟ معلش أصلي بقيت بنسى كتير.

هنا خرجت "مريم" عن هدوئها بعد تجاهلها المتعمد لها واعتبارها نكرة لا قيمة لها، هبت واقفة تُطالعها بنظرة حادة مليئة بالغضب، ثم أجابتها بحرقةٍ ظاهرة في صوتها المهتز:

- اسمي "مريم" يا خالتي، "مريم"! يا ريت تحفظيه كويس عشان ماتنسيهوش تاني، عن إذنك.

لم ترغب في البكاء أمامها قهرًا على معاملتها الجافية التي تثير في نفسها الحَنق والبغضاء، انسحبت مستأذنة من والدتها التي تفهمت عزوفها عن الجلوس مع خالتها، فكيف لإنسان أن يطيق البقاء مع مَن يعامله كشيء حقير، تريثت حتى اختفت عن أنظارها لتعنف أختها بشدة، فقالت لها:

- مش ناوية تلمي نفسك وتعاملي بنتي كويس.

ردت ببرودٍ ممتزجٍ بالسُخط:

- هو أنا عملت إيه؟ كل ده عشان قولتها مش فاكرة اسمك، تقولش غلطت في البخاري!

حذرتها رافعة سبابتها في وجهها:

- لو اتكرر ده تاني أنا هزعلك يا "فايزة"، وهانسى من الأساس إن ليا أخت!

رسمت شقيقتها ابتسامة متكلفة على مُحياها معتذرة منها:

- حقك عليا ياختي، والله ده إنتي غلاوتك عندي أد كده، وبعدين زي ما قولتلك شغل البيت وطلبات العيال وأبوهم هادين حيلي.

سألتها "نوال" مجددًا مستنكرة مبرراتها الواهية:

- بردك ماجتيش ليه تزوريني وتقفي جمبي؟

أجابتها دون مراوغة:

- "طلعت" كان حالف عليا بالطلاق لو جيتلك.

اعتدلت في جلستها ترمقها بنظرة غريبة، ثم سألتها:

- وإيه اللي اتغير؟

عضت على شفتها السفلى قبل أن تجيبها بتردد:

- اترجيته أجي أشوفك.

رفعت "نوال" حاجبها في اندهاش، فلم تنطلِ عليها تلك الكذبة المكشوفة، ومع هذا تابعت متسائلة بشكلٍ روتيني:

- ووافق؟

أومأت برأسها قائلة:

- أيوه.

ظهرت تكشيرة جانبية على شفتيها وهي تقول باستنكار:

- مش بعوايده يعني!

تنحنحت "فايزة" مضيفة بتمهلٍ حذر:

- أصله باعتني واسطة خير.

أعادت رأسها للخلف وقد فطنت لما تحاول البوح به مرددةً بنصف ابتسامةٍ متهكمةٍ:

- قولتيلي بقى.

ابتلعت ريقها لتمنح نفسها الفرصة حتى تستجمع جأشها، ثم نطقت بعينين ترمشان في ترددٍ قلق:

- هو عاوز ترجعي الأرض لـ "متولي".

صاحت فيها أختها باستنكارٍ:

- ليه؟ كانت من بقية أملاكه وأنا معرفش؟!

أزيح القناع عن وجهها الحقيقي فقالت لها:

- يا "نوال" إحنا مش عاوزين مشاكل، إحنا بنقول يا حيطة داريني، جاية إنتي تقفي في وش القطر بعمايلك، وكله ده عشان حتت أرض!

ردت وهي تتنفس أنفاس الضيق:

- بأقولك إيه يا "فايزة"، خدي واجبك وارجعي لبيتك وعيالك، زمانتهم قلقانين عليكي.

اغتاظت من جفائها معها فهتفت وكأنها تتوعدها:

- بقى كده ياختي؟

ردت بعدم مبالاة:

- ابقي تعالي، مع السلامة.

رفعت عينيها إلى وجهها تتحداها وكأن فيهما تصميم مريب، ثم قالت عن قصدٍ بعد أن نهضت عن مقعدها:

- ماشي، متشكرة، بس قبل ما أمشي لازم تعرفي حاجتين، "عوني" ابن خالتك رجع من بلاد برا وشغال في المركز، ولما عارف إنك هنا باعتلي مرسال إنه طالب يشوفك.

ارتبط ذكر اسمه بمشاهد متنوعة جمعت بين الفرحة والألم، بين السعادة والتعاسة، بين الراحة والشقاء، ومع ذلك نجحت "نوال" ببراعة في السيطرة على سيل الذكريات المتسلل إلى عقلها وكبْحه قبل أن يؤثر على تعبيراتها لتعلق بجمود وكأنها لم تقل شيئًا غريبًا:

- وتاني حاجة؟

أجابتها مباشرة قاصدة الضغط على كل كلمة تتفوه بها:

- "منصور" خلف الواد اللي كان نفسه فيه.

هنا ارتخت نظرات "نوال" وانعكس وقع جملتها عليها، فامتلأت عيناها بالعبرات حسرةً على حالها، وتجهمت ملامحها كليًا واكتست بعبوسٍ مريبٍ، حتى أن كتفيها تهدلا وأصابت أطرافها رعشةٌ قوية، تأملت "فايزة" ما يحدث لأختها بفتورٍ، ظنت أنها ثأرت لكرامتها بإطلاق قذائفها الصادمة في وجهها دون أن تعبأ بتدميرها نفسيًا، لم تضف المزيد واكتفت بما حققته من انتصار سريع ربما سيقضي عليها من صعوبة تصديقه، ودعتها بكلماتٍ مقتضبة تاركة إياها تعاني من صدمتها، كانت "فايزة" محقة في اعتقادها بأن بعض الصدمات لها تأثيرها الفعَّال على أصحابها، في البداية تخشبت "نوال" في مكانها مستشعرة النهجان العنيف في صدرها، وضعت يدها عليه تفركه في وهن، ولكن أصابتها انتكاسة مفاجئة جعلت قلبها ينقبض بعنف، شعرت بعشرات الوخزات -والتي تشبه الطعنات في حدتها- تضرب صدرها بقوة وتكاد تفتك به، تحشرجت أنفاسها وانحبس صوتها في جوفها، بذلت مجهودًا مضنيًا لالتقاط أنفاسها، كانت شبه عاجزة عن الحركة أو حتى طلب المساعدة والاستغاثة بمن في المنزل لإنقاذها، انقباضة أخرى أشد قسوة اعتصرت قلبها جعلتها تتيقن في قرارة نفسها أن لحظتها قد حانت، لفظت "نوال" أنفاسها الأخيرة ودمعاتها الحبيسة قد تحررت لتنساب على وجنتيها تاركة ابنتها تواجه مجهولًا حافلًا بالكثير من التحديات الصعبة.

*****

الفصل الثاني عشر

الأصالة عُرفت عنهم كصفة متأصلة في طباعهم الشخصية حينما تشتد الأزمات وتتكالب المصائب على أحدهم، فيتكاتف الجميع معًا ويتركوا نزاعاتهم جانبًا حتى يتم التعامل مع الموقف المتأزم، اجتمع أهل البلدة في منزل "نوال" الجديد بعد انتشار خبر وفاتها ليقدموا يد العون لابنتها المصدومة، فهناك من تولى إجراءات الدفن القانونية، وآخرون رتبوا لمراسم دفنها في مقابر العائلة، ناهيك عن النساء اللاتي شاطرن إياها أحزانها بالدعاء تارة والعويل تارة أخرى.

جلست "مريم" بينهم كالغريبة، لا تعرف أغلب الوجوه التي تتفحصها قبل أن تواسيها، تجاهلت من حولها وانزوت تبكي في أقصى ركن بصالة منزلها تتحسر على وفاة أغلى الأحباب، باتت حياتها موحِشة بدونها، باتت شبه متيقنة أنها ستهلك مع أول عاصفة تواجهها، طأطأت رأسها في حزنٍ عميقٍ وتركت لخالتها مهمة استقبال المعزيين والقيام بما هو مطلوب في مثل تلك المواقف، لم تتوانَ "فايزة" عن تقديم يد المساعدة كنوعٍ من إراحة ضميرها الذي ظل يؤرق مضطجعها ليل نهار ويشعرها بالذنب طوال الوقت.

اقتربت إحدى السيدات من "مريم" لتعزيها، مالت عليها وقبّلت أعلى رأسها وهي تقول لها بعض الكلمات المواسية لتهون عليها مصابها الأليم، كانت الأخيرة واجمة، شـاردة، في عالم معزولٍ عمن حولها، سرحت بذاكرتها لتلك اللحظة التي اكتشفت فيها موت والدتها، صرخت تناديها بقلبٍ منفطرٍ، توسلتها، بكتها بحرقة، قَبّلت كفيها الباردين ترجوها أن تنهض من رقدتها الأخيرة، لا استجابة على الإطلاق، سكون مخيف جعلها تزداد هلعًا عليها، صرخت حتى بُح صوتها وانقطع، احتضنتها بقوة وهي تبكي كمدًا عليها، أدركت حينها أنها تخلت عنها وتركتها وحيدة، بدون سندٍ يحميها في مجتمعٍ يسحق الضعفاء، حتى الخادمة جثت وقتها على ركبتيها وعلى مقربة منها تبكي حزنًا على سيدتها الراحلة، فقد كانت حسنة المعشر، لم تشعرها يومًا أنها فقيرة، وكانت تغدق عليها بالكثير من الخيرات فأحبت العمل لديها؛ لذا أوجعها فراقها.

امتدت يدٌ لمصافحتها فأجبرتها على استعادة الرؤيا لمحيطها الواقعي، رفعت "مريم" عينيها الباكيتين لتنظر إلى صاحبها، كان "مصطفى" ينظر لها بإمعانٍ، أرخت نظراتها عنه محافظة على انعقاد ساعديها حول صدرها، سحب يده قائلًا لها بنبرة مواسية:

- البقاء لله، ربنا يجعلها آخر الأحزان، ومتقلقيش إحنا كلنا جمبك ومعاكي.

اعتبرت ما قاله لغوًا فارغًا لا يعني لها شيئًا ويُردد فقط في المواقف المشابهة كنوعٍ من

تقضية الواجب، مال نحوها لتشعر بأنفاسه قريبة منها وهو يكمل مؤكدًا بهمس جاد:

- لو عوزتي حاجة هتلاقيني جمبك.

التقت عيناها الضائعتان بنظرات عينيه العميقتين فشعرت بنفس إحساس الأمان الذي تجسد معه وقت حادثة الطفولة، تجاذب غريب استمر للحظات بين أعينيهما، وكأن الزمن عاد بها للوراء ليذكرها بما فعله آنذاك من أجل حمايتها، فجأة تقلّص وجهها في انزعاجٍ متأفف متذكرةً أن ما بذله من تضحية كان لـ "طاهر" الوريث الذكر المفضل للجميع، وليس لفتاة منبوذة من الأقربين، قست نظراتها نحوه وقالت بنبرة مليئة بالشجن رغم خفوتها وكأنها بذلك تدفن ذكرياتها بلا رجعة:

- "طاهر" اللي كنت عارفه مات من زمان!

حملق فيها باندهاش عجيب بعد سماعه لجملتها الهامسة التي ظنت أنه لن يسمعها، لم يفهم المغزى من وراء قولها الغامض، لكنه أوغر صدره، وأثار حفيظته وضيقه، مضت "مريم" تتلمس طريقها بعيدًا عنه وعن باقي المزعجين لخلوتها الحزينة، في حين بقيت أنظاره المهتمة ملازمة لها.

*****

انتهت أيام العزاء، وأصبحت "مريم" بمفردها في ذلك المنزل الكبير، إلا أن خالتها بقيت إلى جوارها لتشد من أزرها حتى ضجر زوجها من مكوثها معها، انتظر انصراف آخر المعزيين ليذهب إلى زوجته، أشار لها بإيماءة واضحة ومفهومة من حاجبه لتتبعه، انزوى بها بعيدًا عن ابنة أختها ليسألها بوجهه المتكفهر:

- هتفضلي هنا كتير؟ مش قضينا المولد؟!

نظرت له بعتاب قبل أن ترد:

- يعني عاوز الناس تاكل وشي ويقولوا سايبة عزا أختها من غير ما تعمل الأصول؟

ضرب "طلعت" كفه بالآخر مرددًا بتذمر:

- والعزا خلص خلاص، وعملتي الواجب وزيادة، يالا على بيتنا!

تلفتت حولها لتتأكد من عدم استراق أحدهم للسمع قبل أن تهمس بضيق:

- طب والبت؟ هاعمل إيه معاها؟ هاسيبها تبات لوحدها كده و....

قاطعها مبرطمًا بملامح مقلوبة تعبر عن اشمئزازه:

- هو حد عارف إن كانت واد ولا بت!

تعقدت تعبيراتها مرددةً في ضيق:

- بتقول إيه يا "طلعت"؟ الناس ليها الظاهر، ودي بنت قصاد الكل حتى لو غحنا مش عاوزين نصدق ده أو حتى نعترف بيه!

رد عليها بوجهه العابس وهو يشير بعينيه:

- خلاص اتنيلي اقعدي معاها لحد ما نشوفلنا صرفة بعد كده.

رَبَّتت على كتفه تشكره في امتنانٍ:

- تسلم ياخويا، دايمًا صاحب واجب.

نظر لها شزرًا فقد احتوت جملتها على تلميحًا ساخرًا منه، استدار "طلعت" خارجًا من المنزل دون أن يفكر في تعزية "مريم"، اصطدم أثناء مشيه بحجر صغير، ركله في غيظ ثم أكمل سيره، لكن لاح فجأة شبح فكرة لئيمة غابت عن ذهنه مؤقتًا، توقف عن السير وجلس على المصطبة الخارجية المجاورة لسور المنزل ليستخلص عصارة أفكاره الطامعة التي استحوذت على تفكيره، فكر بتمعنٍ دقيقٍ حتى وصل إلى خُطته الماكرة ألا وهي استغلال موت "نوال" المفاجئ وتحقيق ربح مادي سريع من ورائه، فقط كل ما عليه أن يلجأ للتقاليد المجتمعية السائدة ويدعمها بالحجج المقنعة حتى تسير الأمور وفق أهوائه الشخصية، فرك "طلعت" راحتيه معًا مرددًا لنفسه في انتشاءٍ سعيد:

- شكل البلية هتلعب معاك والدنيا هتزهزه!

*****

التقى به في المقهى الشعبي ليطلعه على خُطته اللئيمة، أصغى "متولي" لكل كلمة يقولها "طلعت" باهتمامٍ كبيرٍ، ولما لا؟! وهو سيحقق له ما يتمنى دون عناءٍ يُذكر؟ تضمنت الخُطة خداع "مريم" بالحيلة لاسترداد أرضه المنهوبة منها مقابل مبلغ مالي زهيد، رحب الأول باقتراحه وأيَّده بشدة، بل وأبدى موافقته على منحه مكافأة مالية نظير مساعدته وتعبه في تنفيذ الخُطة، وأيضًا حتى يضمن ولاءه وتدعيمه له حينما تتخذ الأمور منحنى جادًا، كان صوت "طلعت" مسموعًا وهو يرتشف الجزء المتبقي من شايه قبل أن يضع كوبه في الصينية متابعًا بتجشأ:

- أنا هاعملك مشكلة مع الجماعة بتوعي وأخليها تسيبها، لا وهارفض إن البت دي تقفل

لوحدها، أل يعني بحجة إن مافيش حريم عندنا يقدوا لوحدهم، ولما مراتي تزن عشان تيجي عندي أنا هاتحجج بإن البيت ضيق ومش ناقصين راس زيادة.

قال "متولي" في إعجاب:

- الله ينور، وده دوري بقى باعتباري في مقام عمها.

هز رأسه معقبًا عليه:

- مظبوط، وبعدين هتخش عليها بالحنجل والمنجل، وتقولها مش عاجبك كلام الناس عنها، وتكلم عن السواق اللي بيقضيلها طلبتها، وماصحش يكون في البيت راجل غريب برا العيلة مالوش أي صفة، وإن الكلام ده بيمس سمعة وشرف العيلة، ولازم تيجي تقعد معاك عشان تخرس الألسنة دي.

اعترض عليه برفض تام:

- بس أنا مش عاوزها عندي!!!

صحح له:

- ده كلام كده بتقوله عشان يسبك الدور، وفي نفس الوقت تضغط عليها، لو هي عاوزة تعيش لوحدها يبقى ترجع من مطرح ما جت، وأفتكر إنها ما هتصدق تغور من هنا، ولا إيه؟

هز رأسه في استحسانٍ وهو يرد:

- كلامك عين العقل.

أضـاف "طلعت" قائلًا بابتسامةٍ لزجة أظهرت اصفرار أسنانه واتساخها:

- ساعتها بقى هتقدر تفتح معاها موضوع الأرض بقلب جامد وتقدر كمان تجبرها تبيعلك بالسعر اللي إنت عاوزه عشان تغور في داهية.

اتسعت ابتسامة "متولي" الحالمة ولمعت حدقتاه ببريق غريب، غمز له "طلعت" مشددًا عليه:

- بس ماتنسانيش ساعتها في الحلاوة يا عم الحاج.

كان رده مشروطًا حينما قال:

- هاحليلك بوك على الآخر، بس أطول الأرض الأول!

أكد له عن ثقة عمياء:

- هايحصل، وبكرة تدعيلي.

استند "متولي" بقبضتيه على رأس عكازه يهزه باهتزازة خفيفة وقد تعلقت نظراته بالفراغ آملًا أن تغدو أحلامه واقعًا ملموسًا.

*****

جلست على فراشها تضم ركبتيها إلى صدرها وتحاوطهما بذراعيها لتتكور أكثر على نفسها وقد أحست بجدران غرفتها تطبق على أنفاسها بسبب دوامة الأحزان التي تعيش وسطها، قلَت شهيتها لتناول الطعام، بل يكاد يجزم مَن يتطلع إليها وهي تجبر نفسها على دس الطعام في جوفها بأنها تقتات فقط لتبقي أجهزتها الحيوية على قيد الحياة، لم تتوقف عن البكاء إلا حينما تنضب دموعها، أصبح جفناها متورمان كليًا يشوبهما حمرة ملتهبة، أما وجهها فصار شاحبًا مليئًا بأمارات التعاسة والبؤس، لم يهتز لها طرف حينما طرقت الخادمة الباب برفق مستأذنة بالدخول، ظلت كالصنم جامدة في مكانها، أطلت الأخيرة برأسها لتبلغها بصوتٍ خافت وهادئ:

- الحاج "متولي عمران" جاي يشوفك يا أبلة "مريم".

التفتت نحوها ببطءٍ تُطالعها بنظرة حزينة من عينيها اللاتين تفيضان بالدمع، استأنفت الخادمة قائلةً بتهذيبٍ:

- أنا حاولت أقوله إنك مريحة شوية بس هو مصمم يطمن عليكي بنفسه.

هزت "مريم" رأسها بهدوءٍ كإشارة ضمنية عن موافقتها على مقابلته، تحركت بعدها بتثاقل من على الفراش حتى نهضت عنه، ثم ســارت في اتجاه المرآة لتتأمل حالها البائس، فخصلات شعرها متبعثرة بشكل متنافر، والهالات السوداء تملأ صفحة وجهها، مسحت بأناملها بقايا عبراتها التي بللت صدغيها، ثم هذّبت شعرها المتناثر بيدها والتفتت إلى جانبها تبحث عن غطاء رأسها، وضعته على شعرها غير الممشط لتخفيه دون أن تعقده بدبوس، استعدت لرؤيته وهي لا تضمر أي نوايا سيئة نحوه، صافحته وتلقت كلماته المواسية لها بهزة صغيرة من رأسها، جلست على مقربة منه تصغي دون انتباه كامل لحديثه العشوائي العام كمقدمة تمهيدية لما سيأتي بعد ذلك. تفاجأت به يخبرها بعدم رضائه عن بقائها هكذا بمفردها دون وجود رجل يُعيلها، واعتراضه الشديد على وجود "خيري" يوميًا بالمنزل في وقت النهار وإن كان لا يبيت فيه، ثم ختم حديثه باعتقاده بأن الخيار الأفضل لها الانتقال للعيش معه ومع عائلته، خاصة بعد تعذر خالتها وزوجها عن استقبالها كضيفة دائمة في منزلهما المتواضع، استنكرت "مريم" بشدة قراره الذي اتخذه عنها دون استشارتها أولًا بل

واعتبارها شخصية نكرة غير مؤهلة لتقرير مصيرها، انتصبت واقفة لتحتج عليه بقوةٍ لا تعرف من أين واتتها:

- أنا حرة نفسي، محدش يقولي اقعد فين وماقعدش فين!

نهض هو الآخر يواجهها ضاربًا بعكازه بعنفٍ على الأرضية ليخيفها وهو يرد معترضًا عليها:

- إنتي مش هاتعلمينا الأصول يا بنت "نوال"!!!!

النظرة التي رمقها بها كانت كافية لإشعال جذوة غضبها، فهاجمته بحُرقةٍ وقد احتقنت بشرتها بشكلٍ كبير:

- الأصول إنتو متعرفوهاش!

ضاقت عيناه غيظًا من جراءتها، بينما ازدادت نبرتها تشنجًا وهي تكمل بألمٍ وشجن:

- ده إنتو محدش فيكو سأل فيا وأمي عايشة، إنتو تقريبًا كنتو متبريين مني، معتبريني مسخ عايش وسطكم، سايبين الناس تتكلم بالوحش عني ومحدش بيرد، ده لو حتى كانوا اغتصبوني ولا كنت فرقت معاكو! دلوقتي بس افتكرتوني وجايين تقولولي الأصول بتقول معرفش إيه.

نظر لها في صمتٍ مشحونٍ بحنقه عندما صرخت في وجهه بصوت ينهج:

- فمحدش فيكو يجي يقولي إيه اللي يصح وإيه اللي مايصحش!

قال كأنه لم يسمع حرفًا واحدًا مما قالته رغم العبوس الذي يغطي قسماته:

- الكلام اللي قولتيه ده مش هحاسبك عليه دلوقتي، أنا بردك مقدر ظروفك.

ردت ساخرة بنبرتها المختنقة:

- لأ واضح فعلًا!

ارتفع الكدر في عينيها حينما قال في كلمات بطيئة ذات مغزى:

- كله في وقته يا بنت الـ ... الأصول!

رمقها بنظرة أخيرة من عينيه اللتين غلّفهما الإظلام يحتقرها فيها، ضرب من جديد بعكازه الأرضية لتصيب أطرافها رجفة خفيفة تمنت ألا يكون قد لاحظها فيظن أنها ارتعدت من وعيده، تماسكت أمام قسوته التي ظهرت خلال حديثها معه تبادله النظرات المتحدية، مستبسلة في الدفاع عن حقها في الاختيار إلى أن رحل، عندها انهارت باكية بمرارةٍ

وانكسارٍ، تلاشى قناع القوة الذي ارتدته مؤقتًا في حضوره الطاغي لتظهر من خلفه رقتها وحساسيتها. جثت "مريم" على ركبتيها دافنةً وجهها بين راحتيها، ارتفعت شهقاتها المكتومة وامتزجت مع أنينها الموجوع، فإحساسها بالأمان انعدم تمامًا مع رحيل مَن كانت تؤمن لها الحماية والسند، هرولت نحوها خادمتها لتجثو بجوارها، أشفقت كثيرًا على حالها البائس، رَبَّتت على ظهرها بخفةٍ، ظهرت علامات التردد على وجهها وهي تتأملها، قررت أن تتراجع حاليًا عن إخبارها بتركها للعمل نتيجة تهديد "متولي" الصريح بتشريد أفراد أسرتها إن استمرت بالعمل لديها، أجلت ذلك الخبر المشؤوم حتى تستعيد تلك المسكينة تماسكها، فهي مثل غيرها من الفقراء مجبرة على طاعة ذوي القوة والسلطة.

*****

ما زالت تشعر بتلك الرهبة كلما سارت بين المارة، ترتاب من الأعين الفضولية التي تتفحصها عن قصدٍ أو بدون لتتأكد من معالمها الأنثوية، لم تختبر مثل ذلك الرعب المستمر كلما لمحت أحدهم يرمقها بنظرة غريبة غامضة تكاد تجزم من خلال طريقة تحديقه بها كما لو كان يمتلك أشعة تحت الحمراء يخترق بها ثيابها السوداء الفضفاضة لينظر إلى ما يوجد خلفها، حتى همهماتهم غير المفهومة تلتقطها أذناها فتؤكد لها إحساسها بأنها محط أنظارهم. منذ ترك الخادمة للعمل لديها ورحيل السائق "خيري" أصبحت "مريم" مسئولة عن رعاية نفسها وتلبية احتياجاتها الضرورية، فإن لم تفعل ذلك لتضورت جوعًا وعانت من قلة النظافة، مشيت في عجالة بعد أن ابتاعت ما ينقصها من محل البقالة القريب، طاردتها الوساوس بأن هناك مَن يتبعها خِلسةً كظلها، هي تشعر بوجوده حولها لكنها لا تراه، خفق قلبها بقوةٍ، توهمت أن يكون أحد هؤلاء الوقحين يتربص بها حتى يتحين الفرصة المناسبة لخطفها والاعتداء عليها استجابة لغريزته الحيوانية في اختبار جسدها الأنثوي الذي تحول لمادة مثيرة لاهتمام أغلب مَن في البلدة بعد انتشار قصتها القديمة.

انعطفت عند طريق شبه خالٍ من المارة، فتضاعف توترها الخائف، فشلت في تهدئة روعها، مخاوفها تزداد مع سيرها بمفردها، انفلتت منها صرخة مفزوعة حينما شعرت بتلك اللمسة الخفيفة على كتفها، ارتخت أصابعها عن مشترياتها فسقطت على الأرض وتبعثرت في كل مكان، ثم استدارت كالملسوعة للخلف لتنظر لمن تجرأ على فعل ذلك، إلى حد ما تناقص رعبها بعد أن رأت وجهه المألوف وتأكدت من حسن نواياه حينما بادر معتذرًا بشدة:

- أنا أسف يا آنسة "مريم"، مقصدش أخوفك!

لعقت شفتيها الجافتين بلسانها حتى ترطبهما بعد أن سيطر عليها الخوف، تابع "مصطفى" كلامه المعتذر قائلًا في ندمٍ:

- أنا بتأسفلك مرة تانية، بس لما لاقيتك ماشية لوحدك في حتة مقطوعة زي دي، قولت يعني أمشي جمبك لحد ما أوصلك البيت بدل ما حد يضايقك ولا حاجة.

أخفى عنها نيته الحقيقية في تتبعها لضمان عدم تعرض أحدهم لها من أصحاب النفوس الخسيسة الذين يترقبون فرصة كتلك للاختلاء بها وإيذائها بشكل بشع، لم يكن ليتحمل ذلك أبدًا، شعر أنها مسئولة منه وإن لم تقبل بذلك، خاصة بعد رؤيته لحالها المكلوم يوم وفاة والدتها، كذلك بحكم جلوسه مع الشباب سمع بعضًا من أحاديثهم اللاهية التى جمعت بين المجون والهزل وكانت هي محورها بشكلٍ غير مباشر مما استفز حميته الذكورية فتارة يشتبك معهم بالألفاظ فقط مهددًا بإحراقهم أحياء إن تجرأت ألسنتهم لذكرها، وتارة أخرى بالألفاظ والأيدي حتى يدك عظامهم، فلا ينجدهم من غضبته المندلعة إلا هلاكهم. بات "مصطفى" يعود يوميًا إلى منزله ولديه كدمة إما في وجهه أو إصابة في كتفه أو جُرح عميق في جزء مخفي من جسده، المهم ألا يدع الألسن الدنيئة تأتي بسيرتها، لاحظت "مريم" وجود آثار تورم خفيف عند عينه اليسرى، ومع هذا لم تسأله، قالت له بتهذيب يحمل الجدية:

- شكرًا، أنا عارفة طريقي كويس.

تنحنح معقبًا على جملتها الأخيرة والتي لم يستسيغها:

- أكيد، بس ده مايمنعش وجود راجل معاكي، وخصوصًا إننا قرايب و...

احتدت نظراتها مع سماعها لتلك الكلمات المستفزة التي أُستخدمت لإخضاعها تحت سلطة عائلة نبذتها منذ سنواتٍ فقط لأجل مصالحهم الشخصية دون أن يعبأوا بها أو برغباتها الخاصة، ثارت "مريم" في وجهه رافضة بشكلٍ قطعي مساعدته:

- وأنا مش محتاجة أي راجل معايا، أنا أعرف أتعامل كويس مع أي حد يفكر يضايقني.

ثم أشارت بيدها كأنها تأمره بلهجة غير قابلة للتفاوض:

- تقدر تسيبني وتمشي!

كَسَت نظراته حُمرة حانقة من ردها الفظّ، حافظ على ثبات تعابيره الهادئة وهو يرد عليها بإصرار:

- أنا مش هضايقك، همشي قريب منك، بس عشان تكوني مطمنة.

رفضت معاندة:

- قولتلك مش عاوزة!!

تراجع خطوتين للخلف ليجمع ما تناثر من أشيائها التي اشترتها غير مستجيب لرفضها الصريح، حَدَجته بنظرة مغتاظة من تصرفه المتحدي لها، بدت كمن ينفث دخانًا من أذنيها من شدة انزعاجها حتى انتهى، وقف "مصطفى" قبالتها يناولها الأكياس قائلًا بابتسامة لطيفة لها سحر خاص فقط إن دققت النظر فيها:

- اتفضلي، وأي خدمة!

جذبتهم بعنف من يده وأولته ظهرها لتكمل سيرها دون أن تمنّ عليه بكلمة شكر واحدة، ومع هذا لم ينزعج مطلقًا، اعتبر صمتها أنه بادرة ضمنية منها تعبر عن قبولها لمساعدته حتى وإن ادّعت العكس، ســار خلفها بعدة خطواتٍ يراقبها وهو يدس يديه في جيبي بنطاله، تأمل ارتباك خطواتها بسرورٍ، أحس برغبة حسية تنمو فيه وتجذبه نحوها بشكلٍ مثيرٍ وغامضٍ، رغبة شعورية تستثير عقله للتفكير دومًا فيها، وتزداد مع رؤيته لها وإن كانت لا تلاحظ اهتمامه بها؛ فالقليل منها يرضيه، والكثير من الوقت معها يغنيه عن متاع الدنيا بأسرها.

*****

أصبح بارعًا إلى حد ما في مراقبتها دون أن تشعر به، استغل فترات فراغه قبل وبعد عمله بالجمعية الزراعية في الجلوس على مقربة من منزلها يتابع حركتها القليلة ليشبع توقه لها، بات "مصطفى" لا يذهب تقريبًا للمقهى واعتزل سهراته مع أصدقائه فظنوا أنه به عِلّة ما، ببساطة شديدة أصبحت هكذا مسيطرة على كل اهتماماته، احتلت عقله، وصارت ضيفة دائمة في أحلامه الليلية، يغازلها بمعسول الكلام، وتبخل عليه بنظرات الهيام، لم يقاوم تلك المشاعر التي اجتاحت كيانه وغزت وجدانه، بل أقرّ لنفسه بحقيقة استلذها واستراح لها، هو واقع في غرامها، لا يعرف كيف بزغ حبها في قلبه، وكيف شغلت لُبه عن باقي النساء، لكنه كان متيقنًا أنه غارق حتى النخاع في عشقها، فقط لو يجد فرصة جيدة معها لتبديل كل المشاعر السلبية التي تُغلِّف قلبها وتحجب عنها حقيقة أكيدة أنها لم تعد بمفردها.

ذات يومٍ وقبيل وقت العشاء، لمحته "مريم" مستندًا بظهره على شجرة قريبة من منزلها وهي تجمع ثيابها الجافة، استغربت من وجوده وكادت تشتبك معه، لم ينقصها إلا أمثاله من المتلصصين عليها، ألا يكفيها وحدتها الموحشة ولياليها الطويلة الكئيبة ليزيد من سوء وضعها بوقفته المثيرة للريبة؟ قررت وضع حدًا لطيشه، زجرته صائحة بإهانة قاسية:

- مش عيب تعمل زي الرجالة الناقصة وتتجسس عليا؟

ابتلع إهانتها مرغمًا ليرد ببرود:

- أنا واقف في ملك الحكومة.

اعترضت عليه بحدة:

- الأرض اللي إنت واقف عليها ملكي أنا! ولا شكلكم نسيتوا!!

سألها بنفس الصوت الهادئ:

- قصدك مين؟

أجابته بحدة:

- إنت وأبوك وأي حد من طرفكم!

عبست تعابيره قليلًا وهو يعقب عليها:

- الله يسامحك، أنا مش هارد عليكي.

اِلتوَت شفتاها بابتسامةٍ متهكمةٍ قبل أن تعلق بغرورٍ:

- عشان معايا حق.

اعتدل في وقفته وتلّفت حوله ليتأكد من عدم متابعة أحدهم لحديثهما الخاص، تشجع للاقتراب منها مسافة معقولة حتى يتطلع إلى تفاصيل وجهها ويحفره في مخيلته، تنهد قائلًا بصدق وهو مُسبل عينيه:

- "مريم" أنا خايف عليكي أوي.

خفق قلبها لأسلوبه الناعم معها، فعنفته بشراسةٍ رافضةً السماح له بتخطي حدوده معها:

- إنت إزاي تناديني كده؟

تجاهل معاتبتها الحادة ليضيف بنيةٍ صافيةٍ:

- أنا وجودي هنا عشان أحميكي.

ردت عليه بصلابة عكس كرهًا تضمره لعائلته:

- وأنا مش مستنية حماية من حد، وخصوصًا إنتوا!!

عاتبها برقةٍ ونظراته الساهمة تتأملها:

- والله إنتي ظلمانا.

لم تتقبل كلماته الأخيرة وإن كانت عفوية، فصاحت باستنكار يحمل المرارة:

- إنتو اللي بدأتوا الظلم من زمان ولا نسيتوا؟ وكل ده بسبب حاجة ماليش يد فيها، لاني طلعت "مريم" مش "طاهر"!

استوعب غضبها المبرر قائلًا:

- والله أنا فاهم ده كله ومقدر وحاسس بيكي.

بتر باقي جملته حينما أسبلت عيناها نحوه، شرد في الهالة السحرية المحاوطة بهما متمنيًا في نفسه أن يحظى بالمزيد من الوقت معها، عمّق نظراته الهائمة متسائلًا مع نفسه:

- اعمل إيه بس عشان تحسي بيا؟

انتشلته من سرحانه المفاجئ فيها بتحذيرها له بلهجةٍ قاسيةٍ وقد احتدت نظراتها:

- متقولش حاسس بيا، إنت ماعشتش حاجة من اللي أنا عشتها!!

توسلها برجاءٍ علّ قلبها المختبئ خلف قسوتها الظاهرية يلين له:

- طب إديني فرصة أرجع الحق لأصحابه.

ردت دون تفكير:

- لو منكم مش عاوزاه.

اقترب "مصطفى" خُطوة أخرى لتتقلص المسافات تقريبًا مناديًا إياها بتنهيدةٍ جعلتها تضطرب بشكلٍ ملحوظ:

- يا "مريم"... أنا ...

لم تمهله الفرصة للتأثير عليها بأسلوبه الذي يوترها ويصيبها بالخجل، اندفعت للداخل مُوصدة النافذة خلفها، ثم أسدلت الستائر لتحجب عنه رؤية حتى ظلها من انعكاس الأنوار، سارت مبتعدةً عنها لخطواتٍ قبل أن يحثها شيء بداخلها للتراجع والنظر إليه خِلسة، عاودت أدراجها مُزيحة بأناملها أطراف الستارة لتبحث عنه، وجدته لا يزال واقفًا عند الشجرة، انتفض قلبها بتوترٍ وقد أمسك بها تنظر إليه، اشتعلت وجنتاها والتهبت بحمرتها الخجلة، على الفور تراجعت للخلف ونبضات قلبها تدق بارتباكٍ، ضغطت على شفتيها في ضيقٍ مستنكرةً تصرفها الأحمق والطفولي، قررت أن تركز حواسها في أعمال المنزل لتلتهي عن التفكير فيه.

انشغلت في تلميع الأثاث، وتغيير الأغطية والملاءات، وإعادة رص الثياب في الخزانة بعد غسلها، وانتقاء ما ستتبرع به من ملابس والدتها الراحلة للفقراء، استغرق انهماكها في تلك الأشياء بضعة ساعات تناست فيها أمره، وما إن انتهت من غلق جميع النوافذ وإحكام غلق أقفال الباب ووضع مقعد خلفه حتى ألقت بجسدها المتعب على الفراش، تأوهت بأنين خافت وهي تفرك عنقها المشدود براحة يدها، أغمضت عينيها في إرهاقٍ وبدأت تستسلم لرغبتها في النعاس، لكنه جال بخاطرها فجأة ليجعل جفنيها يتسعان، أتتها طاقة خفية دفعتها لتنهض من رقدتها حتى تنظر إليه لتتفقده. تأكدت تلك المرة من إطفاء الأنوار حتى لا يلمحها، رعشة مربكة أصابت أوصالها عندما رأته جالسًا في مكانه يعبث بعود من خشب الخيرزان بأصابعه، أرخت الستارة فورًا مستديرةً بجسدها للخلف ومستندةً بظهرها على الحائط وهي لا تصدق حقيقة بقائه بالخارج حتى تلك الساعة. نظرت مرة أخرى لتتحقق مما رأته، حتى أنها دعكت عينيها بقوةٍ لتتأكد من يقظتها، بالفعل لم تكن تتوهم ذلك، همست مرددة بذهولٍ:

- ده مجنون ولا إيه؟

عادت إلى فراشها ساحبة غطائها على جسدها وعقلها شبه مشغول به، استسلمت بعد دقائقٍ لسلطان النوم وغطت في سباتٍ عميق لأول مرة بعد ليالٍ صعبة وجدت فيها مشقة في النوم، أفاقت "مريم" قبيل الفجر بقليل تشعر بالعطش، مدت يدها نحو الكومود وأمسكت بالكوب المملوء بالمياه، ارتشفت القليل منه وأعادته إلى مكانه، همّت بالاستلقاء على جانبها لكن راودها هاجسٌ عجيبٌ بالذهاب إلى النافذة والتأكد من رحيل حارسها المجنون، أزاحت الغطاء عنها وانسلت من فراشها الدافئ تسير على أطراف أصابعها حتى بلغتها، وبكل حرصٍ أبعدت أطرافها لتلقي نظرة متأنية على الشجرة وظلالها، انفلتت منها شهقة مصدومة وقد لمحت طيفه يتمشى حولها، شعرت بهزة قوية في وجدانها، رفضت تفسيرها وقاومت رغبتها في تصديقه، فليس من المعقول بل المستحيل أن يكون هناك حقًا من يهتم لأمرها، ومع ذلك شعرت بنوعٍ من الارتياح لبقائه في الجوار، أعاد لها قدرًا قليلًا من ذلك الإحساس الذي افتقدته للغاية مؤخرًا، كانت ممتنةً له وإن لم تعترف بجميله عليها.

أصبح فعليًا جزءًا أساسيًا من روتينها اليومي، تفتح النافذة في المساء تجده مرابضًا عند الشجرة يتغزل بها بنظراته العفيفة، تخرج من بيتها نهارًا تلتقيه في طريقها وعلى مقربة منها وإن لم يكن يتطفل عليها، يسير فقط على مسافة جيدة تمكنه من اللحاق بها إن شاءت الأقدار ووقعت في مأزقٍ ما، رويدًا رويدًا اعتادت على تواجده معها، بل إنها في بعض الأحيان كانت تشعر بالضيق الشديد والانزعاج غير المفهوم إن غاب عنها ولم يظهر في

الأرجاء، فتظل عيناها تبحثان عنه حتى يظهر على الساحة، حينها فقط تسكن جوارحها ويستريح قلبها القلق، عرفت الابتسامة طريقها على مُحياها فأشرقت ملامحها وضجت بشرتها بحيويتها، وعندما تتكرر الزيارات غير المستحبة من "متولي" وزوج خالتها لتنغيص سلامها الهانئ وتكدير لياليها الهادئة تجده متواجدًا لأجلها يزود عنها باستماتة وكأنها جزءًا لا يتجزأ منه، أعاد لها "مصطفى" كرامتها المسلوبة بجدارة، كسب ثقتها بما يفعله لأجلها ودون انتظار أي مقابل، ابتسامة رقيقة منها تكفيه، لم تعد "مريم" تهاب أي شيء في حضوره، بدد كل مخاوفها، كان أمانها معه، قوتها تستمدها من شهامته، هو درعها الواقي الذي يمنع عنها شرور النفوس الخبيثة، أشعرها بآدميتها، آمن بأنوثتها التي يتكرها الأغلب، دعم حقها في الحياة كغيرها، ومدح خجلها بنظراته الساهمة، وبكثير من الصبر استطاع أن يُوجد مكانًا له في قلبها وإن لم تمتلك الشجاعة بعد للاعتراف بذلك.

*****

الفصل الثالث عشر

نقر بأنامله كحركةٍ اعتياديةٍ على مسند الأريكة الخشبي الجالس عليها في انتظار عودتها من المطبخ لتضيفه، لم يكن بحاجة لأي نوع من الاستقبال أو الترحيب، كل ما أراده الاطمئنان عليها وتعويضها عن خطأ الماضي الجسيم الذي كاد أن يدمر هويتها، توتر "عوني" كثيرًا بعد أن رآها لأول مرة خلال عزاء والدتها؛ بالطبع هو يعلم بالتطورات التي حدثت في غيابه، لكن أن يرى صاحبة المشكلة على أرض الواقع أمر مختلف كليًا؛ ظهرت "مريم" أمامه كشابة ناضجة تظهر عليها علامات الأنوثة بوضوح، وبحكم خبرته الطبية مع النساء أدرك فداحة ما فعله بها من أجل إرضاء زوج طامع، أبدى ندمه ورغب في الاعتذار لها والاعتراف بذنبه نحوها، ولكن لم يكن الظرف آنذاك مناسبًا للحديث معها، وخاصةً أن الأعين كانت مسلطة عليها تتابع بفضول شديد ما يصدر عنها؛ لذا فكر في زيارتها لاحقًا ليحظى بقدرٍ من الخصوصية وهو يبدي ندمه على ما اقترف، تأهب في جلسته وتوقف عن تحريك أصابعه حينما ظهرت ومعها صينية القهوة، أسندتها على الطاولة أمامه ثم رفعت فنجانه لتقدمه له، شكرها بابتسامةٍ ممتنةٍ وبدأ في تذوقها، بحث عن الكلمات المناسبة التي يستهل بها حديثه معها، بدأ بالتقليدي المعتاد حتى يذيب الحواجز الجليدية بينهما فتساءل:

- عاملة إيه دلوقتي؟

أجابته بفتور:

- الحمدلله.

صمت كلاهما للحظات كادت أن تطول إن لم يبادر "عوني" بترتيب أفكار عقله المشحون بعشرات الأسئلة وانتقاء ما يريد قوله حتى يحصل منها على ردود تريح ضميره المعذب، تنفس بعمقٍ قبل قطعه للسكون السائد متسائلًا بحذر:

- يا ترى المرحومة كلمتك عني؟

ردت باختصارٍ شديد أشعره بعدم أهميته:

- مش أوي.

ورغم كون ردها مزعجًا إلا أن عقله المتفتح تقبّل أي إنكارٍ أو هجوم عليه منها، قام بتعريف شخصه بصوته الهادئ الرزين:

- أنا اعتبر في مكان خالك، ماهو أنا و"نوال" مش بس ولاد خالة، لأ إخوات في الرضاعة.

هزت رأسها قائلة:

- كويس.

كانت مقتضبة للغاية في الرد على أسئلته، ولم تحاول التطرق لماضيها الذي تجاوزته بشق الأنفس، شردت تستعيد مشاهد عشوائية في مخيلتها مثلت فترة طفولتها التي قضتها بين حوائط منزل زوج أمها الحنون "بكري"، وأروقة المشافي والعيادات النفسية، أخرجها صوته من شرودها السريع حينما ردد:

- "مريم"، أنا آسف، اللي عملته زمان كان ....

قاطعته بهدوءٍ مريب:

- ده نصيبي وقسمتي، وأنا راضية باللي ربنا كتبهولي.

استقام في جلسته وبدا وجهه متقلصًا وهو يواصل اعتذاره النادم:

- صدقيني والله، أنا كان غرضي أساعد أمك، أبوكي كان مبهدلها وهي كانت زي الغريق متعلق بقشاية، وخبرتي وقتها كانت قليلة وافتكرت إني صح من غير ما أتأكد أكتر.

تحركت شفتاها قليلًا لتظهر بسمة باهتة قبل أن ترد عليه:

- الحمدلله على كل حال، في النهاية محدش بيهرب من قدره، كله مكتوب.

قال لها بجدية وكامل نظراته مثبتة على وجهها الهادئ:

- لو في إيدي أعمل دلوقتي أنا مستعد، اطلبي مني وأنا جاهز!

ردت بإيماءة صغيرة من رأسها:

- شكرًا، أنا تمام.

أكمل متسائلًا في حيرة:

- بصي أنا مش عارف الوضع هنا هايكون عامل إزاي بعد المرحومة، وأكيد عيلة أبوكي مش هيرضوا تفضلي هنا لوحدك، فيا ريت لو تقبلي تيجي تعيشي معايا، أنا هاكون فعلًا سعيد بده، وأهوو جزء بأسدده من الدين اللي عليا.

رفضت "مريم" أن يشفق عليها أحدهم أو حتى يستضعفها ويقلل من قدراتها على إعاشة نفسها، لن تقبل بالإحسان عليها منه أو من غيره؛ لذا قالت بحسم:

- لا، أنا مرتاحة هنا، ويا ريت تسيبني على راحتي!!

تفهم سبب امتناعها، فليس من المعقول أن يظهر في حياتها هكذا فجأة ويربك نظامها اليومي دون أن تستعد نفسيًا لذلك، سيمهلها بعض الوقت ويعاود تكرار عرضه، قال "عوني" لها مبتسمًا:

- طيب مش هاضغط عليكي، بس خليكي عارفة إن بابي مفتوح ليكي في أي وقت، وكل شوية هتلاقيني هنا عندك بسأل عليكي، حتى لو روحتي فين، أنا خالك يا "مريم"، ماشي.

كان ردها فاترًا وهي تقول:

- كتر خيرك.

تجاذب الحديث معها في مواضيع عدة فتفاجأ بثقافتها وإدراكها لما يحدث حولها من مشكلات مجتمعية عامة ودولية، توقع في البداية أن يجد شابة تعاني من الانطواء والخجل، غير اجتماعية، تعجز عن التواصل مع الآخرين بسلاسة وانسيابية، لكنها محت توقعاته الواهية بشخصيتها الواعية، وقدرتها على التكيف والانسجام مع أي تغيير يطرأ عليها، كان لديه يقين خفي بأن ذلك لم يأتِ من فراغ، لكن نشأتها السوية والمستقرة بعد عملية التصحيح ساهمت بقوة مؤثرة في إعادة تشكيل وبناء كينونتها الحالية، نظر لها "عوني" بتفاخرٍ وسعادة، ووعدها بأن يساعدها في الحصول على فرصة عمل جيدة إن أحبت ذلك، ترك لها جميع الخيارات مفتوحة حتى ينال ثقتها ولن يتعجل موافقتها على جميع عروضه السخية، ففي النهاية أمرها يهمه، ليس لصلة القرابة فقط وإنما لتسديد دينه القديم معها.

*****

أوشك على فقدان آخر ذرات صبره بسبب خوفه الدائم عليها، ناهيك عن غيرته الشديدة كلما أتى خالها "عوني" لزيارتها ودون وجوده، كاد أن يصل لمرحلة الجنون الجامح لمكوثها معه بالساعات، وبصعوبة شديدة يكبح غضبه ويسيطر عليه إلى أن يرحل، فتحط دمائه الثائرة من جديد، وبالرغم من كونه يتبعها كظلها ليل نهار إلا أن ذلك لم يعد كافيًا له، حدسه يخبره بأنها تُكن مشاعر خفية نحوه وإن بقيت متحفظة معه، لكن نظراتها نحوه تفضحها، ارتباكها اللذيذ كلما مازحها بطرفةٍ يحفز مشاعره، ملامحها الرقيقة المغلفة بمسحة شجن تداعب أوتار فؤاده، حتى لعثمتها غير المقصودة حينما تبادله جملًا مقتضبة تثير جنونه، ما كان يخيفه أنها لم تمنحه حتى الآن بادرة أمل تعبر عن رغبتها في الارتباط به، ليس لأنه يكترث بالشائعات الدائرة عن كونها لا تصلح للزواج لماضيها المعروف للعامة، ولكن القلقه من عدم استعدادها نفسيًا لتلك الخطوة الهامة في حياتها، تردد كثيرًا في مفاتحتها في تلك المسألة أو حتى التلميح لها، خشى أن تقطع حبال الود معه بجفائها القاسي، حافظ على

مواربة الباب في العلاقة البريئة بينهما حتى نفدت طاقته، لم يطق الابتعاد عنها، غيابه مضطرًا بسبب العمل أو حاجته للنوم بات أمرًا مرهقًا لأعصابه، فالوساوس تطارده بشأن محاولة أحد الأنذال معدومي الرجولة التجرأ عليها، كيف سيغفر لنفسه حينها تقصيره في حمايتها من أي لمسة محرمة تنال من جسدها العفيف؟

اتخذ "مصطفى" قراره بمفاتحة عائلته أولًا في مسألة زواجه منها، سيختلق الأعذار، سيحيك القصص والروايات ليقنعهم بضرورة ذلك، وعزز قراره في الإقدام على تلك الخطوة هي تلك المعلومة التي وصلته عن طريق الصدفة بشأن تغيير مجلس المدينة لقراره واختيار منطقة أخرى بعيدة عن الأرض المتنازع عليها، خـــاف إن علم والده بالأمر لصرف نظره بالكامل عن كل ما يخص "مريم"، ولربما فعل الأسوأ وأنكر انتسابها لعائلة "عمران" كما فعل أباها من قبل؛ لذا أراد التعجيل بمسألة الارتباط بها قدر الإمكان متحججًا بالأرض حتى يضمن زواجه منها، بادر بعرض الأمر على والدته التي استنكرت ما أسمته بسوء اختياره فقالت معترضة بقسمات وجهها المشدودة:

- بتقول إيه يا إدلعدي؟

رد بهدوءٍ تامٍ:

- اللي سمعتيه يامه، أنا عاوز أتجوز "مريم"!

اغتاظت "وداد" من إجابته فسألته بكلماتٍ حملت الإهانة في طياتها:

- "مريم" مين دي أصلًا؟!

أجابها مازحًا ببساطةٍ:

- بنت عم "منصور".

ردت رافضة هزله:

- إنت فايق يا ابني ولا تلاقي معمولك عمل عند واحد ابن حرام يوقعك مع واحدة زي دي.

احتقنت دماؤه من إهانتها المستمرة لشخصها البريء، فدافع عنها بلهجة جادة:

- لو سمحتي يامه متغلطيش فيها، أيًا كان دي بنت محترمة و...

قاطعته صائحةً فيه بنبرةٍ محتدةٍ:

- بنت إيه يا "مصطفى"؟ إنت ناسي دي كانت إيه؟

كان يعلم المقصد من وراء ما تلمح به، فالتزم الصمت ولكنها استمرت في الضغط على ذلك الوتر الحساس لتذكره بامتعاضٍ:

- إيش حال ما كل حاجة حصلت قدامك، وأبوك بنفسه حاكيلنا على اللي حصل .

قال مبررًا:

- كانت غلطة من الأول واتصلحت خلاص.

استفزها رده فجزت على أسنانها لتقول بتأفف وبنظراتٍ غير مريحة علّه يفهم سبب رفضها لتلك الزيجة الشاذة وغريبة الأطوار:

- يا واد دي.... كان ناقصلها شنب وتبقى زيك!

كدّره انحصار تفكيرها -كأغلب أهل البلدة البسطاء- حول تلك الجزئية بعينها وغفلتهم عن وجود أسباب مرضية ووراثية أدت لحدوث ذلك الخلل منذ البداية، كان رده حياديًا حينما قال بإصرارٍ:

- أنا ماليش دعوة باللي حصل زمان، أنا ليا لي في دلوقت.

قالت في حسمٍ:

- لا زمان ولا دلوقت، دي ماتنفعكش!

استعمل "مصطفى" معها كافة الحجج حتى يقنعها ويحصل على موافقتها، ولكنها أبت الإنصات لحماقته وبقيت على رفضها التام، اختنقت "وداد" من حصاره لها فلجأت إلى زوجها لتستنجد له علّه يردعه عن قراره الأهوج:

- الحقني يا "متولي"، ابنك عاوز يتجوز اللي ما تتسمى...

نظر لها في ارتيابٍ وهو يسألها عن صاحبة الهوية الغامضة التي تسبب في تعكير مزاجها بتلك الصورة السافرة:

- مين يا ولية؟

أجابته بتذمرٍ وهي تلوي شفتيها:

- هو في غيرها، بنت "نوال"!

تعقدت ملامحه مرددًا في استنكارٍ مصدومٍ:

- نعم، بتقولي مين؟!!

قال "مصطفى" وهو يزفر أنفاس الضيق:

- إنتو مستغربين ليه؟ مش إنتو عاوزين الأرض ترجعلكم، أنا هاجيبهالكم منها.

رد عليه والده متسائلًا:

- بالجواز يا "مصطفى"؟!

أجابه بعقلانية مستغلًا رغبته الطامعة في الاستيلاء على الأرض:

- إحنا مقدمناش إلا كده يابا، وإنت عارف كويس إن دماغها ناشفة ومش هاتقبل تبيع الأرض.

ردت عليه "وداد" في تهكمٍ:

- لكن هتوافق تتجوزك، إنت بتهزر؟!!

وزع "مصطفى" نظراته بين الاثنين وهو يرجوهما:

- أدوني فرصة، أنا هاشوف سكة معاها.

زم "متولي" شفتيه معلقًا عليه في سَخَطٍ:

- يعني كمان مش ضامن توافق ولا لأ؟

نظرة مترددة تكونت في عينيه، أخافها عن عمدٍ ليتنحنح بعدها قائلًا بهدوءٍ حتى لا يشعر بحيرته:

- هاعمل اللي عليا وخلاص يا حاج.

ثم استكمل باقي جملته بشكل ساخر وكامل نظراته مثبتة على والدته:

- وبعدين مش إنتي يا ست الكل كان نفسك اتجوز بعد ما نسواني الاتنين فلسعوا؟!

ردت عليه بنفس الوجه المتجهم:

- أه، بس مش دي!!

رجاها بابتسامة جانبية لطيفة مدعيًا بالكذب:

- خليني أجرب حظي معاها، جايز تظبط أو تحصلهم.

علقت عليه بتهكم:

- إياكش سرك الباتع يجوز معاها!

ضايقته جملتها الأخيرة وإن كانت كلماتها خانتها في التعبير عن سوء حظه في الزواج، ومع هذا لم يكن ليتمنى السوء لحبيبته أبدًا، أراد "مصطفى" أن يخلط جده بالهزل حتى يستسلم أبويه ويوافقا على زواجه منها. ابتعدت والدته عنه وهي ترمقه بعينين متنمرتين قائلة له:

- خليك فاكر أنا مش راضية عن الجوازة دي.

رد باحترازٍ حتى لا يثير أعصابها أكثر:

- سيبها على الله يامه.

تابع بنظراته البقعة التي اختفت عندها وهو يفكر في تبعات قراره الذي حتمًا سيؤثر على الجميع وأولهم أفراد عائلته.

*****

زيارة استثنائية قامت بها بعد إلحاح مستمر من والدتها لأحد أشهر المراكز الطبية المتخصصة في الكشف على النساء وتشخيص أمراضهن التي تؤخر الإنجاب، بالإضافة لرعايتهن ومتابعتهن خلال أشهر الحمل وذلك لتقطع الشك باليقين، خاصة بعد اتخاذ مسألة زواج "مصطفى" من "مريم" منحنى جدي وباتت على وشك التنفيذ. انتظرت "صباح" دورها ومعها مغلف أبيض به نتائج التحاليل التي قامت بها لتعطيها للطبيب حتى يتطلع عليها، هزت ساقيها بلازمة عصبية ناتجة عن توترها، وضعت والدتها "أم حسين" يدها على ركبتها لتمنعها من هزها هامسة لها:

- اهدي يا بنتي.

ردت بصوتٍ خفيضٍ من بين شفتيها:

- مش قادرة.

قالت لها بتفاؤل قاصدة مدح أنوثتها:

- يا بت، خلي قلبك جامد، ده إنتي طالعة لأمك، جاية من بطن ولّادة، مافيش سنة تعدي إلا وأجيب عيل وراه التاني، وبعدين الضاكتور دلوقتي يشوف التحاليل ويطمنا.

نظرت لها بعينين تبرقان في توترٍ قبل أن ترد:

- خايفة يامه يطلع فيا حاجة كده ولا كده.

نهرتها بوجه مقتضب الجبين:

- بعد الشر، تفي من بؤك!

سحبت شهيقًا عميقًا حررته ببطءٍ لتقول بعدها:

- يا رب عديها على خير.

لم يمنع قلق ابنتها من سؤالها الفضولي عما يدور في أرجاء منزل أهل زوجها، مالت عليه حتى يبدو صوتها الهامس مسموعًا لها وهي تستفهم بترقب:

- أومال حصل إيه في موضوع البت إياها؟

حملقت فيها بنظراتٍ حائرة وهي ترد متسائلةً:

- بت مين؟

أجابتها ببساطة:

- بنت "نوال" المسترجلة.

تقوست شفتاها مجيبة إياها بنبرةٍ عكست ضجرها:

- أهي قالبة البيت حريقة، "مصطفى" مصمم يتجوزها، ومحدش موافق على جنانه ده.

توهجت عينا "أم حسين" بوميضٍ عابثٍ وهي تتساءل بفضولٍ أكبر:

- هي كده زينا؟

لم تعِ المغزى من جملتها الغامضة تلك فتساءلت:

- قصدك إيه؟

قالت لها مستخدمة يدها في الإشارة:

- زي الحريم يا "صباح"، متخلي مخك مفتح معايا، شبهنا كده ولا لأ؟

هزت كتفيها قائلةً:

- معرفش!

زمت "أم حسين" شفتيها لتقول في سَخَط:

- أومال مين اللي يعرف؟!

ثم نفخت بصوت خفيض قبل أن تتابع أسئلتها الفضولية:

- المهم يعني وصلوا لإيه في الآخر؟

ردت بوجه ممتعض:

- هو حد يقدر يقول لـ "مصطفى" لأ؟ وبعدين حجة الأرض معاه، وضاغط بيها عليهم، وشكلهم هينخوا ويوافقوا.

لاحقتها بسؤالها التالي وكأنها تحقق معها:

- طب واللي ما تتسمى دي وافقت؟

أجابت بتهكم:

- هي هتلاقي زيه؟ تبقى عبيطة يامه لو رفضت، ده عامل زي طوق النجاة بالنسبالها، شاب طول بعرض، ده غير سمعته اللي زي الجنية الدهب، مايعبوش بس إلا حكاية نسوانه اللي بتموت.

ضربت والدتها كفها بالآخر المسنود على حجرها معقبة في تأفف حائر:

- ياما نفسي أعرف هيتجوزوا إزاي وهي ماعندهاش أساس زينا كده يملى العين!!

ردت غير مبالية:

- كله هيبان يامه، اصبري بس، ده مافيش حاجة بتستخبى عندنا.

- مظبوط يا بت.

ثم أمسكت بها من رسغها لتشدد عليها بنصائحها الجادة:

- وإنتي يا ناصحة طرطأي ودانك وركزي في أي حاجة تحصل، وخلي جوزك تحت جناحك، دلعيه وروقي عليه عشان مايلوفش على غيرك، ما هو أصله مزواج واللي زيه مايضمنش!

ردت عليها بنبرة مزعوجة عبرت عن ضيقها وقلقها الشديدين:

- أومال أنا متسربعة على الخلفة ليه؟ مش عشان أغلبه بالعيال؟!

هزت رأسها معقبة عليها:

- دلوقتي تشوف الضاكتور هايقول إيه.

حركت "صباح" رأسها بلا معنى والتفتت أمامها لتجد إحدى الممرضات ممن يرتدين الزي الوردي الباهت تقترب منها وعلى مُحياها ابتسامة متكلفة، وقفت قبالتها توزع نظراتها بينها وبين أمها قبل أن تستهل حديثها معتذرة:

- أنا بتأسف لحضراتكم، بس الدكتور "كمال" جاتله حالة طارئة واعتذر عن باقي الكشوفات.

تساءلت "صباح" بعدم فهم:

- يعني هو مش راجع تاني؟

أجابتها نافية برد مباشر:

- لا للأسف.

اغتاظت "أم حسين" من إهدار وقتها دون أدنى مراعاة لحالة القلق المسيطرة على ابنتها منذ بضعة ساعات فصاحت بتذمرٍ وقد هبت واقفة على قدميها:

- والكشف اللي دفعناه، والعطلة اللي إحنا فيها من الصبح؟!!!

ردت بتلقائية:

- هنرجع الفلوس ليكم يا حاجة.

لاحت بوادر ثورة عصبية على ملامحها من ردها الفاتر، فصاحت فيها "صباح" بانفعالٍ شبه محسوس في صوتها:

- الحكاية مش فلوس، المفروض يلتزم معانا، أنا جاية من آخر الدنيا عشان أطمن، أبص ألاقيه مشي؟

لتمنع غضبها من الاندلاع اقترحت عليها الممرضة:

- في دكتور تاني لو تحبي تشوفيه، موجود معانا في المركز، ممتاز جدًا، وهو كمان شريك الدكتور "كمال".

انتظرت الممرضة بصبر قرارهما النهائي حينما تشاورت "أم حسين" مع ابنتها متسائلةً:

- إيه رأيك يا "صباح"؟

لم يكن لديها بديل آخر فقالت في استسلامٍ:

- خلينا نجرب، ما هو مش هنبقى عملنا المشوار على الفاضي.

استدارت والدتها نحو الممرضة تأمرها بحدةٍ:

- ورينا فين طريقه.

ظلت ابتسامتها المتكلفة موجودة على وجهها وهي تشير لهما بيدها قائلة:

- اتفضلوا معايا.

سارت الاثنتان خلفها عبر رواق جانبي طويل ينتهي عند غرفة أخرى أكثر اتساعًا بها العديد من المقاعد المعدنية المرصوصة على جميع أركانها فيما عدا ركن مخصص لمكتب خشبي عريض تجلس عليه ممرضة أخرى. اقتربت الممرضة الأولى من زميلتها تهمس لها ببعض العبارات المختصرة والأخيرة تهز رأسها بتفهمٍ، طلبت من كلتيهما الجلوس حتى يتم السماح لهما بالدخول فور إعلام الطبيب بوجودهما بالخارج، استجابتا لها وجلستا تنتظرانه، بضعة دقائق وعادت إليهما الممرضة لترشدهما إلى غرفة مكتبه، تفاجأت "أم حسين" بوجود آخر من استبعدته عن تفكيرها، رددت في اندهاشٍ:

- ضاكتور "عوني".

رفع الأخير رأسه ينظر لها بابتسامةٍ صغيرةٍ وقد ألفها، في حين تساءلت ابنتها باستغرابٍ:

- إنتي تعرفيه يامه؟

ظهرت أمارات الانزعاج على قسماتها، ولم تجاهد حتى لإخفائها، بل رمقته بنظرة مطولة غير مريحة، ثم قالت وهي تجلس على المقعد الملاصق لمكتبه:

- هو في حد ميعرفوش!

جملة موحية فهم مغزاها "عوني" دون الحاجة لتفسيرها بوضوح، شبّك كفي يده معًا متسائلًا بصوته الهادئ العميق:

- إزيك يا حاجة "أم حسين"؟

أجابته بوجهٍ مقلوبٍ:

- بخير يا ضاكتور.

تركزت عيناه على ابنتها متسائلًا:

- دي بنتك "صباح" على ما أظن. صح كده؟

ردت باقتضاب:

- أه يا ضاكتور.

قال متسائلًا بنبرة عملية وقد تحولت نظراته نحو "أم حسين":

- ربنا يباركلك فيها، ها بتشتكي من إيه يا حاجة؟

أجابته بتكشيرةٍ جانبية:

- أنا كويسة والحمدلله، إحنا جايين عشان بنتي.

هز رأسه بحركة روتينية قائلًا:

- تمام.

تابعت موضحة بأريحية:

- الضاكتور "كمال" كان طلب منها شوية تحاليل كده عشان يطمن عليها ونشوف موضوع الحبل متأخر ليه عندها.

سألها مباشرة:

- أها، والتحاليل دي معاكو؟

تلك المرة أجابت "صباح" وهي تمد يدها نحوه بالمغلف الأبيض الذي يحوي أوراقها:

- أيوه، اتفضل.

تناوله منها وأخرج ما فيه ليقرأ بدقة النتائج التي بحوزته، لم يكن وجهه مقروء التعبيرات؛ بؤبؤا عيناه يتحركان بسرعة ملحوظة، راقبته "أم حسين" بنظرات تحمل الضيق، فماضيه المعروف للجميع يؤثر على تفكيرها نحوه، قبضت على أناملها وضغطت عليها حتى ابيضت مفاصلها إلى أن توقف عن المطالعة ليوضح بلغته العلمية المرتبة:

- هو بنتك عندها مشكلة تكيسات على المبايض، وللأسف بنسبة عالية، وده هيأخر الحمل لفترة، ومحتاجة عشان يتعالج إنها الأول تخس و...

لم يستوعب عقل الأم ما قيل في البداية، فتوقفت عند أول كلمة تعذر عليها فهمها لتتساءل باستغراب:

- أكياس إيه دي؟

صحح مفهومها بهدوء:

- تكيسات مش أكياس! حاجة بتمنع الحمل.

صرخت فيه مستنكرة الحقيقة الصادمة التي ألقاها على مسامعها ومدافعة عن ابنتها:

- بنتي صاغ سليم وزي الفل!

رد بواقعية بحتة:

- مش أنا اللي بأقول كده، ده ظاهر في نتايج التحاليل بتاعتها!

ضربت بيدها على سطح مكتبه تردد بإنكارٍ أكبر:

- هو إنت هتعرف بنتي أكتر مني؟

حلت الصدمة على "صباح" فشلت تفكيرها مؤقتًا، وحَدَقَت في شرودٍ بنظرات جمعت بين الحزن والخوف. بينما حاول "عوني" التحدث مع والدتها الثائرة بعقلانية حتى تعي خطورة المشكلة قائلًا لها:

- يا حاجة اهدي كده وافهمي اللي بأقوله، الموضوع عبارة عن .....

هاجمته بشراسةٍ شديدةٍ وكأنها شخص آخر قد تحول للنقيض فجأةً:

- عاوزني أفهم إيه بالظبط؟ تخاريفك دي اللي ماتخشش مخي؟ بأقولك إيه، أنا قلبي مقبوض من ناحيتك من ساعة ماشوفتك، ولا فكرك عشان السنين فاتت مش هننسى عملتك مع "نوال"؟!!!

انزعج "عوني" للغاية لأفقها الضيق ولربطها للنزاعات الشخصية القديمة مع الحالة التشخيصية لابنتها، انتفض واقفًا ليرد مدافعًا عن شرف مهنته:

- إنتي بتتكلمي عن إيه؟ ده ماله ومال مشكلة بنتك؟!

أجابته بإهانة وقحة وهي تنظر له شزرًا:

- عاوز تطلع بنتي معيوبة عشان بنت "نوال" تكوّش على كل حاجة.

- إيه الجنان ده؟

أهانته بشكلٍ أكبر:

- جنان، أما إنك ضاكتور ناقص!

رفع سبابته في وجهها يحذرها:

- احترمي نفسك واتكلمي عدل معايا، ماتنسيش نفسك!

لوحت بيدها بحركة مقللة من احترامه وهي ترد بفظاظة:

- ياخي بلا نيلة، يالا يا "صباح"، جايين عند ضاكتور يبيع نفسه عشان الحرام.

طردها مباشرةً كنوعٍ من رد الاعتبار لنفسه:

- اتفضلوا اطلعوا برا.

جذبت "أم حسين" ابنتها من ذراعها لتجبرها على النهوض وسحبتها خلفها وهي تكمل هجومها العدائي المهين عليه:

- ياخي غور، إحنا ناقصينك، الله الغني عن العلاج حتى لو كان من عندك!

وما إن خرجت من غرفة مكتبه حتى صفقت الباب بعصبيةٍ خلفها مرددةً بنبرةٍ مغلولةٍ وعيناها تطلقان وهجًا ملتهبًا:

- آل بنتي مش هاتخلف آل، ده أكيد مزءوء من المخفية بنت "نوال"، أيوه هي عاوزة تطلعك معيوبة بأي شكل.

ردت "صباح" متسائلةً في قهر:

- وهي مالها بيا؟

أجابتها بنظراتها المشتعلة ووجهها المحتقن:

- ما هي العايبة تجيب اللي فيها فيكي، اعقليها معايا كده هي عاوزة تركب وتدلدل، وبتفرش أرضية من دلوقتي!

غلت الدماء في عروقه ابنتها من سماعها لجملتها الاستفزازية وردت تتوعدها:

- ده أنا أجيب عاليها واطيها قبل ما تفكر تدوسلي على طرف!

رَبَّتت أمها على كتفها تشجعها على ترك حالة الخذلان التي كادت أن تستحوذ عليها:

- بنت أمك بصحيح.

توحشت نظرات "صباح" بعد أن أوغرت والدتها صدرها نحو "مريم" وملأته بالحقد والكراهية، فإن كانت الأخيرة تحاول إزاحتها عن الطريق لتتربع على عرش عائلة "عمران"، فهي لن تسمح لها بذلك، ستتصدى لألاعيبها الماكرة وتتخلص منها على طريقتها الشريرة، فكل شيء متاح في الحب والحرب.

الفصل الرابع عشر

بثوبٍ زفافٍ بسيط غير مبهرجٍ وعددٍ محدودٍ من العائلتين عُقِد قرانها بعد صلاة العصر في مسجد البلدة، قال شيخ المسجد كلماته المباركة للعروسين ليبدأ بعدها المدعوين في الانصراف، اضطرت "مريم" أن ترضخ أمام الضغوط المستمرة والتهديدات التي تفسد لياليها وتقبل بعرض "مصطفى" للزواج منها بعد أن أوضح لها بأنه لا إكراه فيه أو إجبار، هو يريدها تحت حمايته حتى لا يمنعه عنها أي شخص خاصةً "عوني" الذي عنفه لتواجده بالقرب منها دون سبب مقنع له، ما شجعها أيضًا على الموافقة نواياه الحسنة التي كانت تظهر يومًا بعد يوم، ففي النهاية لن تستطيع مجابهة مَن هم أشد منها قسوة وقوة بمفردها، كما أنها تكن له مشاعر خفية خافت أن تعبر عنها.

تولى "عوني" الوكالة عن أبيها الغائب وحذَّر "متولي" من إيذائها أو التلاعب معها مستغلًا وحدتها، سيقف له بالمرصاد ويحاسبه بشدة إن تجاوز معها، استاء الأخير من تسلطه وعجرفته ومع هذا لم يتذمر فابنه وعده بإعادة الأرض له دون مشاكل، سينتظر فقط تنفيذه لوعده.

أزاحت "مريم" طرف حجابها المتدلي خلف ظهرها لتجوب أوجه مَن حولها بقلق، لم تضع سوى مسحة خفيفة من مساحيق التجميل بعد إقناع خالتها لها حتى لا تثير حنق أهل العريس المنزعجين منها مسبقًا، مالت عليها "فايزة" لتقول بهمس وكأنها تضبط ثوبها:

- اضحكي يا "مريم"، ده الليلة ليلة دُخلتك يا عروسة، ماتبقيش كشرية، عاوزة حماتك تقول عنك نكدية؟

تلقائيًا تحولت عيناها نحو "وداد" التي كانت تنظر لها بغيظ، لم تخفِ الأخيرة نفورها منها، ولم تحاول "مريم" تصحيح وجهة نظرها عنها، ادعت الابتسام فظهرت ابتسامتها منقوصة، مضطربة، تعبر عن ارتباكها، ورغم كون موافقتها على تلك الزيجة مشروطة بالسكن في منزل والدتها الراحلة حتى يتم الانتهاء من تجهيز منزل مستقل لهما بأثاث ومفروشات جديدة إلا أنها توترت من احتمالية تراجع "مصطفى" عن رأيه في اللحظة الأخيرة ويجبرها على الانتقال للعيش مع أفراد عائلته، تبددت شكوكها مع سماعها له يقول:

- بإذن الله هنسلم على أهلي ونتوكل على الله على بيتنا.

سألته بعينين تطالعانه في قلق:

- أنهو بيت؟

أجابها بابتسامة صافية يلاطفها فيه:

- إنتي نسيتي ولا إيه؟ بيت المرحومة والدتك، أنا سامع خالك "عوني" بيقول جايلنا أكل معتبر، وأنا عصافير بطني بتصوصو، ولا ناوية تسبيني جعان كده؟ على فكرة دي مش معاملة.

ابتسمت في ارتياح من صدق نواياه نحوها، فخفف ذلك من رهبتها قليلًا وإن ظلت متوترة من تلك اللحظة التي سينفرد فيها بها، لم ترَ زوج الأعين الذي يتفحص جسدها بنظرات مشمئزة، كانت "أم حسين" تراقبها عن كثب، حولتها لعدوة ابنتها دون ذنبٍ صريحٍ، حاولت أن تتأكد من كراهية الأخيرة نحوها فقالت:

- عروسة فشنك، زواء على الفاضي.

حذرتها "صباح" بوجه غير مبتسمٍ:

- وطي صوتك حد يسمعنا.

قالت غير مبالية:

- مايسمعوا هو أنا قولت حاجة غلط؟ دلوقت جوزها يعرف إنه خد مقلب فيها.

تأبطت "صباح" في ذراعها لتجرها بعيدًا عن حشدهم الواقف أمام باب المسجد لتقول بنفاد صبرٍ:

- خلينا نمشي، أنا مش طايقة خلقة أمه.!

ردت بعبوسٍ وقد سارت معها:

- ودي حد يطيقها أصلًا!

لم يتوقف حديثها عند ذلك الحد بل استمرت في ثرثرتها السخيفة بالسخرية منها بعبارات مسيئة وكلمات شبه نابية تجرح من أنوثتها وتنتقص منها بشكلٍ سافر دون أن تأبه بارتفاع نبرة صوتها، فلو التقطت أذنا أحدهم إساءتها عنها مصادفةً لصدّق أكاذيبها المغلوطة.

*****

انطلقت السيارات في أرجاء البلدة لتزف العروسين وسط الزغاريد من النساء والتهليلات الشبابية من أصدقاء "مصطفى" ومعارفه حتى توقفت عند منزل "نوال"، حيث سيمكث كلاهما به، ترجلت "مريم" من السيارة بعد أن فتح لها زوجها الباب، اقتربت منها خالتها

توصيها على طاعة زوجها وعدم افتعال المشاحنات معه أو مع أسرته حتى تنعم بحياة هانئة وتستمر زيجتها، بينما أوصاها "عوني" بعدم الخوف أو التردد لحظة للجوء إليه إن حدثت مشكلة ما معها وتعذر عليها حلها؛ فهو موجود لأجلها وحتمًا لن يتأخر عنها، استمرت الوصايا المختلفة من كل شخص على حدة يمس بصلة القرابة للعروسين حتى انفض الجمع وبقيا بمفردهما، هنا تضاعف توتر العروس وزاد ارتباكها الخجل؛ هرعت للداخل رافعة ثوبها قليلًا عن الأرضية حتى لا تتعثر وهي تصعد الدَّرَج الرخامي، أحست بحمرة دافئة تغزو بشرتها وبإحساس عجيب يلبك بدنها، التفتت دفعة واحدة للخلف لتجد "مصطفى" عند أعتاب باب المنزل يقول لها مستخدمًا يده في الإشارة:

- أنا هاشرب سيجارة برا لحد ما تغيري هدومك، فخدي راحتك.

همست بتلعثم خجلٍ:

- ماشي.

همَّت بالاستدارة لكن امتدت يده وأمسكت برسغها لتستوقفها، انخفضت عيناها على أنامله ثم عادت لتنظر إليه في ارتباكٍ وتوتر، ابتسم قائلًا لها في نعومةٍ بنبرةٍ ثابتةٍ عكست صدقه:

- "مريم"، مش عاوزك تقلقي، أنا مش بأجبرك على حاجة.

لعقت شفتيها متسائلة في تردد:

- يعني لو أنا مش حابة إننا آ....

وجدت صعوبة في إتمام جملتها للنهاية، فكيف تخبره ببساطة أن قلبها أضناه الألم على فراق والدتها، وما زالت غير مؤهلة نفسيًا لخوض تلك الليلة بتفاصيلها الحميمية؟ تحتاج لبعض الوقت حتى تنسجم مع التغيير الجذري في حياتها، وكغيره من الشباب هو ينتظر ليلة غرسه على أحر من الجمر لينعم بالسعادة الأبدية، إذًا كيف سيرتضي بالتأجيل؟ بدا "مصطفى" كمن يقرأ أفكارها من خلال نظراتها الحائرة التي تفضحها، استوعب ترددها وقال لها:

- خدي وقتك لحد ما تتعودي عليا، أنا هستناكي، مع إنه عذاب تاني ليا، بس كله يهون عشانك.

نظرت له في امتنانٍ كبيرٍ وعيناها تلمعان برقة، فليس من اليسير على شاب مفعم بالرغبة والنشاط التريث في أمر حيوي وغريزي كهذا، لكنه كان واسع الأفق، متفهمًا لأبعد الحدود،

لديه مقدرة هائلة على الصبر والتحمل. فقط تحتاج لبعض الوقت حتى تتقبل الوضع الجديد، وتعتاد على وجوده معها، وربما مع التقارب الودي بينهما والملاطفات العذبة تتشجع أكثر للاستجابة لمشاعر الحب الدافئة التي سيمنحها لها وتبادله نفس الشعور المستمتع، بمجهودٍ غير مسبوق اضطر "مصطفى" أن يضبط مشاعره الحسية ويكبحها، تلك المشاعر التي تصرخ منادية بتذوق طعم العشق من على شفتيها أولًا قبل أن يطالب بالمزيد، نعم إنها الشفاه التي حَلُم بتقبيلها مئات المرات، أخمد مرغمًا ثورة حبه المحمومة بداخله وخرج في هدوءٍ من المنزل يدخن سجائره واحدة تلو الأخرى.

لاحقًا، انتهت "مريم" من الاغتسال لترتدي منامة عادية من اللون الزهري خالية من أي لمحة قد تثيره بقصدٍ أو بدونه، أرادت أن تكون غير مرئية بالنسبة له، فقامت بعقد شعرها كعكة كبيرة ولفت حوله منديلًا للرأس يحمل نفس اللون تقريبًا، مسحت آثار مساحيق التجميل من على وجهها وتأكدت من عدم وجود ما قد يلفت انتباهه نحوها فيحَدِّق فيها، تنفست بعمق لأكثر من مرة حتى تهدئ خفقات قلبها المتواترة، شجعت نفسها على الخروج من الغرفة والجلوس معه، وخصوصًا أنه لم يقاطع خَلوتها رغم مرور وقت طويل، سارت بتمهلٍ ورأسها مطأطأ قليلًا، اتجهت إلى غرفة الطعام حيث بدأ "مصطفى" في توزيع المأكولات مناصفةً بينهما على صحنين عريضين، سحبت مقعدها للخلف حتى تتمكن من الجلوس، ثم استندت بمرفقيها على الطاولة وأحنت رأسها على صدرها في خجلٍ، لم تتمكن من رؤية نظراته المتيمة التي جابت على هيئتها غير المبهرجة في شغفٍ متحمس، سمعته يسألها بصوته الرخيم:

- مش ناوية تاكلي معايا؟

أجابته بهمسٍ شبه متلعثم دون أن تتطلع إليه:

- لأ، أنا مش جعانة.

رد معترضًا وقد امتدت يده لتتلمس كفها:

- ده إنتي مكالتيش حاجة من الصبح، كده هتقعي مني وأنا مش هاستحمل أشوفك تعبانة.

ارتعشت من لمسته المباغتة، وسحبت كفها على الفور لتخبئه في حجرها، ثم أسبلت عيناها نحوه مُصرةً على رفضها:

- ما أنا مش جعانة و...

ابتسم لارتباكها المغري الذي يثير فيه الرغبة أكثر نحوها، تخطى الأفكار الجامحة التي

تتراقص في عقله بصعوبة ليشغل عقله بالتفكير في إطعامها، وضع "مصطفى" قطعة من الدجاج المطهي في صحنها يدعوها لتناولها قائلًا:

- على فكرة الاكل طعمه حلو أوي، جربي دوقيه بس وهيعجبك.

أطبقت على شفتيها وهي تهز رأسها بالنفي، لكنه ألح عليها بتوسل لطيف:

- طب عشان خاطري، ده أول طلب أطلبه منك واحنا متجوزين.

رمشت بعينيها في حياءٍ محمل بالمزيد من الإغراء، ردت بصوت يكاد يكون مسموعًا:

- طيب.

التقطت قطعة الدجاج بإصبعيها وقامت بوضعها في فمها، ظلت تلوكها في بطءٍ شديد كنوع من الهروب المفتعل من الحديث معه، لكنه أصـر على إخجالها بالتغزل فيها فقال:

- كنتي زي القمر النهاردة، أنا لحد دلوقتي مش مصدق إنك بقيتي مراتي.

ابتلعت لقمتها الممضوغة جيدًا قبل أن ترد بتوترٍ:

- شكرًا.

مـال بجسده نحوها قليلًا يداعبها بمرحٍ:

- طب مافيش حاجة تشجيعية كده ليا؟

خفق قلبها بقوة وتورد وجهها بشكل كامل، حملقت فيه بعينين متسعتين تسأله في صوتٍ مضطربٍ:

- قصدك إيه؟

مازحها بلطافة أكبر وهو يغمز لها بطرف عينه:

- كنت كويس، عضلاتك منفوخة، كرشك باين، أي حاجة تحسس الواحد إن الصرف جه بفايدة.

لم تستطع منع نفسها من الضحك على ظرفته وخفه ظله التي أزالت خوفها، استمر في تهكمه الساخر على هيئته وكأنه دب عملاق حتى أدمعت عيناها من كثرة الضحك، كانت تلك مرتهما الأولى التي يتشاركان فيها شيئًا دون أي تحفظٍ، مسح بظهر كفه عبراته التي انسابت من قهقهاته العالية قائلًا لها:

- أيوه كده اضحكي، محدش واخد منها حاجة.

عاد السكون ليغلف الأجواء للحظات إلا من صوت حركة المعلقتين في الصحون، تساءلت "مريم" من بين شفتيها وعيناها مسلطة على طعامها:

- إنت مبسوط إنك إتجوزتني؟

مد "مصطفى" يده نحو طرف ذقنها، رفعه بإصبعيه للأعلى حتى تتمكن من النظر إليه وهو يرد عليها متسائلًا:

- تفتكري أنا عملت ده كله ليه؟

هزت كتفيها قائلةً:

- مش عارفة.

سألها مستفسرًا وهو يراقب نظراتها:

- ولا إنتي لسه شاكة فيا عشان موضوع الأرض؟

عضت على شفتها السفلى في تردد، لا تستطيع إنكار أن ذلك الهاجس راودها كثيرًا، حاول "مصطفى" إيضاح الأمور لها من جديد فأردف قائلًا:

- صح أنا كنت مضطر أضغط بالحكاية دي على أهلي عشان يوافقوا، لكن قسمًا بالله عمري ما كنت هاقرب من أرضك أو أي حاجة تخصك.

تحرجت من إجابته الصريحة وتحاشت التحديق في وجهه مما أزعجه، وضع إبهامه أسفل ذقنها ليدير وجهها إليه، نظرت في ارتباكٍ ممزوجٍ بالخجل، كم كان عاشقًا لتلك النظرات الساهمة المليئة بكافة أنواع المشاعر التي يتوق لإخراجها! داعب بإبهامه وجنتها وهو يهمس لها بأنفاسٍ حارة:

- "مريم" أنا بأحبك.

شعر بتلك الرجفة التي انتابتها من لمساته الحنون عليها، تأثر جسدها وتفاعل بشكلٍ غير طبيعي مع ذلك الأمر غير الاعتيادي، كما خفق قلبها وتعالت دقاته المرتبكة، أحست بشيء يتحرك داخلها يحثها على الاستسلام لتيار العواطف المشحونة الذي يجرها إليه بإرادتها ودون استباقٍ، ومع المزيد من لمساته الخبيرة استيقظت عواطفها الكامنة واشتعل بها لهيب الحب، أحست بحرارة أنفاسه وكأنها ستحرق جلدها حينما لامست شفتاه عنقها وهو يقول لها بتنهيدة العاشقين:

- و.. نفسي نقرب من بعض و....

أغمضت عينيها تاركة لجسدها الفرصة لاختبار ما هو قــادم، كاد صندوق عواطفها أن ينفتح على مصراعيه، ولكن قبل الانتقال للخطوة التالية سمع كلاهما دقاتٍ شبه عنيفة على الباب فأفسدت المشهد الرومانسي بزمّته، انكمشت "مريم" في مقعدها وهي تتحسس براحة يدها السخونة المنبعثة من بشرتها، بينما ردد "مصطفى" في غيظٍ حانق:

- الله! مين الغلس اللي جاي السعادي!

اضطر أن ينهض عن المائدة ويتجه نحو باب المنزل وهو يسب بصوتٍ خفيض، ارتفع حاجباه للأعلى في صدمةٍ وذهول وقد رأى والدته تقف أمامه، تدلى فكه السفلي مرددًا:

- أماه.

لكزته في جانبه لتجبره على التنحي جانبًا حتى تتمكن من الدخول، ثم قالت له بصوتٍ أقرب للهاث:

- وسع كده يا "مصطفى".

تساءل مدهوشًا من خلفها:

- إنتي جاية ليه؟

ضاقت عيناها نحوه وهي توبخه بامتعاضٍ:

- حد يقول لأمه كده؟

أجابها على مضضٍ وقد ارتسمت على خلجاته علامات الانزعاج:

- أصل ده مش وقته بصراحة.

همَّ باعتراض طريقها لكنها اندفعت للداخل لتلقي بجسدها الممتلئ على أقرب أريكة، أخرجت تأويهة متألمة منها وهي تستقيم في جلستها، نظرت له ببرودٍ قبل أن تنحني للأمام لتفرك ركبتيها قائلةً له:

- آه ياني يامه، ركبي بتناَح عليا جامد.

ضرب كفه بالآخر في تعجبٍ من شكواها الغريبة وحضورها المريب، ثم سألها بوجهه المتذمر:

- ها وبعدين يعني؟

ردت في سماجةٍ لزجة:

- مافيش قلبي وغوشني عليك، قولت أجي أطمن.

ثم تصنعت العبوس وهي تسأله متعمدة تنكيس رأسها وإدعاء البكاء:

- ولا خلاص معنتش فارقة معاك؟

نفخ "مصطفى" في الهواء باستياءٍ قبل أن يجيبها:

- يامه إنتي على عيني وراسي، بس النهاردة ليلة دخلتي وكنت لسه آ....

اضطر أن يبتلع باقي جملته حينما أطلت "مريم" بوجهها الناعم لترحب بضيفتها في تهذيبٍ لبقٍ:

- إزيك يا ماما الحاجة؟

التوت شفتاها وهي تجيبها باقتضابٍ:

- أهلًا.

ثم أدارت عيناها بعيدًا عنها لتكمل بتأفف مستخدمة يدها في التهوية على وجهها:

- مش عارفة الجو كتم كده ليه فجأة؟

فقه "مصطفى" لكون والدته تتعمد إهانتها بكلماتها الفظة، عادت ليحملق في "مريم" التي ابتلعت مرارة الإهانة لتسألها من جديد بلطافةٍ:

- أجيبلك حاجة تشربيها؟

لم تنظر "وداد" نحوها وهي ترفض:

- لأ، متشكرة.

أبت "مريم" أن تنصاع هامتها أمام معاملة الآخرين الجافة معها حتى وإن كانت تحترق من داخلها؛ لذا جلست بكل كبرياءٍ على الأريكة المجاورة لها محافظةً على هدوء تعبيراتها رغم الألم الذي يعتصرها ويكوي قلبها من قسوتها غير المفهومة، كظمت ضيقها حينما طلبت "وداد" بسماجةٍ من ابنها:

- يا "مصطفى"، ربنا يكرمك يا ابني هاتلي بؤ مَية لأحسن ريقي ناشف على الآخر.

أشـار بيده معلقًا عليها:

- طب ما هي "مريم" قالتلك و...

قاطعته بفظاظة وقد قست ملامحها:

- أنا ماخدش حاجة من إيدها، هو أنا ضامنة تحطلي فيها إيه؟

شهقة خافتة انفلتت من "مريم" لصراحتها الوقحة، أحست بغليان دمائها في عروقها، التفتت ناظرة نحو زوجها تنتظر منه الرد المناسب والمدافع عنها، وأصدقها القول حينما صاح مستنكرًا:

- حرام عليكي يامه، ده إحنا لسه بنقول يا هادي، هتعملي مشاكل من أولها مع مراتي؟

قالت له غير مبالية وهي تستند بوجهها على أناملها لتتخذ وضع المراقب لـ "مريم":

- روح هات الفَية وملكش دعوة.

ما لبث أن شعر بالتوعد في نبرتها وهي تكمل:

- وخليني أنا أتعامل مع مراتك!

زفر مرددًا في توجس منزعج:

- ربنا يستر يا حاجة "وداد"، شغل الحماوات بدأ بدري بدري!

ترك الاثنتين في وضعية تحفز ليسرع في خُطاه ويتجه نحو المطبخ آملًا ألا ينشب الشجار بينهما، خاصةً من طرف والدته التي لن تتوانى عن اختلاقه لأتفه الأسباب، كانت "مريم" باردة صلبة وهي تسألها بنفس أسلوبها السمج:

- تحبي أعمل لحضرتك أكل؟

ردت عليها بوجهها المتجهم:

- لأ، مش عاوزة.

ظل قلبها منقبضًا حابسًا الدماء الحانقة فيه، ومع هذا ابتسمت لها ببرودٍ وهي تقول:

- زي ما تحبي.

صاحت فيها "وداد" بنبرةٍ شبه حادة:

- إنتي هتفضلي أعدة في وشي كده؟

سألتها باقتضابٍ:

- والمطلوب؟

أجابتها بوقاحة متجاوزة:

- عاوزة اتكلم مع ابني في حاجة خصوصي ماتخصكيش، يالا ورينا عرض كتافك.

شعرت بخجلٍ مُرٍ جارح وكأن أحدهم شق صدرها بسكينٍ، ضغطت "مريم" على قبضتها التي تكورت حتى لا تسيء إليها، فإن كانت ضيفتها وقحة فهي أحسن منها بأخلاقها، تفاجأت بزوجها يردد عاليًا وكأنه يزأر في وجه والدته:

- ياماه.

هتفت مستنكرة خشونته معها:

- إيه في إيه؟

وبخها بضيقٍ شديد:

- بقى ده اسمه كلام؟ إنتي كده بتحرجيها في بيتها، لأ وكمان قصادي؟!!

ردت بشفاه مقلوبة:

- خلاص ياخويا، ماتتحمأش للسانيورة بتاعتك.

انطفأت النظرة المتألقة التي حملت وهج الحب في عيني "مريم" من كلماتها المستفزة، وانسحبت بهدوءٍ من المكان مكتفية بما تحملته من إهانات متتالية، شعر "مصطفى" بوخزة حادة تنحر قلبه لرؤيتها تتألم، استدار بوجهه المحتقن متسائلًا في عصبية:

- ها، اتبسطي لما زعلت؟ عاوزاني بقى في إيه؟

نفخت من بين شفتيها بسأمٍ قبل أن تجيبه:

- أنا جيت أطمن عليك وأشوفك عملت إيه معاها.

رد بتذمرٍ كأنه يلومها على قدومها:

- هو أنا لحقت؟!

سألته بفضول عابث:

- يعني معرفتش إن كان الكلام بيتقال عنها صح؟

ربما كان متساهلًا مع معاملتها الفظة لزوجته احترامًا لشخصها بالرغم من احتجاجه على طريقتها، لكن أن تتدخل في علاقته الحميمية بتفاصيلها الحرجة والدقيقة بذلك الأسلوب

المتجاوز فهذا غير مقبول على الإطلاق، تحولت نبرته للحزم يحذرها:

- دي حاجات تخصني أنا ومراتي، ومش هاسمح لحد يناقشني فيها، حتى لو كان مين، مفهوم؟!

لانت نبرتها مع ملامحها وهي تسأله:

- حتى أنا؟

قال بصرامة:

- حتى إنتي يامه، ومافيهاش زعل.

اكتست تعابيرها بعبوس رهيب، ردت عليه تعاتبه بلطف:

- بقى كده يا "مصطفى"؟ لحقت قلبتك عليا بنت "نوال" من كام ساعة، أومال لو قعدت معاها شوية هتعمل فيا إيه؟

هتف يلومها:

- هو إنتي بتدوري على الخناق وتقولي شكل للبيع؟ أنا عريس يامه والنهاردة ليلة فرحي، مستكترة الفرحة عليا؟

استندت على مسندي الأريكة لتنهض قائلة له:

- لأ يا ابني، خلاص، أنا ماشية.

رد ببرود:

- هاوصلك للباب.

رمقته بنظرة نارية من طرف عينها عبرت عن غيظها منه، وقبل أن تصل لباب المنزل صرخت في لوعة واضعة يدها على فقرات ظهرها:

- آه يا ضهري.

سألها بقلقٍ رغم ضيقه من تصرفاتها:

- في إيه مالك يامه؟

تباطأت في خطواتها وأظهرت ألما زائفًا وهي تجيبه:

- مش عارفة قفشت كده ليه، آآآه، مش قادرة أتحرك، آآآه!

أسرع "مصطفى" بإسناد والدته من ذراعها، عاونها على السير نحو أقرب مقعد بخطواتٍ متمهلةٍ بسبب صرخاتها الموجوعة، أجلسها بحذرٍ مراعيًا آلام ظهرها المفاجئة، ثم جثا على ركبته أمامها يسألها بتعابيرٍ قلقة:

- طب اعمل إيه، أروح أجيبلك دكتور ولا ...

قاطعته بأنفاسٍ غير منتظمة:

- لالالا، أنا بس هادخل أفرد ضهري جوا في الأوضة لحد ما يفك وبعدين أمشي، ما تشغلش بالك إنت.

اعترض على تذمرها قائلًا:

- بس كده غلط.

أخرجت صرخة متألمة تشكو فيها:

- آآآه يا ضهري.

خرجت "مريم" من غرفة النوم الرئيسية تتساءل في قلقٍ بعد أن وصلها صوت صراخ والدته الحاد:

- مالها مامتك؟

أجابها في حيرة:

- مش عارف، كانت كويسة من شوية.

حاولت "مريم" أن تقدم يد العون لها، لكنها لكزته في صدرها بغتةً دافعة إياها بعيدًا عنها وهي تقول:

- أوعي كده، ماتلمسنيش.

تجمدت الأخيرة" في مكانها مستنكرة تصرفها الفج معها، تنحت للجانب عندما ساعدها زوجها والدته على النهوض، ضاقت عيناها بحدة وهي ترجوه:

- اسندني يا ابني، آآآه.

شيعتهما بنظراتها حتى ولجا إلى داخل غرفة نومهما، لم تطق الوقوف مكتوفة الأيدي، اقتربت من باب الغرفة واختلست النظرات نحوهما، رأت "مصطفى" يمدد أمه على الفراش ويسحب الغطاء عليها، انحنى يقبل جبينها متبادلًا معها حديثًا هامسًا، تراجعت خطوتين

للخلف حتى لا يظن أنها تتلصص عليهما، سألته فور أن خرج من الغرفة في تلهف:

- هي كويسة؟

أجابها بزفيرٍ طويل:

- مش عارف، غلبت أقولها أجيبلك دكتور وهي مش عاوزة، مصممة تريح على السرير.

ردت عليه مبتسمة في رقة:

- سيبها على راحتها.

احتج بانزعاجٍ ظهر على قسماته وتصرفاته:

- بس كده إحنا مش هانبقى على راحتنا وإحنا لسه عرايس!!

أخفت ضحكة عابثة تداعب شفتيها لتظهر عليهما، تنحنحت قائلةً وهي تُرَبِّت على جانب ذراعه:

- معلش، ست كبيرة برضوه، شوية وهتبقى كويسة.

أمسك بقبضة يدها وقربها من صدره ليضعها على قلبه، نظر لها بشغفٍ متعاظمٍ وهو يشكرها:

- والله إنتي ملكيش زي، هو أنا حبيتك من قليل، ربنا يباركلي فيكي.

ارتبكت من كلامه المعسول الذي يطرب به أذنيها وعادت بشرتها تتورد من جديد لتثيره بشكلٍ مغرٍ حثه على الانحناء برأسه نحوها ليختطف من شفتيها أول قبلة عميقة لطالما انتظرها، تجاوبت "مريم" معه واستجابت خلاياها لتأثيرها السحري، وكالعادة أفسدت والدته لحظة جديدة خاصة بينهما بندائها المرتفع:

- يا "مصطفى"!

عبثت "مريم" بالخصلة النافرة من أسفل منديل رأسها الزهري تحثه على الذهاب:

- روح شوفها.

صـــاح بنبرةٍ مغتاظةٍ وهو يتركها مرغمًا:

- أيوه.. جـــــــــــاي!!!

راقبته بعينين امتلأتا بالدموع، أحست بصدرها يختنق، بالهواء ثقيلًا عليها وهو يشق

طريقه لرئتيها، هزت رأسها بلا معنى وقد سيطر عليها شعورًا متعاظمًا بالاستياء والضيق، فما حدث اليوم ما هو إلا تمهيد لتعاسة مجانية تنتظرها.

*****

حلت كضيفة سمجة على العروسين من أجل إفســاد لياليهما الزوجية الأولى، فإن أراد "مصطفى" الاختلاء بزوجته بادرت والدته بالتلاعب معه والتحجج بإعيائها المريب حتى تمنعه من الانفراد بها، أصاب الأخير ضربًا من الجنون لعدم استطاعته المكوث بحرية أكبر مع حبيبته، مشاعره متأججة لكنها مكبوتة بسبب تطفلها المزعج، فتارةً تصر على تواجده معها حتى تغفو فلا تضطر لإزعاجه إن احتاجت لشيء، وما إن يتأكد من غفلتها وينهض من جوارها ليسير على أطراف أصابعه تناديه كالطفل الصغير فتصيب مخططاته بالفشل الذريع وتجبره على البقاء، وتارة أخرى تئن وتشكو من آلامٍ غير معلومة المصدر مدعية هلاكها حتى يوشك على الانهيار خوفًا عليها، حتى والده لم يشك من غيابها عن المنزل وكأنها قد عقدت اتفاقًا مسبقًا معه على تنغيص حياته، أصبح وجودها جحيمًا لا ينتهي، فاض به الكيل وقرر أن يضع حدًا فاصلًا لألاعيبها الملتوية؛ لذا بعد تناولها لطعام الغذاء وقبل أن تنهض عن الطاولة قال لها بلهجةٍ مزعوجةٍ:

- أنا جبت أخري يامه.

ردت متصنعة الغباء:

- من إيه يا ضنايا؟

أجابها بنظراتٍ متنمرةٍ:

- من اللي بتعمليه معايا، بقالك أسبوع قايمة نايمة هنا، وده مايرضيش ربنا.

عاتبته بنواحٍ زائف:

- عاوز تطرد أمك العاجزة؟

جز على أسنانه المضغوطة موضحًا:

- لأ مش بأطردك، بس ماينفعش العمايل دي، المفروض أنا عريس جديد وعاوز أقعد براحتي مع مراتي.

زمت "وداد" شفتيها قائلةً بسَخَطٍ:

- ماتقعدا هو أنا حوشتك؟

رد مستنكرًا في غيظٍ:

- يا سلام، أومال إيه يا "مصطفى" تعالى، يا "مصطفى" خد، يا "مصطفى" إلحق!!!

ادعت البكاء لتلومه وهي تفرك عينيها:

- بقى دي أخرتها تعامل أمك بالشكل ده؟ هي دي وصية ربنا ليك؟

نفخ في سأمٍ من أسلوبها الماكر في استغلال طيبته وابتزازه عاطفيًا ليرد بوجه احمر وتوهج كأنه سيشتعل:

- إنتي على عيني وراسي، بس كده كتير، عاوز أخد راحتي معاها أكتر، وإنتي فاهمة ده.

نظرت له بعينيها الجافتين فأدرك أنها كانت تخدعه ولا تبكي، اندهش من براعتها في التمثيل واللعب على المشاعر بتلك الجراءة، استنكر كذبها المكشوف واستشاط غضبًا عندما ردت بتهكم:

- ياخي إني ماشوفتها لابسة حاجة عدلة قصادك من يوم ما ربنا بلاك بيها، ده مرات أخوك آخر دندشة عنها، قولها ياخويا إنها عروسة بكر، مش خُرج بيت!

دافع عنها باستماتةٍ:

- هتلبس إزاي وإنتي موجودة؟

خانتها الكلمات وهي ترد:

- هو أنا كنت قولتلها حاجة؟ ولا شكلها زي ما بيقولوا كده مضروبة وآ....

لم يدعها تكمل جملتها المسيئة لأنوثة زوجته فقاطعها ضاربًا بكفيه على الطاولة بانفعالٍ شديد وقد غامت عيناه وبدا متحفزًا للانقضاض عليها دفاعًا عن تلك المسكينة المضطهدة:

- يامـــــه! قولتلك مش هاسمح لحد يغلط في مراتي.

لعقت بلسانها شفتيها وطالعته بنظراتٍ قلقةٍ، أضاف بعدها بلهجةٍ عنيفةٍ مغايرة لتلك التي تحدث بها قبل دقائق:

- اعملي حسابك هاوصلك البيت قبل المغرب، أبويا محتاجك.

تجاهلها مرغمًا حتى لا تستثار أعصابه أكثر من ذلك، ففي النهاية هي والدته ومن تسيء إليها زوجته، ولن يقف على الحياد مكتوف الأيدي لأكثر من ذلك يشاهد والدته تزعجها بالكلمات، سيتخذ موقفًا في الأخير، وحتمًا لن يكون في صفها، تعقدت ملامح "وداد" من

تبدله لتقول باستنكار:

- شوف الواد الناقص، أكيد البت دي سحراله.

لم يعلم "مصطفى" أنها تراقب مواقفه الشخصية بقلبٍ يدق طربًا لإنصافها، أصدقها القول حينما وعدها بأنه لن يسمح بأي إساءة تطالها حتى وإن كانت من الأقرب إليه، اغرورقت مقلتاها فرحًا بالعبرات لدعمه ودفاعه عنها، مسحت دمعاتها بظهر كفها داعية الله أن يديمه في حياتها، انتظرته حتى انتهى من غسل يديه وعاد إلى غرفتهما لتناديه بصوتها الناعم:

- "مصطفى"!

كان لا يزال على ضيقه، فبدا صوته مهمومًا وهو يرد:

- أيوه يا "مريم".

أوصدت الباب خلفها لتسير بعدها ناحيته، وقفت قبالته والتردد الخجل متملك من جسدها، ثم أسبلت عيناها هامسة بتنهيدة بطيئة:

- شكرًا على كل حاجة بتعملها عشاني.

طالعها بنظرة حنون، التقط كفها بيده، قربه من فمه يقبله، ثم احتضنه بصدغه ومرره عليه معتذرًا منها:

- حقك عليا أنا، المفروض كل ده مكانش يحصل.

بررت موقفها السلبي نحوها بصوتٍ شبه متقطع:

- هي برضوه معذورة، الناس... مفكراني مش زي ... باقي البنات، وإني آ.....

وضع إصبعه على شفتيها يمنعها عن الكلام قائلًا لها:

- ماتكمليش يا "مريم"، إنتي مافيش أجمل منك.

ردت في حرجٍ وصوتها تحول للاختناق:

- كتر خيرك.

-والله ما بأقول كده، أنا جوايا حاجات كتير عاوزك تحسي بيها.

عمّق من نظراته نحوها فقرأ في عينيها تلهفًا مثيرًا، وبعفوية خجلة عضت على شفتها السفلى حرجًا من تحديقه المتأمل بها، حادت عن عينيه المراقبتين لها، أغراه خجلها اللذيذ

فأحنى رأسه على شفتيها لينهل منهما قدرًا قليلًا من شهد الحب، استلذ مذاق ذلك الإحساس الذي تمناه معها فزاد من قبلاته العميقة لتشعر بنيران حبه تتقد بقوة.،نهج صدرها علوًا وهبوطًا من فرط المشاعر التي اجتاحتها بغتة، أجج "مصطفى" الرغبة فيها وأزال الرهبة مع موجة الأحاسيس العاصفة التي جعلت مقاومتها تنهار، كانت من أمامه وتتجاوب معه أنثى تمتلك مقومات الإغراء المثيرة، انحنى ليحملها بين ذراعيه والتفت مستديرًا نحو الفراش، مددها عليه وشرع في تلقينها أول دروس الغرام بتأنٍ وحذر، وعند اللحظة الحاسمة كانت "مريم" مهيئة جسديًا ونفسيًا لتتويج قصة حبهما بالاستسلام طواعية له، انطلقت منها تأويهة استمتاع كتمتها في خجل وقد شهدت رسميًا على انتصار أنوثتها. استلقت على ظهرها تلهث وقلبها يقفز بين ضلوعها، رفع "مصطفى" جسده ليتأمل ملكته المتربعة على عرش قلبه، انحنى يطبع قبلة أخرى على شفتيها ليرتشف المزيد من رحيقهما، همس لها:

- أخيرًا قدرت أكون معاكي، مبروك يا أجمل عروسة.

رمشت بعينيها في ارتباك حرج وقد نقلها بتجربته المليئة بالمشاعر الحسية الجامحة لعالم آخر ظنت أنها لن تطئه مهما حييت.

*****

الفصل الخامس عشر

اتفق معها على القيام بزيارة أسبوعية لقضاء يوم مع عائلته حتى يعتادوا على وجودها، والتزمت باتفاقها معه وواظبت أسبوعيًا على ذلك لعدة أشهر، وخلال تلك المدة تغاضت عن المحاولات المهترئة لاستفزازها ومعاملتها بتعسف من أجل معشوقها "مصطفى"، وقابلت الإهانات المقصودة والمتوارية بصمتها الهادئ حتى لم تعد تقو على تقبل المزيد، فما حدث اليوم بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير؛ جلست "مريم" وقت الظهيرة بعد انتهائها من المساعدة في إعداد الطعام منزوية على المصطبة الملاصقة للنافذة تراقب الطريق انتظارًا لرجوع زوجها، فإن لمحته قادمًا من على بعد نهضت لاستقباله بابتسامتها البشوش التي تنسيه متاعب العمل، تجاهلت كلمات والدته المستفزة قدر المستطاع وحافظت على هدوئها، وما كان من سكوتها إلا حافزًا لإغاظتها أكثر، لهذا شكلت حماتها جبهة مع "صباح" حتى تكدرها، فقامت الأخيرة بالتغنج والتمايل بجسدها الممتلىء في مناطق بعينها لتشعرها بالفارق الكبير بينهما، ثم تساءلت بمكرٍ وقد غمزت لها بطرف عينها:

- ها يامه، حلو القميص ده عليا؟ تفتكري لما "أنور" يشوفه هيعجبه؟

هللت "وداد" مادحة إياها:

- طبعًا يا "صابوحة"، هو في زيك يا مرات ابني؟ ده إنتي الأصل!

ردت عليها "صباح" بدلالٍ مائع:

- أيوه يامه، ما هو في ناس من برا هالله هالله، ومن جوا يعلم الله.

ثم أطلقت ضحكة رقيعة قاصدة بها استفزاز "مريم"، لم تحاول الأخيرة النظر نحوها وركزت حواسها على الطريق، بينما أضافت "وداد" بازدراء لتشعرها بمدى حقدها عليها:

- يعني ريش على مافيش يا بنتي، بس نقول إيه، مراية الحب عميا!

علقت عليها "صباح" بعد أن زمت شفتيها:

- بكرة الأعمى يفتح ويعرف إنه كان غلطان لما خد المضروب، وعلى الأصل دور.

أيدتها بتلميح متوارٍ:

- مظبوط، وكله في الآخر طلع فِشنك.

ردت عليها بكلماتٍ موحية:

- أيوه، بتفكرني زي موضوع الأرض كده، ماهو في ناس قدمها نحس علينا!

احتقنت نظرات "مريم" من كم الإساءات المهينة التي أُجبرت على سماعها، التفتت ترمق كلتيهما بعينين مشتعلتين في غيظ، خشيت أن تنخرط في بكاءٍ مؤلم أمامهما فيشمتا بها؛ لذا نهضت من مكانها واستلت حجابها المسنود على الشماعة الخشبية لتضعه على رأسها، ثم قالت بصوتها المختنق:

- لما يجي "مصطفى" قولوله أنا في البيت، مستنياه هناك.

سألتها "وداد" بوجهها العابس ونظراتها تشع فرحًا لنجاحها في مضايقتها:

- مش ناوية تاكلي معانا؟

أجابتها بثباتٍ حتى لا تظهر قهرها:

- كلوا إنتو بالهنا.

وقبل أن تغلق الباب خلفها أتاها صوت "صباح" المهين:

- يالا في داهية، السكة اللي تودي!

نظرت "وداد" في إعجاب لزوجة ابنها وشجعتها قائلةً:

- جدعة يا بت، خليها تموت بفرستها.

ردت عليها الأخيرة بغنجٍ وهي تسحب عباءتها لتغطي بها جسدها المكشوف:

- ولسه يامه، هو أنا ورايا إلا هي!

قالت حماتها بانزعاجٍ:

- أنا فكرت إن "مصطفى" هيتجوزها لشهر بالكتير، بس لاقيته متبت فيها ومش عاوز يسيبها، تقولش سحراله؟!

هزت شفتيها للجانبين في حركة مستنكرة قبل أن تنطق وهي تلف منديل رأسها على شعرها:

- هي دي فيها حاجة تعجب؟ هو بس اللي طيب وغلبان ومش عارف مصلحته فين، بكرة يعقل ويطلقها.

- مين يطلق مين؟

انتفضت "صباح" فزعًا حينما سمعت صوت "مصطفى" يأتي من خلفها، بهتت تعابيرها ونظرت له في ارتعاب، تدخلت والدته مدعية بالكذب:

- ياخويا ده إحنا بنتكلم عن حد متعرفوش.

ثم أشارت بحاجبها لـ "صباح" وكأنها تأمرها:

- قومي يا بنتي شوفي الأكل اللي على النار خلص ولا لأ.

ردت بنبرة مهتزة:

- حاضر يامه.

انسحبت سريعًا من أمامه قبل أن يكشف أمرها، في حين تلفت "مصطفى" حوله متسائلًا في استغراب:

- أومال فين "مريم"؟

أجابته والدته بتكشيرة جانبية:

- خدت في وشها ومشيت!

اتسعت عيناه ضيقًا وهو يرد متسائلًا:

- لوحدها كده؟ من غير سبب يعني؟

هزت كتفيها قائلة بعدم مبالاة:

- أيوه، ومرات أخوك أهي كانت أعدة معانا وتشهد!

اجتاحته موجة من الغضب العارم وقد ضجر من كذبها الذي لا يتوقف فانفجر صائحًا فيها:

- حرام عليكي يامه، إنتو بتضايقوها ليه؟ عملتلكم إيه؟ أقسم بالله دي ما في زيها في طيبتها وأخلاقها!

لوحت بيدها توبخه على دفاعه عنها:

- أنا مش فاهمة إنت محموء عشانها ليه؟ ما زيها زي مليون واحدة غيرها، بالعكس ده في أحسن منها، شاور إنت بس وأنا هاجوزك اللي .....

قاطعها "مصطفى" بحزمٍ رافضًا فتح باب المناقشة في هذا الموضوع تحديدًا:

- لو سمحتي يامه ماتفتحيش الكلام ده تاني!!

ضغطت على شفتيها لتقول في استياء:

- يا ابني ماهو موضوع الأرض طلع أونطة، ليه تربط نفسك بيها؟

أجابها بحرقة:

- لأني بأحبها، عاوزاني أطلق الإنسانة اللي قلبي متعلق بيها، ده أنا أموت لو هي سابتني!

امتعض وجهها كمن تذوق شيئًا كريهًا وهي تعلق عليه باندهاش:

- للدرجادي؟!

أصــر على دفاعه المستميت عنها متابعًا بنفس النبرة المتشنجة:

- أيوه، ولو وجودها تقيل عليكم فأنا مش هاجيبها هنا تاني، بس اعملي حسابك أنا مش جاي.

انخلع قلبها من جملته الصادمة تلك، لطمت على صدرها تسأله بتوجس مرتعد:

- بقى عاوز تحرمني منك؟

أجابها مسترسلًا في الأسباب وبنظرة منكسرة وكأنه غُلِب على أمره:

- ما إنتي عاوزة تحرميني من مراتي اللي ماشوفتش منها غير كل خير، لا عمرها اشتكتلي من اللي بتعملوه فيها، ولا قالتلي بلاش نروح التهاردة عند أهلك، اللي المفروض أهلها بردك، لأ وبالعكس بعد ده كله بتحاول ترضيكم وتقرب منكم ، ها وإنتو بتقابلوا ده كله بإيه؟

نكست رأسها في خزي لتقول:

- خلاص يا "مصطفى" حقك عليا.

سألها في ألم مرير:

- إنتي مستخسرة يامه إني أكون مرتاح في بيتي ومبسوط.

شهقت نافية:

- أبدًا والله!

تابع استفاضته في الدفاع عن زوجته قائلًا:

- أنا عمري لا كان فارق معايا لا أرض ولا فلوس ولا أي حاجة، وإنتي عارفة ده كويس، أنا

كل همي إني كنت ألاقي واحدة تحبني وأحبها، الموت مايفرقش بينا، ترضى بظروفي واللي كان طالع عليا وماتخافش تجرب حظها معايا، تضحك في وشي، أعجبها زي ما أنا، ماتطلعش زواء، والمهم إنها تصون عرضي في غيابي، ولما ألاقي كل اللي كنت بأحلم بيه وزيادة في "مريم" أسيبها بالبساطة دي؟!!

وضعت يدها على كتفه تُرَبِّت عليه عدة مراتٍ وهي ترجوه:

- اهدى يا "مصطفى" عشان خاطري، أنا معنتش هاضيقها تاني.

قال لها بنبرته المنكسرة وعيناه امتلأتا بالعبرات الحزينة:

- كتر خيرك يامه، دايمًا مزعلاني كده.

أحست بالذنب ناحيته فاعتذرت بندمٍ:

- بالله ما تزعل يا ضنايا، أنا ميهونش عليا زعلك.

مسح دمعاته العالقة بأهدابه متابعًا بحزنٍ:

- سلمولي على أبويا لما يرجع، وقوليله بالليل هاعدي عليه على القهوة.

سألته في لوعة وقد تعاظم إحساسها بالندم بداخلها:

- إنت مش هاتتغدى معانا؟

رد دون تفكيرٍ:

- هاكل مع مراتي، سلامو عليكم.

حاولت اللحاق به لتثنيه عن رأيه لكنه حسم أمره بترك المنزل وقضاء اليوم مع زوجته بعيدًا عن تلك الأجواء المشحونة بالكراهية والتي تصيبها بالإحباط والضيق.

*****

استلقت على جانب جسدها في فراشها بغرفة نومها بعد أن عادت من الخارج تنظر بحزنٍ في نقطة ما بالفراغ، مسحت بقايا دمعاتها المقهورة المنسابة على وجنتيها، التقطت أذناها صوت قفل باب المنزل وهو يفتح، فخمنت القادم، أسرع بتجفيف بشرتها بمنديل ورقي، وتنفست بعمقٍ حتى لا يظهر انعكاس ضيقها على صوتها، وقف "مصطفى" عند أعتاب الباب يتأمل بإمعانٍ تفاصيل جسدها الرشيق بمنحنياته الشيقة والتي تبرز بوضوح على قميصها المغري، ناداها بنعومةٍ:

- "مريومة".

لم تلتفت نحوه وهي تجيب نداءه:

- أيوه يا "مصطفى"!

عاتبها برقةٍ:

- ينفع كده تمشي لوحدك من غير ما أكون معاكي؟

التفتت بنصف وجهٍ لتجيبه بألم استشعره في صوتها:

- معلش، مقدرتش أقعد، كان غصب عني!

أدرك من صوتها المتألم مدى معاناتها الصامتة رغم عدم شكواها، اقترب منها حتى بات واقفًا قبالتها، جلس إلى جوارها ماسحًا بيده على مقوماتها المغرية، ثم وعدها بجدية:

- حقك عليا، مش هيحصل ده تاني.

اعتدلت "مريم" في نومتها لتضم ركبتيها إلى صدرها، رمقته بنظرة مليئة بالعتاب وهي ترد:

- عشان خاطري بلاش أروح لوحدي هناك، إنت عارف إنهم مش بيحبوني، وأنا بأحس إني ضيفة تقيلة على قلبهم و...

قاطعها معتذرًا بشدة:

- أنا آسف يا حبيبتي، أنا جبتلك حقك، واللي مش عاوزك أنا كمان مش عاوزه.

قالت في تلهفٍ قلقٍ:

- يا "مصطفى" أنا مش عاوزة أوقع بينك وبين أهلك، بس اللي بيحصلي ده كتير، ومابقتش قادرة أستحمل وأسكت، فخليني بعيد أحسن، وإنت خُد راحتك معاهم.

داعب طرف أنفها بإصبعه وعلى مُحياه ابتسامةٌ شقيةٌ، ثم قال لها بمرحٍ وهو يناولها حقيبة ورقية:

- خلاص بقى يا "مريومة"، وخدي الشنطة دي شوفي هنعمل بيها إيه!

تناولت الحقيبة منه لتنظر داخلها، أخرجت منها أكياس الفول وعلبة كرتونية تحوي دمية صغيرة، تأملته باستغرابٍ، لاح على شفتيها بسمةٌ ساخرةٌ قبل أن تردد:

- دي عروسة يا "مصطفى".

قال موضحًا:

- بجد، واحد صاحبي راجع من برا، مراته خلفت وجه يوزع علينا فول سوداني حلاوة سبوع بنته.

سألته في حيرة:

- طب ودي هنعمل بيها إيه؟ إحنا معندناش عيال.

ردد بمرحٍ وتلقائية:

- العبي بيها.

ورغم عفوية جملته إلا أنها أعادتها لحظيًا لسنوات طفولتها الأولى، حينما كانت تسرق الدُمى من "خديجة" لتلعب بها جِلسة بعيدًا عن أنظار أبويها، وساعد تشابه شكل الدُميتين على تنشيط تلك الذكرى بقوة. تلمست "مريم" شعرها بحذرٍ وانخفضت أناملها على ثوبها المزركش تتحسسه وعيناها تلمعان بدمعاتٍ خفيفة، ذكرها ملمسها بشغفها القديم للعب بالدُمى، تألمت للذكريات الحزينة الموجعة التي تعاقبت عليها في عقلها، راقب "مصطفى" ردات فعلها المتباينة في تلك الثواني بقلق، حاول إخراجها من بوتقة أحزانها فقال مُلاطفًا:

- بس تعرفي شكلك وإنتي مأموصة بيقلب على "طاهر".

تقلصت تعبيراتها مرددة في انزعاجٍ:

- "طاهر"؟

رسم على ملامحه علامات الجدية، ثم أومأ برأسه مؤكدًا:

- أيوه، مش إنتي بردك "طاهر"؟

لكزته في جانب كتفه مرددة بتنمرٍ:

- بطل بواخة، أنا "مريم".

قاومت ابتسامته العبثية التي تحاول الظهور على مُحياه ليرد عليها باللهجة الجادة متصنعًا العبوس:

- لا، "طاهر".

أشارت بيديها إلى مفاتن جسدها معترضة عليه في ضيقٍ:

- كل ده وتقولي "طاهر"؟!!!!

حك مقدمة رأسه بإصبعه ثم علق عليها:

- ده مايمنعش.

دفعته بغيظ من صدره بقبضتها لتتمكن من النزول من الفراش وهي تقول بصوتها المنزعج ملقية الدمية في وجهه:

- طب أوعى كده أنا مخصماك، وخد عروستك مش عاوزاها!

تحركت بعيدًا عنه وخرجت من الغرفة وهي بالكاد على وشك الاشتباك معه، لكنه نهض ورائها ليستوقفها بالإمساك بها من رسغها، تلوت بمعصمها لتتحرر من قبضته المحكمة عليه ليثبتها في مكانها، زفرت بضيقٍ ثم هتفت بعصبيةٍ قليلةٍ:

- سيب دراعي يا "مصطفى" وروح اتغدى مع أهلك! كفاية حرقة دم!

جذبها بخشونة طفيفة نحوه لتسقط في أحضانه، استندت بمرفقيها على صدره، ورفعت رأسها نحو عينيه اللتين تتأملانها في لهوٍ عابث، أحست بربكة محملة بالمشاعر تداعب جسدها، تضاعفت رجفتها المتوترة حينما قال لها بتحدٍ مثير:

- إنتي أد الكلام ده؟

استقامت واقفة لترد بشجاعةٍ زائفةٍ رغم دقات قلبها المتلاحقة:

- أيوه.

امتدت ذراعه لتلتف حول خصرها، شدد من قبضته على جسدها فتخشبت من لمسته القوية، نظر في عينيها قائلًا لها بابتسامته المتسلية:

- يبقى نحل الخلاف ده راجل لراجل.

حملقت فيه بعدم فهمٍ وهي ترد متسائلةً:

- نعم؟ إزاي؟!!

شهقة مباغتة هربت من بين شفتيها وقد انحنى فجأة ليمرر ذراعه الآخر بين ركبتيها، حملها بسهولة بين ذراعيه وألصقها بصدره، ثم طالعها بنظرة غامضة مليئة بالعبث والجنون، ارتعشت أطرافها حينما داعب صوته الحار طرف أذنها وهو يهمس لها:

- لازم النفوس تتصافى يا "طاهر"!

ركلت بساقيها في الهواء كتعبيرٍ عن تذمرها قبل أن تعترض بدلالٍ وميوعة:

- برضوه "طاهر".

قبلها من شفتيها قبلة سريعة لينظر لها بعدها متغزلًا بها:

- أحلى "طاهر" في الدنيا!

*****

أصدقته وعدها واجتهدت لتعامل زوجته بقليل من اللطف والاحترام رغم ذلك الضيق الموجود بداخلها، استغربت "مريم" من تبدل أحوال حماتها، وظنت أنها تحيك ملعوبًا ما من ورائها للإيقاع بينها وبين زوجها، خابت ظنونها وتأكدت من حسن نواياها معها مع استمرار معاملتها الحسنى لها، لهذا بذلت ما في وسعها لنيل رضائها علّها بذلك تقضي على ما تبقى من جذور العداوة غير المفهومة معها، حتى أنها سعت لتصفية النفوس مع "صباح" بالرغم من بقاء الأخيرة على موقفها الكاره لها.

وذات يوم اندلعت مشاجرة عنيفة بين "أنور" وزوجته بعد تناول الطعام في إحدى الزيارات الأسبوعية لمنزل العائلة، حيث علمت مصادفة بإخفاء "صباح" لأمر متابعتها المنتظمة مع أحد الأطباء لمباشرة العلاج الخاص بها حتى تتمكن من الحمل والإنجاب دون أن تخبر زوجها أو غيره مما آثار حنقه وغضبه، انفعل عليها يهينها في حضرة الجميع، لم تقبل "صباح" بإذلاله لها فانهارت تبكي صارخة في مرارة:

- ما هو غصب عني، أنا نفسي أخلف وأشيل عيالي زي باقي الخلق، أجرمت في إيه بقى؟

رد عليها "أنور" بصوته الأجش الغاضب:

- تقومي تروحي من ورايا للضاكتور؟ لأ وتكدبي عليا وتقوليلي أمي تعبانة، أمي بتموت وأنا زي المغفل بأصدقك.

بررت له بصوتها المتشنج:

- ما أنا غلبت معاك، أقولك تعالى نروح نكشف، وإنت تقولي أنا مش مستعجل ومش عايز عيال، عاوزني أستنى لحد ما ألاقيك متجوز عليا واحدة تانية بطنها بتجيب عيال؟

قال لها في حنقٍ أكبر:

- هو أنا اشتكيتلك ولا شوفتيني عملت كده؟

ردت بقوة بعد أن كفكفت عبراتها:

- وأنا هستناك لما تعمل ده؟

صـاح "متولي" يوبخهما وقد استاء من أسلوب إلقاء الاتهامات الذي يمارسانه معًا دون تقدير لوجوده أو حتى توقير هيبته:

- ما تلموا الدور إنتو الاتنين، عندكم بيت تتخانقوا فيه براحتكم!

تحرجت "صباح" من اهتزاز مكانتها في العائلة فعمدت إلى تحويل الأنظار نحو "مريم" لتتهمها علنًا وبوقاحةٍ:

- تلاقي العقربة دي هي اللي عاملة اللبخ ده كله!

تحولت أصابع الاتهام نحو تلك المسكينة المغلوب على أمرها، جزعت "مريم" وتساءلت في ذهولٍ مصدومٍ حينما تركزت الأعين عليها وقد انقبض قلبها في خوفٍ كبيرٍ:

- قصدك أنا؟

هزت "صباح" رأسها بالإيجاب مسترسلةً بتلقائيةٍ:

- أيوه، هو في غيرك هنا غيران مني؟ لا وكمان مسلطة خالك عليا يطلع عليا سمعة ويقول إني مابخلفش بعد ما طلعتي أرض بور!

بسبب ظلمها البيّن أفصحت دون قصد عن زيارتها غير المعلومة لـ "عوني"، انتفخت أوداج "مصطفى" من تزييفها للحقائق فصاح بها:

- خالها ماله ومالك؟ وإنتي أصلاً قابلتيه فين عشان تعرفي منه المواضيع دي؟

استفزت أسئلته المتتالية حمية "أنور" الذكورية فقبض على ذراع زوجته غارزًا أظافره في لحمه، هزها منه بعنف وهو يسألها بشراسةٍ:

تألمت "صباح" من قبضته التي تعتصرها، ارتبكت وتلعثمت وهي تجيبه:

- ماهو ... أنا شوفتها في عيادته مرة و.. كانت بتتفق معاه عليا.

سألها بصوتٍ هادر وقبضته تضغط على لحم ذراعها:

- وإيه اللي وداكي عيادته؟

استمرت في كذبها قائلة:

- أصل أمي كانت بعافية وجمبها.. قصدي بطنها....

فطن "مصطفى" للحيلة الجديدة التي تحيكها زوجة أخيه للنجاة من خطئها وتلفيق الاتهامات الباطلة لزوجته المضطهدة؛ لذا تدخل سريعًا ليحذرها بلهجة لن تقبل إلا بقول الحق:

- ماتكدبيش يا "صباح"، قولي كل حاجة أحسنلك! وإلا هترجعي بيت أهلك ومعاكي ورقتك، وأنا بنفسي مش هاسيبك!

ارتعدت الأخيرة من نظرات "مصطفى" النارية المهددة بإحراق الأرض ومَن عليها وقالت بنفس الربكة المكشوفة:

- أنا .. قصدي.. يعني ...

سألها "أنور" مباشرة:

- قولي الحقيقة، "مريم" ليها دعوة بأي حاجة تخصك؟

أجابته وهي تلعق شفتيها في ارتعاب:

- لأ..

صــاح "مصطفى" مهللًا وموجهًا حديثه للمتواجدين جميعًا دون أي تفرقة:

- سمعتوا، مراتي مالهاش دعوة بحاجة، حلوا مشاكلكم بعيد عننا، هي مش الشماعة بتاعكم لأي مصيبة تحصل هنا، مالها هي إن كنتوا عاوزين تخلفوا ولا لأ؟ بتحشروها في جملة مفيدة ليه؟

اعتذر منه "أنور" قائلًا ونظراته المتوعدة مثبتة على وجه زوجته المرعوبة:

- حقك عليا يا أخويا، إحنا محقوقينلك يا "مريم"، ما هو الغلط من الأول غلطي إن سايب السايب لمراتي، والمفروض أعلمها الأدب بطريقتي، بس مش هنا، في بيتنا!

توقعت "صباح" ردة فعلٍ غير متسامحة منه، خاصة وقد انكشف كذبها أمام الجميع، في حين صــاح "مصطفى" عاليًا:

- يالا بينا يا "مريم"، هنرجع البيت.

لم ينتظر ردها بل سحبها من يدها خلفه إلى الخارج، ها هو انتصــار جديد ظفرت به "مريم" في حضرة زوجها الذي أنصفها وأعــاد لها جزءًا آخرًا من كرامتها المهدورة، شعرت

بذراعيه تحاوطها من كتفيها ليدفعها للسير معه، تلك المرة خرجت من منزل عائلته مرفوعة الرأس، هامتها منتصبة، كبريائها يسبقها، التفتت لتنظر له مطولًا بعينين تبرقان في زهوٍ، ثم همست تشكره:

- ربنا يخليك ليا.

قال لها بجديةٍ وتعابيره المشدودة لم ترتخِ بعد:

- مش هاسمح لحد يدوسلك على طرف!

ضغطت على شفتيها مدافعة عن نفسها:

- بس أنا والله ما أعرف موضوع زيارتها لخالي "عوني" في عيادته و...

قاطعها مؤكدًا:

- مش محتاجة تحلفي، أنا مصدقك.

أضافت بصوتٍ شبه مهزوز:

- وحتى لما كنت بأروحله عشان موضوع الحمل كنت بأقولك قبلها وإنت بتبقى معايا يا إما خالتي "فايزة".

رد دون أن ينظر إليها:

- وأنا مش مضايق منك .

حدَّقت في وجهه بنظراتٍ تعسة، أمسك بها تطالعه بتلك الطريقة فتوقف عن السير ليستدير نحوها، نظر لها مكملًا حديثه الجدي:

- أنا عاوزهم يفهموا إن كرامتك من كرامتي، وإني مش هاقبل حد تاني يجي عليكي بدون وجه حق.

أدمعت عيناها تأثرًا بدفاعه المستبسل عنها، ارتبكت شفتاها وهي تسأله بغتةً وكأنها تختبر مشاعره:

- إنت لسه بتحبني؟

وضعت قبضتيه على ذراعيها يجيبها:

- طبعًا، مشاعري من ناحيتك عمرها ما اتغيرت للحظة.

قالت بتلعثم:

- بس أكيد نفسك تخلف و.. أنا... بأحاول .. بس ...

قاطعها بابتسامة راضية:

- دي حاجة في علم الغيب يا "مريم"، لا أنا ولا إنتي لينا يد فيها، وقت ما ربنا يأذن هيكرمنا، ولو مأردش فالحمدلله.

عادت لتسأله بنظراتٍ دامعةٍ:

- يعني مش زعلان؟

أخرج زفيرًا مطولًا من صدره قبل أن يجيبها ممازحًا:

- شوية، بس أنا واثق إن "طاهر" هيروق عليا!

لكزته برفق في جانبه وهي تعاتبه بعبوس رقيق:

- برضوه هايقولي "طاهر"!

شدد من ضمه لكتفيها وهو يميل على أذنها متغزلًا بجمالها الذي سلب عقله:

- أحلى "طاهر"!

توردت بشرتها من مداعباته الموحية التي تهون عليها وتمحو آثار التعاسة من حياتها، أكمل الاثنان سيرهما وهما لا يعرفان أي مفاجأة تنتظر "مريم" في ذكرى والدتها السنوية.

*****

رفعت كفيها أمام شاهد قبرها تقرأ لها الفاتحة وتدعو لها بالمغفرة والرحمة، ما زالت تشتاق لوجودها رغم مضي عامٍ كامل على رحيلها، فحضن الأم لا يعوض وإن طال الزمن، كانت "مريم" ممتنة لزوجها الذي ساعدها في توجيهها لأماكن التبرع بالأموال والمتعلقات الشخصية كصدقة جارية على روحها، ولم تنقطع هي عن عادة زيارة الفقراء والمحتاجين ممن كانت والدتها تُحسن عليهم في الخفاء، شعرت بيد "مصطفى" توضع على كتفها قبل أن يسألها:

- خلصتي يا "مريم"؟

أجابته بصوتٍ حزين:

- أيوه، ربنا يرحمها.

قال لها مواسيًا:

- هي في مكان أحسن دلوقتي، وأكيد مبسوطة لما شافتك كملتي حياتك.

- الحمدلله.

ابتسم مضيفًا:

- عاوزين الزيارة الجاية نفرحها.

عفويًا انخفضت يدها على بطنها تتلمسه، فقال بتفاؤلٍ:

- خالك "عوني" قال نتايج تحليل الدم هتبان بكرة، وأنا مستبشر خير.

سألته في ترددٍ متلهفٍ:

- تفتكر هابقى حامل؟

أجابها عن ثقة كاملة:

- سيبيها على الله، وادعي.

استدار كلاهما للخلف ليجدا رجلًا عجوزًا نال الشيب من بقايا شعره المتناثر على رأسه الأصلع يقطع عليهما الطريق، لم تكن ملامحه بالغريبة عنهما، شعرت "مريم" أنها رأته من قبل، ارتدت خطوة للخلف في خوفٍ حينما استطرد معرفًا بنفسه:

- إزيك يا بنتي، أنا أبوكي "منصور"، فكراني؟!

شخصت أبصارها ذهولًا من رؤيته، تلقائيًا داهم عقلها آخر ذكريات عنيفة جمعتها به، تحركت لتقف خلف "مصطفى" وتعلقت بذراعه كأنها تحتمي به، تفاجأ الأخير من ردة فعلها الخائفة ونظر لها في استغرابٍ، اقترب "منصور" خطوة أخرى منهما وهو يحاول طمأنتها:

- متخافيش يا "مريم"!

دق قلبها في رعب من معرفته لاسمها، بينما أوضح بتمهلٍ:

- ماتستغربيش عرفت اسمك منين، أنا رجعت من فترة قريبة، واتطأست وسألت وعرفت كل حاجة عنك. أشفق "مصطفى" على حاله البائس الذي كان مقروءًا على وجهه ومظهره، استدار برأسه قليلًا للجانب ليهمس لزوجته:

- أنا جمبك يا حبيبتي، متقلقيش، بس أنا رأيي تشوفي جاي ليه.

رأت في نظرات "مصطفى" رجاءً ظاهرًا، فلم ترغب في خذله، وما شجعها على سؤاله وقوفه بجوارها؛ لذا استقامت واقفة وظهرت من خلفه تسأل والدها -الغائب الحاضر من وجهها نظرها- باستهجان:

- إنت إيه اللي فكرك بيا دلوقتي؟ مش أنا مت بالنسبالك ودفنتني بالحيا؟ طأطأ رأسه مجيبًا إياها في خزي:

- أنا آسف.

كلمة اعتذار لطالما تمنت أن تسمعها والدتها وليس هي بعد أن عانت الويلات بسبب ظلمه المُجحِف، لكنها لن تجدي الآن، فلن تعيد الموتى أحياء، ولن تنسيها معاناة الماضي؛ لذا ردت عليه تهاجمه بعدائية:

- آسف على إيه بالظبط؟ على الألم اللي عيشتنا فيه؟ ولا على الطرد من هنا زمان لحاجة مالناش ذنب فيها، ده إنت اعتبرتني مت وأنا معملتش حاجة، محيتني من حياتك ببساطة، وحتى إخواتي حرمتني منهم؟ راجع دلوقتي تقول آسف كده ببساطة وكأنك معملتش فيا حاجة؟

لم يجرؤ على التطلع إليها وهو يرد:

- كان الطمع عاميني، بس ربنا خد حقكم مني، ونلت جزائي.

سأله "مصطفى" ليستوضح منه:

- قصدك إيه يا عم "منصور"؟

لم يقوَ والدها على الوقف باستقامة، فعبئه الثقيل قسم ظهره وأحناه، بحث "منصور" عن أقرب شاهد ليستند عليه بيده، رفع نظراته الحزينة إلى وجه ابنته المحتقن يفسر لها:

- بعد ما جوزت إخواتك ورجعت العراق ومعايا "خديجة" ومراتي الجديدة، ربنا رزقني بالولد اللي كان نفسي فيه، فرحت وقولت أدي الوريث اللي كنت عاوزه جالي ..بس...

قطع عبارته ليلتقط أنفاسه اللاهثة فقد نال العجز والمرض من جسده، حاول الوقوف مستقيمًا ليرى تأثير كلماته على ابنته وهو يتابع:

- لما "فريد" اتولد كان نموه غريب شوية، في الأول ماهتميناش، بس بعد شهور اكتشفنا إنه مش زي أي ولد طبيعي، كان عنده مشاكل صحية، وطبعًا صرفت عليه كل مليم جمعته عشان يخف ويبقى زي الفل، بس ربنا مأردش!

وضعت "مريم" يدها على فمها كردة فعل على صدمتها من الحقائق التي يليقها على مسامعها، انفلتت دمعة من عين والدها الذي قال بصوته المائل للبكاء وهو يصف حال ابنه:

- الابن اللي اتمنيته في الدنيا طلع عاجز، مشلول، عاوز اللي يرعاه ويشيله!

بالطبع لم يكن من اليسير على "منصور" بعد سنوات الانتظار تلك أن يدرك أن وريثه المنتظر من ذوي الاحتياجات الخاصة، لن يتبدل حاله مطلقًا، سيظل هكذا معتمدًا على الآخرين إلى أن يموت، رغمًا عنها تألمت للحسرة الواضحة على خلجات وجه أبيها المتجعدة، مسح الأخير طرف أنفه بإصبعه المكرمش جلده قبل أن يكمل بصعوبة والكدر مسيطر عليه:

- ومراتي مكانتش زي أمك، طلعت قليلة الأصل، ماستحملتنيش ولا قدرت تربي ابنها، سابته ليا وطلبت الطلاق عشان تتجوز اللي يقدر يعيشها أحسن مني، وحتى أختك "خديجة" مقدرتش تشيل همه معايا، اتجوزت وسافرت وحصلت إخواتها اللي قطعوا علاقتهم بيا، وفضلت أنا لوحدي مع ابني العاجز "فريد".

قاومت نوبة البكاء التي تجتاحها لتهاجمه:

- إنت اللي عملت ده في نفسك، اتبطرت على نعمة ربنا واستكبرت.

قال وهو لا يزال غارقًا في حزنه:

- أيوه، وده عقاب ربنا ليا.

سألته بقسوة اكتسبتها منه:

- وجاي دلوقتي ليه؟

أجابها في قهر:

- أنا مش عاوز منك حاجة غير إنك تسامحيني.

لم تستطع أن تنظر له بعينين مشفقتين، بل استمرت في قسوتها معه فأضافت مشيرة بيدها للخلف:

- أطلب السماح من أمي اللي ماتت.

أحنى رأسه في إذلال أكبر وهو يرد:

- كان نفسي أقدر أعمل ده، بس الحق خد حقه بدري.

مقتت "مريم" طريقته التي تجبرها على إظهار تعاطفها معه، لم تتحمل المزيد منه،

أرادت أن تهرب من أمامه قبل أن تخبو قسوتها المصطنعة ويظهر ضعفها وشفقتها، انسحبت مبتعدة عنه لكن صوته التعس ناداها بصدقٍ:

- "مريم"!

تسمرت قدماها لا إراديًا على صوته الذي عرف كيف يؤثر في قلبها ويلينه نحوه، التفتت إليه لفتة سريعة حادة ترمقه فيها بنظرات متوترة قبل أن تسأله:

- عاوز إيه تاني؟ مش قولت اللي عندك؟

قال مجازفًا بحنوٍ أبوي فلم يعد يملك ما يخسره بعد زوال الصحة، والمال، والأولاد:

- أنا بس.. بأوصيكي على "فريد"، لو جرالي حاجة هو مالوش حد بعد ربنا غيرك.

اهتزت عيناها بعبراتها المتأثرة وانسابت أمامه لتبكي في ألم وآسي، تجرأ "منصور" ليضع يده على كتف ابنته معتذرًا من جديد:

- حقك عليا يا "مريم"، سامحيني يا بنتي!

ودون أن يضيع الفرصة احتضنها لأول مرة معترفًا بها كابنته التي أنجبها من صلبه، تصلب جسدها وأجهشت بالبكاء تلومه:

- ليه عملت فينا كده؟ ليه حرمتني منك وظلمت أمي؟

ردد نفس الكلمات النادمة:

- أنا أسف، حقك عليا، سامحيني!

انفجرت ببكاءٍ أكثر حرقة، فشدد من ضمه الأبوي لها ليحتوي غضبها المبرر منه، أحست بذراعيه تطوقانها بنفس القوة التي عاهدته منه وإن شعرت برجفته، كم اشتاقت لذلك الحضن الحنون منه وحلمت به مرارًا حتى ظنت أنها ستفنى دون أن تحظى به مجددًا! استندت على كتفه وأراحت رأسها عليه، صمت "منصور" وبكى بنحيبٍ مثلها متشاطرًا معها معاناتها وندمه، في حين راقب "مصطفى" المشهد المثير للعواطف بنظراتٍ متأسفة، لم يعلق على جدالهما المحتدم إلا بالقليل الحيادي الحذر، فمن الأفضل لكليهما أن يتصافيا دون تدخله.

تنهد والدها قائلًا وكأنه قد انتهى من مهمة شاقة:

- خدي بالك من نفسك يا "مريم"، ولو جتلك فرصة إنك تزوريني فهتلاقيني فاتح بابي ومستنيكي.

أومأت برأسها موافقة، فابتسم لها في امتنانٍ شاكرٍ، ثم ودعها ملوحًا بيده وبكلمات تضمنت الدعاء لها، راقبته "مريم" وهو يختفي مثلما ظهر وقدماها مرتكزة في مكانها، لم تصدق ترتيبات القدر التي جمعتها به في النهاية لتدرك بعد لقائه المحمل بالأوجاع بأن الحياة عادلة تعطي لكل ذي حق حقه.

*****

زغرودة فرحة تلتها أخرى أكثر صخبًا وقوة انطلقت تهز جدران منزل عائلة "مصطفى" ابتهاجًا بميلاد ابنه البكري الذي لم يتم اختيار اسمه بعد، تسابقت النساء في إعداد الطعام الشهي وتوزيعه على الضيوف المدعوين لتلك الحفلة البهيجة فيما عدا "صباح" التي تعللت بتعب الحمل لتتجنب أي مشقة إضافية تلقى على عاتقها، فاكتفت بالمشاهدة والتصفيق وأحيانًا إطلاق الزغاريد.

كان على رأس المتواجدين بصالة المنزل "منصور"، حيث أصـرت "مريم" على حضوره رغم عدم رغبة الأخير في إزعاجها أو التطفل على حياتها وتنغيص فرحتها بتعاسته، جلس منزويًا عند الركن وإلى جواره "فريد" الجالس على مقعده المتحرك، يصافح بفتور من يقترب ليسلم عليه، لم يتوقع أن تعامل "مريم" ابنه بكل ذلك الحب والود، كانت أرحم عليه من والدته، منحته اهتمامها ورعايتها حتى أوشكت على الولادة فأوصت زوجها بعدم التقصير في حقه، و"مصطفى" كان جديرًا بثقتها فزاد على ما تقوم به ولم يبخل عليه بشيء، كان شاكرًا لهما وممتنًا لمعروفهما، فهي لم تقابل إساءته سوى بالإحسان، وظلمه سوى بالعدل والإشفاق، ندم أشد الندم لأنه فوت على نفسه فرصة تقبل قضاء الله ونقم عليه فابتلاه في الباقي من حياته.

أخفى دمعاته المتسللة وهو يراقب سعادة الآخرين بميلاد حفيده، ثم تابع نظرات المحيطين المتباهية بابنته في حبور، تعلقت عيناه بوجهها الضاحك وهي تتمايل بمولودها في رقةٍ لتخطو فوق موقد البخور وزوجها إلى جوارها يمازحها بطرفاته اللطيفة فأضفى جوًا من المرح على الحاضرين، خفق قلبه ودق في توترٍ حينما رآها تنظر إليه مبتسمة، تسارعت نبضاته مع اقترابها منه حاملة رضيعها بين ذراعيها، تأهب في جلسته وتطلع إليها لاعقًا شفتيه المشققتين، مالت "مريم" عليه تقول له في حنانٍ:

- مش هاتشيل ابني يا بابا؟

سألها في عدم تصديق:

- إنتي عاوزاني أشيله؟

هزت رأسها قائلة:

- طبعًا، مش إنت جده يا حاج "منصور"؟

رد بسذاجة:

- أيوه مظبوط.. أنا جده!

ثم بكى ضاحكًا من فرحته، استغرق لحظة لينهض واقفًا على قدميه، تأمل بعينيه الدامعتين الملاك النائم الذي تحمله، ثم مدت "مريم" ذراعيها به نحوه ليتمكن من حمله، ضمه إلى صدره برفقٍ حذر وقبّله أعلى رأسه، رفع وجهه إليها يسألها:

- أبوه سماه إيه؟

دق قلبه في طربٍ وبدا أكثر إحساسًا بالسعادة حينما أجابته بابتسامةٍ ذات معنى خاص:

- "طاهر" يا بابا، "طـــاهر عمران"!

*****

-تمت-